الميراث الديمغرافي العربي للحضارة العربية الإسلامية

د. عبد الكريم اليافي

توطئة

يتناول هذا البحث ديمغرافيةالوطن العربي أي سكانه من الوجهة الكمية والاحصائية في الوقت الحاضر • ولفظ الديمغرافية بتخفيف الياء لفظ أجنبي معرّب حديثاً يتالف من أصلين يونانيين معناهما وصف الشعب او وصف السكان • وقد راج للدلالة على علم يتناول المجتمعات البشرية من حيث حجومها وتركيب كل منها وخصائصه ولا سيما من النواحي الكمية • وهو أحد العلوم الاجتماعية الحديثة • ويقال له أيضاً علم السكان • ونحن نستعمل اللفظين العربي والأجنبي المعرّب وننسب اليهما فنقول سكاني • والنسبة الى الجمع واردة في اللغة العربية ، كما نقول ديمغرافي • هذا ولكل علم مصطلحاته وتصوراته ودلالاته المحددة • ونظراً لذلك وتحرياً للدقة نتطرق الى شرح بعض المصطلحات فيه لبيان ما يراد منها عند ورودها في هذا البحث • ولا يخلو هذا التطرق من فائدة • وانما نريد أن نحدد واقع الميراث الديمغرافي العربي المتطور ونجلو في الوقت نفسه معالم المجتمع العربي البشرية ، ونشير الى ملامح المشكلات المعترضة ونحقق في بعض الشؤون العلمية والاصطلاحية •

تستند الدراسات السكانية الى ثلاثة مصادر مهمة : وهي أولا « التعداد » الذي يتناول جميع السكان في بلد من البلدان وفي وقت واحد ويقال له « تعداد عام » • ولكن قد يجري تعداد صنف من السكان لغرض من الأغراض أو تعداد في جزء من البلاد فيقال له « تعداد جزئي » • ولا يقتصر التعداد على مجرد العد واعطاء رقم المجموع بل يتبين توزع الناس في المناطق ويستعلم بعضاً من صفاتهم وخصائصهم الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والصحية وغيرها •

فالاطلاع على ذلك كله بالاحصاء في زمن من الأزمان هو الاطـلاع على ما يسمى في الديمغرافية « حالة السكان » • حالة السكان هذه اذن كانها صورة ضوئية لهم مأخـوذة من الوجهة الاحصائية في وقت من الأوقات •

وللتعداد طرق وشروط وأنواع معروفة ومتداولة في كتب الاحصاء • ولكن الشعب ليس ثابتاً بل هو متغير ودائم التغير وذلك بالولادات والوفيات والتقدم في العمر وبتغـير الحال المدنية بالزواج والطلاق والترمل ، ثم كذلك بالهجرة الى البلد وبالهجرة منـه • ومجموع هذه التغيرات يدعى « حركة السكان العامة » •

فاذا كانت حالة السكان تشف عن الجانب السكوني منهم فان حركتهم بهذا المعنى الديمغرافي الذي حددناه تشف عن جانبهم المتطور أي الدينامي •

والتغير العددي الحاصل بالولادات والوفيات فقط بصرف النظر عن الهجرة يدعى « حركة السكان الطبيعية » ولما كانت المواليد تربو على الوفيات غالباً في المجتمعات قيل لهذه الحركة « نمو السكان الطبيعي » أي زيادتهم الطبيعية •

وباعتبار حـركة الهجرة يدعى الشعب مغلقاً اذا كـان لا يتلقى هجرة من خارجـه ولا تصدر عنه هجرة الى الخارج ، ومفتوحاً اذا كان تتناوله الهجرة منه واليه •

واذا أضيفت حركة الهجرة الى حركة السكان الطبيعية قيـل كما سلف للمجمـوع « حركة السكان العامة •

وتتم معرفـة حركـة السـكان بضبط الأحوال المدنية أو الاحصاء الحيوي(١) ومطالعة هذا الاحصاء في سجلات دوائر النفوس أو مكاتب الصحة حسب التسمية الرائجة في البلـد العربي • والاحصاء الحيوي أو ضبط الأحوال المدنية هو المصدر الثاني الذي يستند اليه علم السـكان •

كانت الدولة في الزمن السابق تتالف من فئات وهيئات اجتماعية كالأسـر والطوائف والنقابات مرتبة على شكل هرم تقوم في رأسه الدولة • وكل اتصال للدولة بالأفراد كان يتم بطريق تلك الهيئات والفئات فاذا رغبت الدولة مثلا في فرض ضرائب مالية أو توزيع مكافآت عامة عمدت الى تلك الجماعات وهذه هي التي توزع تلك المكافآت على أفرادها أو تتطلب مقادير الضرائب المالية منهم • وكذلك اذا اضطـرت الدولة قديماً الى التعبئـة العسكريـة كانت تقتضي ملاكي الأراضي والطوائف والأسر نصيباً مفروضاً من الجند •

ثم لما توطد الاحصاء الحيوي وتمضبط الأحوال المدنية وتواتر التعداد في الدولة كل عشر سنوات أو قريباً من ذلك وألفـه الناس ازداد اشراف الدولة المباشر على الأفـراد • وهكذا اقترن تقدم الاحصاء الديمغرافي بتقـدم أهميـة الفـرد ومكانتـه في التنظيـم الاجتماعي عامـة •

والدولة الحديثة في العصر الحاضر على الرغم من أهمية النقابات والشركات وغيرها من المؤسسات والهيئات تقيم للفرد وزنه وتعلي شانه وتستطيع الاتصال به فـوراً اذا

اقتضت الحال • ولهذا أيضاً مع نشوء التعداد ازدادت المعلومات التي تتطلبها الحكومة الحديثة عن الأفراد لأنها مسؤولة عنهم ، تهتم بجميع شؤونهم الديمغرافية والثقافية والاقتصادية والسياسية والصحية وغيرها •

وبالجملة فان التعداد ضروري لحسن ادارة الدولة وتصريف أمورها وتوجيه شؤونها توجيهاً صحيحاً في مختلف الميادين وذلك بمعرفة عدد السكان أي حجمهم ومعرفة أعمارهم وجملة من صفاتهم الثقافية والاقتصادية والصحية وأمثالها •

وكذلك ضبط الأحوال المدنية وتسجيل المواليد والوفيات والزواج وهلم جرا كل ذلك ضروري لتتبع حركة الشعب هل هو في زيادة أو نقصان أو ثبوت ، ولمحاولة تلافي الأمراض وتحسين صحة الأفراد ورعاية نموهم الفكري والجسمي وحساب أفواجهم وفئات أعمارهم • وذلك كله يدخل في سياسة الدولة الديمغرافية •

وثمة مصدر ثالث يستند اليه علم السكان وهو ما يدعى بالمسح أو الاستعلام وهو يتطلب معلومات في موضوع خاص وله غرض ، كالاستعلامات عن الولادات والوفيات في أي حدود هي وعن العمال مثلا كم عددهم بين السكان أو عن الأمية الى أي مدى هي متفشية مثلا • ولا بد في الاستعلام هذا من اعتماد جزء من السكان يستطيع أن يمثلهم جميعاً تمثيلا يحدده حساب الاحتمال • وهذا الجزء يدعى بالعيّنة • والمسح بالعينة يدعى اعتيانا ويلجأ اليه عند الحاجة • بالتعداد الذي يبرز حالة السكان وبالاحصاء الحيوي الذي يتتبع حركتهم وبالمسح الذي يستعلم بعض خصائصهم وصفاتهم تتيسر معرفة السكان وجملة قضاياهم وشؤونهم • وفي طليعة هذه المعرفة تقدير عددهم وحساب كثافتهم •

* * *

سُكّان العالم

من المفيد بادىء ذي بدء معرفة حجم سكان العالم اذا أردنا أن ندرس حجم سكان الوطن العربي لكي ندرك نسبتهم في المجموع ونقدر مكانتهم بينهم ونستشف الشأو المتاح لهم أن يبلغوه في المستقبل •

ذلك أن الانسانية على وجه الأرض كالكائن الحي تتطور وتنمو وتتسع • وهي في هذا الاتساع والنمو والتطور تجري في أوصالها وشائج الحياة المشتركة خفية وظاهرة •

ان التضامن بين شعوب النوع الانساني كان ولا يزال دائماً أعمق مما يظن وأشد مما يقدر ، على الرغم من الحروب الفتاكة ، وعلى الرغم من عدوان الانسان في بعض الأحيان على أخيه الانسان •

ولقد ذهب فريق من الفلاسفة القدماء أمثال الرواقيين وهم طائفة من فلاسفة اليونان الى أن الكون عبارة عن حيوان كبير أي جسم حي ضخم بالغ الضخامة ، وذهب مفكرون آخرون أمثال اخوان الصفا في الحضارة العربية الاسلامية الى أنه انسان كبير اشارة منهم جميعاً الى سر الحياة المبثوثة في جوانب العالم كله . ونحن هنا بعيدون من أن نذهب هذا المذهب الميتافيزيائي الصرف . وانما نكتفي فننوّه بالأواصر التي تربط بين الناس على المعمورة ، وباستفادة بعضهم من تجارب الآخرين في مختلف الميادين مادية وروحية ، واقتباسهم شعلة التراث الانساني جيلا عن جيل وحمل بعض الأمم نبراسها بعد بعض ، وزيادة ايقاد تلك الشعلة لتبديد الجهل والظلام ، وتقليل البؤس والشقاء ، وللتحرير من الافتئات والاستغلال ولتوطيد أركان السلام ، واسباغ التعاون والوئام ، والسعي للوصول الى حياة كريمة واسعة فاضلة .

ولم يكن الناس أشد شعوراً بالأواصر التي تصل بينهم وتجمع بين قلوبهم وأمانيهم منهم في هذا العصر الحديث على الرغم من التشادّ الظاهر والتنازع الكامن . فلقد ازداد عددهم ازدياداً كبيراً ، وتقدموا في ميادين العلم والصناعة ، وتفننوا في الوسائل الداعية الى التعارف، فانتشرت الصحف والمجلات التي تحمل أخبار المجتمعات انتشاراً واسعاً ، وشاعت الاذاعات التي تبث أمواجها فتبلغ كل مكان على المعمورة ووصل الهاتف السلكي واللاسلكي بين الأقطار المتنائية وصله بين الأقطار الدانية . ثم ان القاطرات والسيارات والسفن وعابرات المحيط والطائرات المروحية والنفاثة قربت بين جوانب الأرض ، ويسّرت الرحلات والأسفار واختصرت الأزمنة والمسافات . ولا ينفك العلم والتقانة يتقدمان تقدماً مطرداً ومستمراً . ورافق ذلك كله أن اشتد الاهتمام بالأمور الاقتصادية في العصر الحاضر فعمدت الدول الى زيادة الانتاج وتحسينه والى تبادل السلع والغلات والى البحث عن الأسواق استيراداً وتصديراً . وكذلك اشتد التسابق في مضمار الثقافة والابتكار والتفنن كما اشتد الانتباه للأحداث السياسية في مختلف البلدان ، اذ أصبح الحدث السياسي في قطر لا يعدم له صدى وأثراً في بقية الأقطار وسائر الشعوب .

وكما أن ارتباط الأمور الثقافية والاقتصادية والصناعية والصحية بعضها ببعض واضح لا ريب فيه في القطر الواحدكذلك بدأ يتضح في العصر الحاضر ارتباط هذه الأمور في القطر بأمثالها في القطر الآخر وفي البلد القريب والبعيد للسهولة المبدئية في التنقل والسفر والاطلاع والنشر والاذاعة والتلفزيون • حتى ان اقامة بعض البلدان حوائل في هذه السبل تشير الى هذا الارتباط حين تحاول تحامي التأثر بما يجري في البلد الآخر على ميدان الثقافة أو السياسة أو الدعاية أو التجارة أو غيرها •

ولا بد في هذه الدراسة السكانية من ايراد الأرقام المناسبة لأنها مستند للفكر ومعتمد للمقايسة والموازنة وسبيل للتدقيق وأداة للتنبه الى بعض الجوانب الاجتماعية وان كانت الأرقام أنفسها رهينة التغير مع أحوال المجتمعات وصروفها • ولذلك يلزم في الحين بعد الحين مراجعتها وتجديدها •

ولا يستطيع ايراد الأرقام في ذاته أن يشف عن سريان الحياة الاجتماعية والفكرية المشتركة في الشعب الواحد ولا عن سريانها بين الشعوب والأمم • وانما قصاراه أن يبرز مدى اتساع الأطر الديمغرافية التي يؤلفونها والتي تجري فيها الظواهر الانسانية •

ونذكر فيما يأتي عدد سكان العالم كله وكذلك سكان القارات وسكان الوطن العربي جملة في الوقت الحاضر ، كما نذكر المساحات التي يعمرونها وكثافاتهم وتقديراتهم حتى عام ٢٠٠٠ •

وكما أنه حين نجري قياساً في العلم يلزم أن نذكر مدى ضبطه ودقته كذلك من المناسب أن نشير الى أن تلك الأرقام المذكورة تقريبية ، وليست دقيقة كل الدقة ولا مضبوطة تمام الضبط • فليست إحصاءات السكان في مختلف بلدان العالم على درجة واحدة من الجودة والتدقيق • ونحن حين نجمع أرقام تلك الاحصاءات لا نجمع أرقاماً متماثلة في درجة الدقة • ثم ان أصول التعداد التي استند اليها تقدير السكان تتفاوت بتفاوت البلدان • وكذلك ضبط الاحصاء الحيوي أو التسجيل المدني الذي يعوّل عليه الحاسبون ليس واحداً • وليس أعداد السكان وخصائصهم ثابتة بل هي رهن التغير والتبدل بالمواليد والوفيات والهجرة كما

سلف • وهي حركات دائبة مستمرة • فالأرقام التي تقدم في تقدير سكـان العالم وكثافة الأرض وسكان القارات وكثافاتها ينبغي أن تعتبر دائماً أرقاماً تقريبية • ولا يستطيع أحد أن يقول لنا مثلا ان عددسكان الأرض أو سكان قطر من الأقطار هل هو في وقت ما زوج أم فرد لأن كلتـا الحالين محتملـة بسبب التغير الـدائب والتـَجَـدُّد الدائم •

وليس التقريب بقادح في قيم تلـك الأرقام ولا في جدواها • بل على العكس إن جميع تلك الأرقـام ومعالجتهـا على قواعد علمية ركينة ورصينة وتَـفَـهُّـم نتائج المعـالجـة وتَـبَـيُّـن دلالاتهـا تشف عـن جهود كبيرة بذلتها هيئات محلية وإقليمية وعالمية ، وتشير الى تقدم علمي بالغ يتناول هذه المقادير المشتتة الضخمة الواسعة ويستطيع أن يستوعبها وأن يتعرف خصائصها في تطورها وأن يتوقع ما تصير اليه وأن يضبط هذه الصيرورة وأن يوجههـا حيث تعم الجدوى ويتسع النفع وتتيسر المصلحـة ويبلـغ النمو شـأوه وغايته • وانما قدمنا هذه المقدمة مع هذا الجدول العالمي تمهيداً لدراسة سكان الوطن العربي الذي هو موضوع هذا البحث •

تقدير سكان العالم والقارات والوطن العربي

	عدد السكان بالألوف في السنوات			المساحة بألوف	الكثافة
	١٩٨٨	١٩٩٠	٢٠٠٠	الكيلومترات المربعة	١٩٨٨
العالم	٥ ١١٢ ٢٩٨	٥ ٢٤٦ ٢٠٩	٦ ١٢١ ٨١٣	١٣٥ ٧٤٧	٣٨
آسيا	٢٩٩٥ ٨١٢	٣ ٥٧ ٦٤٩	٣٥ ٤٨٩٩٤	٢٧ ٥٧٢	١٠٩
إفريقية	٦٠٩ ٧١٨	٦٤٥ ٢٨٢	٨٧١ ٨١٧	٣٠ ٣١٣	٢٠
أقيانوسية	٢٥ ٧٤٢	٢٦ ٤٦٧	٠٣٠ ٠٦٢	٨ ٥٠٩	٣
أمريكة	٧٠١ ٧١٢	٧٢٦ ٣٩٧	٨٤٣ ٧٣٠	٤٢ ٠٧٨	١٧
أوربة مع الاتحادالسوفيتي	٧٧٩ ٣١٤	٧٩٠ ٤١٤	٨٢٧ ٢١٠	٢٧ ٦٧٦	٢٩
الوطن العربي	٢١٣ ٩٩١	٢١٧ ١٠٨	٢٨١ ٤٠٦	١٣ ٧٠٨	١٦

أعد هذا الجدول، بالاعتماد على الحوليتين 1988 World Health Satistics Annual (WHO)
1988 Statistical Yearbook (Unesco)

سكان الوطن العربي

تزيد مساحة الوطن العربي على ١٣ر٧ مليون كيلو متر مربع ويقارب عدد سكانه ٢١٨ مليون نسمة ، فهو أوسع بلادالعالم التي تسكنها أمة واحدة اذ تربو مساحته على عُشر مساحة المعمورة[٢] • ويزيد مرتين ونصف المرة على مساحة أوربة[٣] ومرةً وثُلُثَ المرة على بلاد الصين ، ويكاد يعادل مرة ونصف المرة مساحة الولايات المتحدة الأمريكية • أماسكانه فيؤلفون $\frac{١}{٢٥}$ من سكان المعمورة •

وهو يقع في أهم مناطق الأرض اذ يصل بين قارات ثلاث • وهو يشغل شمالي افريقية وغربي آسيا • ويقع ثلثاه تقريباً في القارة الأولى وباقيه في الثانية • وهو يترامى من المحيط الأطلسي الى الخليج العربي وبحر عُمان والمحيط الهندي مستحماً على الشاطئين الشرقي في جهةوالجنوبي المتطاول من البحر الأبيض المتوسط في جهة ثانية ومستوعبا البحر الأحمر • وهو يشرف على منطقة اتصال المحيط الأطلسي بالبحر الأبيض المتوسط في مضيق جبل طارق ، وعلى منطقة اتصال البحر الأبيض المتوسط بالبحر الأحمر في قناة السويس ، وعلى منطقة اتصال البحر الأحمر ومن ورائهالبحر الأبيض المتوسط والمحيط الأطلسي بالمحيط الهندي في مضيق باب المندب • ففي يَدَيِ الوطن العربي مفاتيح هذه البحار كلها.كما أنه واجهة آسيا وافريقيةتجاه الغرب والشمال وجسر الاتصال الكبير بين القارات •

وهو واقع في أجود بقاع الأرض اعتدالاً وأكثرها جمالاً وأسناها ضياءً وكذلك هو غني إلى أبعد حدٍّ بالممتلكاتالاقتصادية والانسانية والسياسية على اختلاف أنواعها •

هذا وان الثقافة العربية الاسلامية هي المالئة لأرجاء هذا الوطن الواسع • على أنه اذا كان يسكن فيه بعض الجاليات الأجنبية القليلة فان مئات الألوف بل

الملايين من العرب يقيمون متفرقين أو جاليات في مواطن أخرى ولا سيما في أواسط افريقية وجنوبيها وفي أواسط آسيا حتى أقاصيها وفي أمريكة ولا سيما الجنوبية . وهم على الغالب ينزعون بأفئدتهم وأفكارهم وذكرياتهم وأصولهم الى موطنهم الأول .

والعالم العربي يسلك سبيل توطيد السلام في الأرض ويعمل على توكيد الصداقة مع سائر الشعوب وهو اذا تقدم وقوي يستطيع أن يغدو واحة سلام وخير وبركة بين أنحاء العالم وملتقى حضارات تتفاعل لخير الانسانية ومنطقة تبادل للقيم المادية والروحية في العالم ووسيلة تفاهم وتضافر بين الشعوب (وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس وليكون الرسول شهيداً عليكم) (٢ـ١٤٣).

ولذلك كله لا نغالي اذا قلنا ان مستقبل الانسانية كلها من بعض الوجوه مرتبط بتقدم البلاد العربية ورهين" بمَنَعَتِها وسلامتها حتى تكون كحصن السلام الآمن في خضم المستقبل المبهم الغامض . وفي هذا اطمئنان لجميع الشعوب ، وفي هذا من الشأو ما ينبغي أن تسعى له البلاد العربية بعد أن تتخلص من آثار الاستعمار وبعد أن تشتد وتستوثق عُرا التعاون والتضامن بينها .

وكذلك ندرك عاجلاً أو آجلاً بطلان المحاولات غير الانسانية التي تقصد الى تفريق شمل البلاد العربية والكيد لها وطعن أوصالها برؤوس الحروب واقامة حوائل اقتصادية وفكرية دون تسهيل التقاء الشعب العربي بعضه ببعض. وهذا جدول بالدول العربية التي تتألف منها الجامعة العربية مع عدد سكان كل منها ومساحته والنسبة المئوية للسكان وللمساحة في المجموع .

★ ★ ★

الدولة	المساحة بالكم٢	النسبة ٪	عدد السكان بالألوف	النسبة ٪	الكثافة
المملكة الأردنية الهاشمية	٩٧ ٧٤٠	٧ر٠	٣ ٩٤٣	١ر٨	٤٠
دولة الإمارات العربية المتحدة	٨٣ ٦٠٠	٦ر٠	١ ٥٠١	٧ر٠	١٨
دولة البحرين	٦٢٢	٠٥ر٠	٤٨١	٢ر٠	٧٧٣
الجمهورية التونسية	١٦٣٦١٠	١ر٢	٧٨٠٩	٣ر٦	٤٨
الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية	٢٣٨١٧٤١	١٧ر٤	٢٣ ٨٤١	١١	١٠
جمهورية جيبوتي	٢٢ ٠٠٠	٢ر٠	٣٨٣	١٨ر٠	١٧
المملكة العربية السعودية	٢١٤٩٦٩٠	١٥ر٧	١٣٠٧٠	٦	٦
جمهورية السودان الديمقراطية	٢٥٠٠٥٨١٣	١٨ر٣	٢٣ ٧٩٧	١١	٩
الجمهورية العربية السورية	١٨٥١٨٠	١ر٤	١١٦٣٨	٥ر٤	٦٢ر٨
جمهورية الصومال الديمقراطية	٦٣٧٦٥٧	٤ر٧	٧١٠٦	٣ر٣	١١
الجمهورية العراقية	٤٣٤ ٩٢٤	٣ر٢	١٧٦٥٦	٨	٤٠ر٦
سلطنة عمان	٢١٢٤٦٠	١ر٥	١ ٣٧٧	٦ر٠	٦ر٥
فلسطين	٢٧٠٠٩	٢ر٠	٤٩٠٠		
دولة قطر	١١٦١٠	١ر٠	٣٤٠	٢ر٠	٢٩
دولة الكويت	١٧٨١٨	١ر٠	١٩٣٨	٩ر٠	١٠٩
الجمهورية اللبنانية	١٠٤٠٠	١ر٠	٢٨٢٧	١ر٣	٢٧٢
الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية	١٧٥٩٥٤٠	١٢ر٨	٤٢٣٢	١ر٩	٢
جمهورية مصر العربية	١٠٠١٤٤٩	٧ر٣	٥١٤٥٣	٢٤	٥١
المملكة المغربية	٤٤٦٥٥٠	٣ر٢	٢٣٩١٠	١١	٥٣ر٥
الجمهورية الإسلامية الموريتانية	١٠٣٠٧٠٠	٧ر٥	١٩١٦	٩ر٠	١ر٩
الجمهورية العربية اليمنية	١٩٥٠٠٠	١ر٤	٧٥٣٤	٣ر٥	٣٨ر٦
جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية	٣٣٢٩٧٠٠	٢ر٤	٢٣٣٩	١ر١	٧
المجموع	١٣٧٠٨٠٨٣		٢١٣٩٩١		

عدد السكان من 1988 World Health Statistics Annual

والمساحات من الكتاب الإحصائي السنوي للبلاد العربية (العدد السادس) مجلس الوحدة الاقتصادية العربية (الأمانة العامة) (١٩٨٤).

تزيد على الجدول الصحراء الغربية في افريقية ، ثم الثغور السورية الشمالية التي اقتطعتها تركيا من سورية في أعقاب الحرب العالمية الأولى وكذلك لواء اسكندرونة الذي سلخته فرنسة المنتدبة وأعطته تركيا سنة ١٩٣٨ ـ ١٩٣٩ ٠

ويمكن تصنيف البلاد العربية حسب حجوم السكان في ست زمر ٠ وهي بالترتيب المتصاعد ٠

اقل من مليون	قطر ـ جيبوتي ـ البحرين
١ ـ ٥ ملايين	عُمان ـ الامارات ـ موريتانيا ـ الكويت ـ اليمن الديمقراطية ـ لبنان ـ الأردن ـ ليبيا
٥ ـ ١٠ ملايين	الصومال ـ اليمن العربية ـ تونس
١٠ ـ ٢٠ مليونا	سورية ـ السعودية ـ العراق
٢٠ ـ ٢٥ مليونا	السودان ـ الجزائر ـ المغرب
فوق خمسين مليونا	مصر

هذا والذي يبتدر الملاحظة الديمغرافية في مجموع العالم العربي قلة السكان فيه بالنظر لاتساع المساحة اذ تنقص الكثافة الحسابية الوسطية فيه عن ١٦ نسمة في الكيلو متر المربع منه وهي ضئيلة جداً وأقل من كثافة الأرض كلها وهي تبلغ ٣٨ ٠ والعالم العربي اذا تقدمت الأمور الصحية والاقتصادية والعلمية فيه يستطيع أن يحمل مائتي مليون نسمة زيادة على عدد سكانه الحاليين ٠

ان زيادة السكان ضرورة ملحة في الوطن العربي ٠ فكل زيادة للناس في ربوعه من شأنها أن تزيد في عمرانه وفي ممكناته الاقتصادية وفي الدخل الفردي لأغلبية أقطاره ٠ نعم ! ان هنالك قسماً كبيراً من الصحارى والأراضي المجدبة تقع في أجوازه ، كما أن هنالك بعض الأقطار فيه تكاد تكون غاصة بالسكان كمصر ولبنان ٠ ولكن ثمة أراضي كثيرة في أجزاء البلاد العربية أيضاً ما زالت غير مستثمرة ، وهي تستدعي أيدياً عاملة ، وجهوداً بشرية قوية ، وتقنيات متقدمة ، واستصلاحاً ناجعاً ٠

ومن المعلوم أن قيام المشروعات الصناعية الكبيرة متصل ببلوغ كثافة السكان حداً مناسباً • وبهذا الاعتبار تكون زيادة السكان في الوطن العربي وسيلة من وسائل تقدمه الاقتصادي كما تكون وسيلة لعمرانه ولتقدم المواصلات فيه ولجعل الكثافة السكانية تستطيع رد العدوان عليه ان وقع وتهيئة مقاومة سريعة ، أو لجعلها تقوى على اقامة مشاريع اقتصادية وعلمية وعمرانية مفيدة • ان زيادة السكان في أجزاء الوطن العربي بما تستلزم من عمران وتسهيل مواصلات وتقدم اقتصادي ونشاط فكري وتعاون اجتماعي معناها تنشيط الدم الجاري في أوصاله وزيادة القوة وبث الحياة المتوثبة فيه • ان الانسان في الوطن العربي هو أساس تقدمه وحصن منعته وسر نمائه ونشاطه •

بيد أن التنويه بمكانة زيادة السكان تشير في الديمغرافية وفي الجغرافية البشرية قضية الحد الموافق من السكان • ولا بد من الالمام بها وجلاء غامضها وشرح عناصرها •

قضية الحد من الموافق وكثافات السكان

لا شك أن أبسط معيار يُستند اليه في الحكم على زيادة السكان أو قلتهم يكون بتأمل كثافتهم الحسابية وهي خارج قسمة عدد السكان على مساحة الأرض التي يعيشون عليها ، أي عدد السكان في وحدة المساحة المعتمدة • ويجوز أيضاً العكس وهو حساب خارج المساحة على عدد السكان أي ما ينوب الشخص الواحد من مساحة الأرض التي يشغلونها • ولكن قسمة السكان على المساحة أكثر استعمالا وتداولا •

ان كثافة الوطن العربي نحو ١٦ في الكيلو متر المربع كما سلف • ولكن أجزاء هذا العالم تختلف في درجة الكثافة • وقد سردنا في جدول سكان الدول العربية كثافات تلك الأجزاء • ولا شك أن الاغتصاص البارز انما هو في وادي النيل حيث تتجاوز كثافة السكان الذين يعيشون على الأرض المزروعة المأهولة فيه ١٢٠٠ نسمة في الكم٢ وهي من أعلى الكثافات • ويزيد عبء هذا الاغتصاص أن السكان يعيشون في الغالب على الزراعة • بيد أن مستوى الحياة قد تحسن جداً بعد التخلص من الاستعمار وبعد اقامة دعائم الصناعة •

ان اختلاف الكثافة متعلق بعوامل متعددة • ولا شك أن نظام الاقتصاد المستند الى الصناعة يزيد في طاقة استيعاب الأرض للسكان • وهذا ما هو حاصل في أوربة والبلاد الصناعية عامة • وكذلك نظام الاقتصاد الزراعي الذي يعتمد أصحابه في غذائهم على البقول والحبوب لا على اللحوم • وهذا ما هو حاصل في الهند وشبه جزيرة الهند الصينية والصين • ولكن هذا النظام الزراعي اذا ساعد على زيادة السكان لا يدر بالغنى والثراء عليهم وانما يجعل مستوى معيشتهم منخفضاً • الا أن الصين بعد جمع شمل أجزائها واستتباب نظامها الحديث جعلت تعتمد على اقامة أركان الصناعة الحديثة • كذلك يتعلق اختلاف الكثافة بقضايا تاريخية كالحروب وهجرة بعض الأقوام من بعض المناطق الى مناطق أخرى وغيرها •

وقد يتعلق اختلاف الكثافة بعوامل جغرافية كنوع التضاريس ودرجة خصب الأرض ووفرة المياه ومجاري الأنهار وغزارة الأمطار • وتأثير مثل هذه العوامل الجغرافية واضح في البلاد العربية حيث لم تتم سيطرة الانسان على الطبيعة • ولقد سلفت الاشارة الى ارتفاع الكثافة في وادي النيل الخصب ومن المعلوم أن الزراعة في هذا الوادي تعتمد على مياه النيل لا على الأمطار ، حتى انه قيل في مصر انها هبة النيل • واذا نظرنا الى سورية مثلا وجدنا محافظة اللاذقية وهي على الساحل شديدة الاستيعاب نسبياً للسكان ومساحتها تؤلف ٢ر٥ بالمائة من مساحة القطر وهي من أغزر المحافظات السورية أمطاراً زيادة على صفتها الساحلية • وعدد سكان محافظة اللاذقية يكاد يعادل مجموع سكان محافظة دير الزور ومحافظة الحسكة مع أن مساحتيهما معاً تؤلفان ٣ر٣٠ من مساحة البلاد •

على أن منطقة الجزيرة في شمال شرقي سورية قليلة السكان جداً مع أنها أخصب الأراضي • وهذا يدعو الى النظر في العوامل التاريخية والملمات التي أصابت البلاد وجعلت بعضها غامراً بعد أن كان في الماضي عامراً •

والأمر كذلك في المغرب العربي في يومنا هذا • أليس يتلقى أنفاس الصحراء الكبرى الحارة ؟! ولذلك لا غَروَ اذا وجدنا السكان يتجمعون فيه حول مناطق المياه • ولو نظرنا الى الجمهورية التونسية لوجدنا الكثافة في الشمال أعلى بكثير منها

في الجنوب • والشمال أغزر مطراً من الجنوب • ومن الخطأ أيضاً أن نقتصر في المغرب على العوامل الجغرافية الطبيعية وحدها • بل ينبغي الرجوع الى التاريخ والى تغير طبيعة الأراضي وسبل المواصلات التي تربط أنحاء البلاد بعضها ببعض والى تبدل ذلك وفق الأحوال السياسية والسيادة أو التبعية • كان أكثر سبل المواصلات في الجزائر وفي المغرب موازياً لساحل البحر الأبيض المتوسط اذ كانت تصل البلاد العربية بعضها ببعض، ثم خربها الاستعمار وأنشأ سبلاً عمودية على الساحل ليسهل له الوصول الى أعماق البلاد، كما استولى على أخصب الأراضي واستغلها اذ ذاك لصالحه •

بيد أن الأنهار ومياه الأمطار الغزيرة قد ينوب عنها في رفاهية السكان واجتذابهم آبار النفط • بل إن آبار النفط هذه أجدى عائدة وأوفر اقتصاداً وأشد ثراءً من مياه الأمطار ومن الأنهار لو لم تكن مدخراتها محدودة • وهي قديرة بعوائدها الجمة على تحلية مياه البحر واستصلاح الأراضي واحالة الرمال حدائق جميلة وعلى رفع مستوى معيشة السكان وعلى اجتذاب العمال والتجار وغيرهم من كل صقع • هذا ولا يخفى هجرة التجار والعمال والمهندسين وأمثالهم في البلاد العربية وغيرها الى المملكة السعودية والى الكويت والى دولة الامارات والى ليبيا • ومثل تلك الآبار المتفجرة أحياناً في الصحارى تجعل الحاجة ماسة الى الأيدي العاملة والى العمران واتساع البنيان •

لهذا كله كانت الكثافة الحسابية غير كافية للدلالة على مدى استيعاب الأرض للناس • وهي في الواقع لا تُخَوِّل الموازنة والمقايسة بين سكان البلدان لاختلاف الأراضي في الخصب وتفاوت صلاحها للزراعة ولتباين الموارد الاقتصادية وغير ذلك •

فلا عجب اذا عمد الباحثون الى التماس أقيسة أكثر ملاءمة تُسهل لهم الموازنة والمقابلة بين سكان البلاد المختلفة • وليس قياس من هذه القياسات التي تصوّرها العلماء بكاف كل الكفاية • ولكنها اذ تؤدي الى نتائج متفاوتة تكشف عن اشتباك الجوانب في قضية كثافة السكان وفي نمط معيشتهم ومستوى حياتهم • ومن المناسب أن نعرض أطرافاً من هذه القياسات •

عمد العلماء الى حساب كثافة دعوها بالكثافة الفيزيولوجية لا تدخل فيها مساحة الأراضي المجدبة وانما تقتصر على عدد السكان العام مقسوماً على مساحة الأراضي المزروعة أو الصالحة للزراعة كما ذكرنا ذلك بصدد وادي النيل • ولكن الاعتماد على هذه الكثافة لا يخلومن مساوىء ، لأن الأراضي المزروعة ليست سواء في درجة الخصب ولأن أساليب معالجتها واستغلالها وانتاجها تتفاوت بين البلدان في درجة الجودة • ولا ريب أن الفدان الواحد يعطي غلات مختلفة حسب خصب الأرض والعناية بها وتعهدها •

على أنه لو تساوت الدولتان فرضاً في خصب أراضيهما وفي أساليب استغلالهما لها لجاز أن تعتمد احداهما على ما تخرجه صناعتها من سماد في معالجة أراضيها على حين تبادل الأخرى بعض سلعها الزراعية والصناعية للحصول على مثل ذلك السماد •

ثم ان هنالك موارد أخرى للثروة غير الأراضي كالصناعة مثلاً اذ يتمكن السكان من مبادلة الغلات الزراعية المجنية في البلاد الأخرى بسلعهم المصنوعة • ولذلك يرى بعض الباحثين ابعاد السكان الذين يشتغلون بالصناعة وأمثالها والاقتصار على السكان الذين يعتمدون في معاشهم على زراعة الأرض • فينتهون في حسابهم الى ما يسمونه الكثافة الزراعية أو كثافة الزراعيين •

على أنه يلزم النظر في التجارة والصناعة الى جانب الزراعة • وكذلك لا يجوز اغفال أَرْكِزَة الأرض وكنوزها ومواردها الطبيعية المعدنية ولا موارد البحار والأنهار والمياه الداخلية • وقد سبق أن آبار النفط في توفير الرزق وتيسير الثروة وتسهيل أسباب المعيشة أكبر قيمة من خصب الأرض الزراعي الغزير •

ولا يخفى أيضاً لزوم اعتبار نمط الحياة الاجتماعية والسياسية والادارية في البلاد والحذر من الشركات الرأسمالية الأجنبية التي تتحكم في الأسواق وفي أسعار النفط وأحياناً في اشعال الحروب لترويج بيع الأسلحة ثم في تعمير ما خربته تلك الحروب •

ان الانتباه لكل ذلك وحسابه أمر يتصعب جداً • ولذلك يعمد الى حساب

دخل الفرد والى اعتبار ما يدعى بالحدالموافق أو العدد الأمثل للسكان في بيان درجة ازدحام الناس أو تخلخلهم في مجتمع من المجتمعات ٠

ومعنى هذا الحد الموافق أو العدد الأمثل وجود حالٍ من التوازن بين عدد السكان من جهة والموارد المتهيئة من جهةمقابلة بحيث يستمتع الشعب بأوفر قسط من الرخاء الاقتصادي أو بأوفر دخل لكل شخص ٠

وتكون البلاد ضئيلة الكثافة أو قليلة السكان اذا كانت كل زيادة لهم فيها ترفع الدخل الشخصي أو تزيد الرخاء العام ٠ وتكون مكتظة اذا كانت الزيادة لا تفعل شيئاً من ذلك أو كانت تنقصه ٠ والخلاصة أن علاقة عدد السكان بمساحة الأرض علاقة مشتبكة ينبغي أن ينظر فيها الى الموارد المختلفة والى نوع الأعمال وهل هي زراعية أو صناعية والى صفة الاختصاص عند العمال والى درجة الانتاجية والى توافر رؤوس الأموال وأمثال ذلك ٠

هذا وان الاكتظاظ الذي تبدو سماته في بعض البلدان مردّه الى قلة استغلال الموارد الطبيعية وضعف اختصاص العمال ومجرد الاعتماد على الزراعة ٠ فالاكتظاظ في نهاية التحليل ظاهرة من ظواهر التأخر يزول عند أخذ المجتمع بأسباب التقدم ٠ وهذا كله من شأنه أن يلزم الباحث بالتريث عند حكمه على قضية مشتبكة متعددة الجوانب كقضية الكثافة والحد الموافق للسكان ٠

وهذه كثافة بعض الدول الصناعية وغيرها عام ١٩٨٦ نوردها لمجرد المقارنة والموازنة مع الدول العربية :

المملكة المتحدة ٢٣٣ ـ بلجيكا ٣٢٥ ـ فرنسة ١٠١ ـ الولايات المتحدة ٢٦ ـ الاتحاد السوفياتي ١٣ ـ الصين ١١٢ ـ هونغ كونغ ٥٢٩٢ ٠

ـ الأرقام مأخوذة من Statistical Yearbook Unesco (1988) .

الريفيون والحضريون والبدو

ان الكثافة الزراعية تفرق كما رأينا بين المشتغلين بالزراعة وغيرهم من المواطنين ٠ على أنه كثيراً ما يُعْمَد الى النظر في نسبة السكان الريفيين والمدنيين أو الحضر مكان لفظ الكثافة الزراعية ٠

فاذا قابلنا عدد سكان الأرياف بعدد سكان المدن في المجتمع ظهر فرق بين البلاد التي تسود فيها أشكال الاقتصاد الريفي والبلاد التي أثر النمو الاقتصادي الصناعي في نسبة العددين حتى انه قلل من عدد الريفيين جداً ٠

هذه المقابلة اذ تميز الريفي من الحضري أو المدني[٤] تعتمد التفريق بين البلد وبين القرية أو المركز الريفي ٠

وليس هذا التفريق واحداً في المجتمعات كلها ٠ وفي أغلب البلدان الأوربية يعتبر الحد الأعلى لسكان المركز الريفي ألفي نسمة ٠

وفي الولايات المتحدة الأمريكية يعين مكتب تعداد السكان في واشنطن مبدأ التفريق بين الريف والحضر عند كل تعداد ٠

وكذلك في الاتحاد السوفياتي يقرر مجلس السوفيات الأعلى حينما تعتزم الدولة إجراء التعداد أي المناطق ينبغي اعتبارها مراكز ريفية لأن بعض المراكز القليلة السكان صناعية فلا تدخل في الريف عندهم ٠

وغالباً ما يعتبر الحد الأدنى للمدينة أو المركز الحضري في البلاد العربية عشرين ألف نسمة ٠ وتدخل في الحضر مراكز الأقسام الادارية كمراكز الألوية والمديريات والمحافظات والأقضية والقصبات ذات المجالس البلدية ٠

ان تصنيف الناس ريفيين وحضريين انما هو اعتبار اقتصادي احصائي ٠

تقل نسبة السكان الريفيين في مجموع السكان عن ٤٠ في المئة في الدول ذات الاقتصاد الصناعي المتقدمة ٠ وهي بين ٤٠ الى ٧٥٪ في الدول التي تأثرت بالاقتصاد الصناعي وبتجمع رؤوس الأموال لديها ٠ وهي تتجاوز ٧٥٪ في البلاد التي ما زالت الصناعات الحديثة فيها ضعيفة ٠

وأحياناً يفضل حساب نسبة سكان المدن في مجموع السكان لبيان مدى التمدين أو التحضر ويمكن تصنيف البلاد العربية في مدى التحضر أي نسبة سكان المدن في مجموع السكان في ثلاث مجموعات :

١ ـ البلاد ذات المعدل الحضري العالي ، وهي الكويت والبحرين وقطر وبعض الامارات في دولة الامارات العربية المتحدة ، حيث تنقص نسبة الريفيين فيها عن ٢٥ ٪ ٠

٢ ـ البلاد ذات المعدل الحضري المتوسط كالسعودية ومصر وليبيا وتونس والجزائر والمغرب والعراق والأردن وسورية نسبة الريفيين فيها بين ٦٠ ـ ٢٥٪ .

٣ ـ البلاد ذات المعدل الحضري المنخفض نسبة الريفيين فيها أكثر من ٦٠٪ .

وأهم عامل في نمو الحضر بالعالم العربي الهجرة الداخلية من الريف الى المدن والهجرة الخارجية الى هذه المناطق . وهذا النمو صائر الى الازدياد ولكنه بحاجة الى الضبط والتنظيم .

هنالك صنف ثالث في المجتمعات العربية ليس مستقراً وهو البدو . ولا بد من لمحة تتلمس حياتهم .

البداوة ظاهرة طبيعية تطلق على حياة القبائل الرحل التي تتنقل في قلب البادية أو الصحراء وحركة هؤلاء أفقية . ففي الشتاء والربيع ينتجعون مواقع الغيث ومواطن الكلأ ، وفي الصيف والخريف يتركون جوف الصحراء ويقتربون من الأنهار وآبار المياه ويخيمون قريباً من المدن . أما الرعاة الذين يعيشون في شعاف الجبال فحركتهم رأسية أي يهبطون الى الوهاد والسهول في الشتاء عند انخفاض الحرارة وهطل الثلوج ويصعدون ابّان الصيف في المرتفعات المكسوة بالكلأ لرعي قطعانهم . وجميعهم يقتصرون على الضروري من الأقوات واللباس ويتخذون البيوت من الشعر والوبر والأكواخ من القصب وأحياناً من اللبن والحجارة قصداً للاستظلال والكِنّ أما من كان معاشه في السائمة مثل الغنم والبقر فيقال لهم شاوية ومعناه القائمون على الشاء والبقر وهم يتقلبون في البادية يرتادون المراعي والمياه لحيواناتهم . وأما من كان معاشهم في الابل فهم أكثر ظعناً وأبعد في القفر مجالاً .

والبدو أصل للريف والحضر وسابق عليهما وخشونة البداوة قبل رقة الحضارة على حد تعبير ابن خلدون في مقدمته الشهيرة . وهم عنده أقرب الى الخير والى الشجاعة كما أن من صفاتهم حب الحرية والاخلاص للقبيلة .

والقبيلة هي العمود الفقري للحياة الاجتماعية البدوية وهي التي تنتمي أفرادها الى جد واحد وتضم الأهل والأسر والأحفاد .

ومضيف شيخ القبيلة شبيه بالندوةالنيابية لأفراد القبيلة يتناقل الجميع فيه الأخبار الواردة ٠ وفيه تنزل الوفود القادمة ، وفيـه يُبرم كثير من الأمـور التي تهم القبيلة ٠ وقد دخلت أجهـزة الترنزستور أقصى خيام البدو ٠ فهم يستمعون الى الأخبار العالمية والمحلية وينصتـونالى ترتيـل آيات القـرآن الكـريم والى الموسيقى والأغاني ، كما أنهم الى جانبمطاياهـم مـن الابل والخيل يستعمـل أغنياؤهـم السيارات ٠ وعنـدهم مـنالأسلحة ما يردون به عن أنفسهم العدوان وان وقع العدوان على أحد أفراد القبيلةولم تتهيأ الدية أو التعويض ولا الصلـح لجأ أقرباء المعتدى عليه الى الثأر ، وهوأمر كان معروفاً في جاهلية العرب فحرمه الدين الحنيف ٠ ولكن التخلف والجهـلجعـلاه يـذرّ قرنـه أحياناً بين الأسـر والقبائل ٠ وقد قللت من شرّته سيطرةالحكومات المحلية وحسن تصرف الشيوخ وحكمتهـم وتأثـر نمط الحياة البدويـة بخصـائص الحيـاة المدنيـة المعاصـرة وتطورها الفكري والتقني ٠ وقد أوجدتهذه الحياة حاجات ومآرب جديدة قريبـة من حياة الريف وحياة الحضر ٠

ان هذا التأثر بالحيـاة المدنية المعاصرة كان نتيجة وسائل الاعلام ونتيجـة تطور وسائل المواصلات مثل مـد شبكاتالطرق والسكك ووسائل النقل الحديثـة التي حدت من عزلة البدو بل قضت عليهاوأودى ذلـك كلـه الى ضعف الرابطـة العصبية وانحلالها والى الاستقرار التدريجي الذي حل محل الظعن والترحـال ٠ ومن استقر من البدو أصبح يزاول الزراعة وينتقل من الحياة البدوية الى الحياة الريفية ويدخـل في نظام التعليـم الذيتطبقه الحكومات المحلية ٠

وقد أخذت الدول العربية منذ أوائلالقرن العشرين تهتم بهذا الجزء الطيب من سكانها وهو البدو فعمدت الى توزيعالأراضي ومعالجة الملكية الزراعية والى توفير الآبار في البوادي والى نشر التعليمووسائل الثقافة ٠ وشرع البدوي يرتبط بأرضه ووطنه ويبرز بين أبناء الوطـن فيمختلف الميادين الاجتماعيـة والثقافيـة والسياسية محافظاً على ذكائه الفطـريوطباعـه الأصيلـة وعقيدتـه الرفيعـة العاليـة ٠

وفي جميع البلاد العربية مشاريع لتوطين البدو تتحقـق بالتدريج والتنظيـم ولا سيما في سورية والعراق ودول الخليجوالمغرب العربي ٠ ومن أبرزها مشـروع غياثي في دولة الامارات ٠

أما الاهتمام بالزراعة والتشجير فهوقائم على قدم وساق في مختلف أنحاء الوطن العربي مع انشاء السدود وجر المياه وتحلية ماء البحر أحياناً • وكما تغلب الهولنديون على البحر بانشاء بعض الأراضي الزراعية فوقه قرب الشاطىء فقد تغلب أبناء الخليج على الصحراء وقتامها وجعلوا بعض جوانبها حدائق وبساتين وجنات يحف بها الدوح والأشجار وتنبت من كل زوج بهيج ، وأناروها بالكهرباء انارة تبعث الراحة والطمأنينة والرضا في النفوس • ومع ذلك فلا بد في الحياة من مشكلات ناشبة • وقيمة الانسان في تغلبه على هذه المشكلات وحلها حلا يعود بالخير والمصلحة العامة على الوطن والشعب •

الذكور والاناث ومعيار نسبتها

يمكن حساب نسبة الذكور الى الاناث بين المواليد أولاً وفي المجتمع كله ثانياً ، وذلك بالنظر في سجلات مكاتب الصحة أو في نتائج التعداد أو بطريق التقدير المستند الى تلك النتائج والسجلات •

نسبة الذكور الى الاناث بين المواليد ظهر بالاحصاء والتسجيل الدقيقين أن هذه النسبة ثابتة وهي تساوي ١٠٥ صبيان الى ١٠٠ بنت • وقد ترتفع بعض الشيء وقد لوحظ ذلك غب الحروب فتبلغ على أكثر تقدير ١٠٧ وقد تنخفض الى ١٠٢ ولكنها تبقى دائماً حول ١٠٥ • وثبوتها هذا عبارة عن معيار ديمغرافي دقيق • وهو متعارف الى درجة أنه لو وجدت النسبة في نتيجة الاحصاء أو التعداد تزيد على ذلك أو تنقص عنه بمقدار كبير لصح أن يتخذ ذلك دليلا على خطأ التسجيل وقلة ضبطه • وقد تدعى هذه النسبة اختصاراً نسبة الجنس أو نسبة الذكورة • وعلى سبيل التمثيل نسبة الجنس بين المواليد ١٠٥ في الامارات العربية المتحدة والبحرين والكويت وقطر وهي ١٠٦ في مصر والعراق والأردن ولبنان وسورية واليمن الديمقراطية واليمن العربية وعمان والسعودية (١٩٨٦) • ولو ظهر في بعض البلدان العربية ارتفاع هذه النسبة أحياناً لرجع ذلك الى قلة الضبط في مكاتب الصحة أو دوائر التسجيل ولا سيما في بعض الأرياف وكأن هؤلاء الريفيين بعاداتهم القديمة يبلغ بهم اجلالهم لاناثهم وغيرتهم عليهن ألا يسجلوا أسماءهن عند الولادة أو عند التعداد • ولكن هذه العادات صائرة الى التغير والى الرغبة في ضبط الأمور الذي هو في مصلحة الجميع •

نسبة الذكور الى الاناث بين السكان : ارباء البنين على البنات في العدد بين المواليد من شأنه أن يجعل في جميع البلادين فئات الأعمار الفتية عدد الصبيان أكثر بقليل من عدد البنات ولا سيما منذالولادة حتى سن العشرين أو بعدها بقليل • ولكن عدد الاناث لا يلبث أن يعادل عدد الذكور لأن وفيات الذكور أكبر عادة من وفيات الاناث في جميع مراحل العمر اذا تساوت العناية والأحوال الاجتماعية التي يعيش فيها الجنسان •

وهنالك صروف تدخل نقصاً على عدد أحد الجنسين :

الهجرة الخارجية التي حملت مئات الألوف في القرن التاسع عشر الى أمريكة واسترالية زادت في عدد الذكور الشباب بهما ، لأن أكثر المهاجرين كانوا من جنس الذكور ، وبالمقابل زادت في نسبة الاناث بالبلاد التي رحل عنها أولئك المهاجرون •

وكذلك الشأن في البلاد النفطية العربية • فقد حملت تيارات الهجرة اليها آلافاً من العمال العرب والعمال الأجانب والتجار والموظفين والسماسرة والمهندسين والمعلمين ممن هي بحاجة اليهم في شتى شؤون الحياة والمعيشة والادارة • ولكن هذه البلاد عمدت الى تنظيم تلك التيارات فلا يدخل اليها منها الا من هم يلبّون حاجاتها ومآربها • وأكثر هؤلاء من الذكور يهاجرون أول الأمر بأنفسهم ثم قد تلحق بهم أسرهم اذا سمحت الظروف بذلك •

ثم ان الهجرة الداخلية من الأرياف الى المدن الكبيرة تحمل على الغالب الذكور للعمل وتبوؤ بعض المناصب الادارية أو غيرها كما هو جارٍ في عواصم الدول العربية ومدنها الكبيرة • وهكذا يُرْبي عدد الذكور على الاناث في هذه المدن والعواصم •

والحروب عامل ضخم في تنقيص عدد الرجال لدى بعض فئات الأعمار وهي بالمقابل تزيد نسبة النساء في الأعمار الموازية كما حصل ذلك في ألمانية والاتحاد السوفياتي من جراء الحرب العالمية الأخيرة ، ولكن التقنيات الحديثة في الحروب والرجم بالقنابل لا تفرّق بين أحد من الجنسين •

ومهما اضطربت نسبة الذكور الى الاناث في المجتمع فهي تعود بالتدرج الى الاعتدال بطريق المواليد بحيث يبقى الجنسان قريبي التعادل في العدد •

ان اغفال التسجيل يدخل نصيباً من الاضطراب في نتائج التعداد السكاني الجاري في بعض البلاد العربية وفي عدد المواليد ولا سيما الاناث في بعض الأرياف كما سلف ذكره • ولا بد عند تأمل تلك الأرقام ودراستها من محاولة تصحيحها بالأساليب العلمية الحديثة •

على انه اذا كانت وفيات الذكور في الحال الطبيعية السوية أكثر من وفيات الاناث في مختلف الأعمار وهو ما يجعل عدد الاناث يرتفع تدرجاً مع ارتفاع السن فان وفيات الاناث في البلدان العربية لا تزال مرتفعة بسبب الزواج المبكر وتعدد الحمل وحصول الولادة أحياناً في الأرياف دون اشراف طبيب أو قابلة مختصة وتعرّض الأمهات الوالدات لحمى النفاس التي قد تودي بحياتهن • ولهذا كله لزمت العناية بهذا الركن الأساسي الصحي للمجتمع الناشيء ، فلا تحصل ولادة الا في مشفى وباشراف طبيب أوقابلة وفي ذلك حماية للأمهات وللمواليد ، وصيانة لهذا الجانب الغض من المجتمع •

الأعمار ومضلعاتها ومعيار فتوة الشعب وهرمه

من السهل في كل مجتمع معرفة عدد أفواج الأحياء حسب أعمارهم من الولادة أي من الصفر حتى أكلأ(٥) العمر الذي يبلغه الانسان نحو مائة وعشر سنين أو مائة وعشرين سنة •

وتقسم في علم السكان هذه الأعمار الكثيرة الى فئات تستغرق كل فئة خمس سنين أو عشراً • ويمكن أن يعرف عدد الأشخاص من الذكور ومن الاناث في كل فئة من فئات الأعمار تلك أو نسبة كل منهم في المجموع •

ولمعرفة أفواج الأعمار شأن • فمن المعلوم أن نشاط الحياة الاقتصادية منوط في جملة العوامل بعدد الشبان والكهول القادرين على العمل والانتاج • وان التوازن بين محاصيل الأعمال التي ينجزها الكهول والشبان والنفقات التي يستدعيها الأطفال والمسنون والعجزة يتعلق بعدد كل فريق منهم • ثم انه لا بد ان نشبت الحرب من معرفة عدد الرجال القادرين على حمل السلاح • وكذلك في التربية والتعليم من المناسب معرفة عدد الأطفال الذين تقع تبعة تعليمهم على الدولة اذا

بلغوا سناً معينة من أجل انشاء عدد كاف من المدارس • والأمثلة كثيرة في هذا المجال قد يطول استقصاؤها •

وكذلك تفيد معرفة توزيع الأعمار في تفهم كثير من خصائص السكان الديمغرافية الأخرى وتساعد على قياسها وحسابها •

ولدراسة الأعمار بالتفصيل يعمد العلماء الى رسم ما يدعونه هرَم الأعمار ترجمة حرفية للفظ الأجنبي ولفظ الهرم يدل على المجسم المعروف في مبادىء الهندسة • وليس الشكل هنا هرَماً • وانما شاع هذا اللفظ في علم السكان ارتجالا وهو في أحسن التأويلات يشبه مقطعاً سطحياً للهرم • ونحن نؤثر استعمال لفظ مضلع الأعمار •

ويرسم المضلع هذا بأن نحمل الأعمار من الصفر الى الحد الأعلى (مائة وأكثر) على محور الترتيبات ، وأن يحمل على محور الفواصل عدد أفراد الفوج أي عدد الأحياء في كل فئة من فئات العمر • ويوضع مضلع الاناث في جانب من المحور الرأسي ومضلع الذكور في جانب آخر • وتؤخذ فئات الأعمار خمس سنين أو عشراً كما ذكر آنفاً • وأحياناً تؤخذ كل سنة بل كل شهر في السنين الأولى من العمر لأهمية الوفيات بين الرضع والأطفال ، فيحصل خط بياني منكسر • ولو نقصنا فروق الأعمار حتى تبلغ سنة أو شهراً لاقترب الخط المنكسر من المنحني •

ويجوز أن تحمل على محور الفواصل نسبة كل فوج في جملة السكان • وتفضل هذه الطريقة خاصة حين تُقصَد المقايسة والموازنة بين الشعوب في تسلسل الأعمار من الوجهة الديمغرافية •

يكون الشعب فتياً اذا كان المضلع عريض القاعدة دقيق القمة ، وذلك حين يكون الشعب كثير المواليد • ويكون الشعب هَرِماً اذا كانت قاعدة المضلع ضيقة وقسمه العالي واسعاً منتفخاً ، وتكون المواليد والوفيات قليلة اذ ذاك •

والشعب الهَرِم والشعب الفتي مصطلحان ديمغرافيان كما شرحنا ولا يقصد بهذين التعبيرين معنى آخر • هذا وينبغي أن يُفرَّق بين الشعب الهرم والشعب

القديم أو التاريخي • فالشعب العربي في العصر الحاضر شعب فتي بمعنى أنه كثير المواليد ولكنه شعب تاريخي وقديم •

ان مضلع الأعمار للشعب سجل تاريخي للأحداث الانسانية الكبيرة التي تلم به وتؤثر فيه كالحروب والهجرة منه واليه والأزمات الاقتصادية • فالحروب الدامية تتسبب بهلاك طائفة من الناس يظهر غيابها على مضلع الأعمار في شكل فجوة أو ثغرة بين الذكور في أعمار معينة • والأزمات الاقتصادية والمجاعات وأمثالها من كوارث تستدعي كثرة الوفيات أو الهجرة من البلاد • ثم انه ينشأ عن ذلك غيض في المواليد ولا سيما من جراء قتلى الحروب ، وغيض المواليد هذا يظهر في شكل فجوتين أو ثغرتين على جانبي المضلع تدعيان بالطبقات الجُوف • وهي بدورها تترك أثراً في خفض عدد عقود الزواج ونقص المواليد في المستقبل • وذلك كما تنجم عن سقوط حجر في الماء أمواج متلاحقة تنداح على سطحه • فدراسة مضلع الأعمار دراسة دقيقة تَشِفُّ عن أحداث الشعب التاريخية التي تركت في بِنْيتِهِ آثاراً وتفيد في توقع أحداث ديمغرافية مقبلة كهبوط عقود الزواج مثلاً متى بلغت تلك الطبقات الجوف سن الزواج •

واذا دققنا مضلعات الأعمار لشعوب البلدان العربية النفطية وجدناها منتفخة في جانب الذكور خاصة لأعمار معينة • وذلك ناشيء عن هجرة الشباب والكهول للعمل فيها •

وقد يعتمد الباحثون بعض المعايير والأدلة الحسابية في معرفة فتوة الشعب وهرمه • انهم قد يحسبون العمر المتوسط للشعب وهو الوسط الحسابي لأعمار السكان أي هو عبارة عن مجموع أعمار السكان مقسوماً على عددهم • فاذا كان منخفضاً دل على فتوة الشعب كما في البلاد العربية • ولكن العمر المتوسط هذا ضعيف الدلالة • فقد يكون لشعبين جد مختلفين في التركيب عمر متوسط واحد • ثم ان كل تغير يطرأ في هرم الشعب يظهر أثره ضئيلاً في تبدل العمر المتوسط • هذا وان شخصين وليداً ورجلاً في الستين من عمره لا يعادلان رجلين كلاهما في الثلاثين من العمر •

وقد يحسب العمر الوسيط وهو مصطلح احصائي آخر ومعناه العمر الذي

يقسم مجموع السكان قسمين متساويين بحيث يكون عددهم فوقه يكافىء عددهم دونه • هذا ويفضل أن يُصنف السكان في ثلاث فئات كبيرة تقع أعمار أفرادها تباعاً كما يلي :

٠ ـ ١٩

٢٠ ـ ٥٩ وقد تقسم الى قسمين ٢٠ ـ ٣٩ ، ٤٠ ـ ٥٩

٦٠ فما فوق •

وعندئذ يُقابل بين تركيب هذه الفئات في شعبين مختلفين أو في شعب واحد لزمنين مختلفين • هذه الفئات الكبيرةالثلاث ذات صفات متفاوتة •

فالفئة الأولى (٠ ١٩) تشمل الأطفال والأحداث واليافعين، وهم عماد المستقبل ولكنهم من الوجهة الاجتماعية يعيشون على نفقة الفئة الثانية اذ لا يكاد يبدأ الفتى يشتغل الا حول سن الخامسة عشرة •

والفئة الثانية تضم الشباب والكهول أي المنتجين حقاًفي ميدان الحياةالاجتماعية. واذا ابتدأ الانتاج حول سن الخامسة عشرة فقد يستمر أحياناً الى ما وراء الستين ولا سيما في مجال الأعمال الزراعية •

والفئة الثالثة تحوي المسنين والشيوخ الذين بلغوا سن التقاعد أو الاحالة على المعاش وبدؤوا ينقطعون بالتدريج عن الانتاج •

ولا يخفى أن عدد كل فئة بالنسبة الى المجموع أو الى الفئتين الأخريين يقدم فكرة جلية عن قوى الشعب وعن فتوته وعن هرمه •

واليك المعايير المعتمدة حديثاً في هذاالمجال ، وهي أدلة عددية :

يعتبر الشعب فتياً اذا كانت نسبة الذين أعمارهم أقل من ٢٠ سنة فيه أكثر من ٣٥ في المائة • وأنه لا يزال في مرحلةالفتوة اذا ترجحت هذه النسبة بين ٣٣ ـ ٣٥ •

وأنه ليس بشديد الهرم اذا كانتهذه النسبة فيه تساوي ٣٠ •

وأنه هَرِم اذا نقصت هذه النسبةفيه عن ٣٠ •

واذا نظرنا الى عدد الذين أعمارهم أقل من ٤٠ سنة اعتبرنا الشعب فتياً اذا كانت نسبتهم فيه لا تقل عن ٦٥ في المائة •

واذا نظرنا الى عدد الذين تجاوزوا الستين فيكون الشعب فتياً أيضاً ان كانت نسبتهم لا تزيد على ١٢٪ ٠

هذا وفي كثير من الأحيـان تحسب النسبة الآتية :

$$\frac{\text{عـدد الذيـن فوق الستين سنة}}{\text{عـدد الذيـن تحت العشرين سنة}}$$

فالشعب الفتي تكون هذه النسبة فيه أقل من ٤ر٠

هذا ويترتب على هـرم الشعب أوفتوته نتائج في ميدان الحياة الاجتماعية والاقتصادية والديمغرافية تحتاج الى شرح ومناقشة ٠

الـزواج والولادة والخصـب

نظم الاسلام الزواج تنظيماً دقيقاً وحفـز عليـه ورغـّب فيـه ٠ وهو عنـد الشافعية من الشهوات لا من القربات ، فالتخلي للعبادة عندهم لغير التائق للزواج أفضل من الزواج ، وهو عنـد الحنابلة سنة ٠ والاشتغال به أفضل مـن التخلي لنوافل العبادة ٠ وهو عند المالكية مندوب على الجملة ، ولكنه يبلغ عند الحنفيـة مرتبة العبادة ٠ بل يصل عند ابن حزم الظاهـري الى مرتبـة الفريضـة علـى القـادر لـه ٠

ولا شك في أن تنظيم الاسلام للزواج كان حرصاً منه على ضمان غريزة الحب وتوجيهها وجعلها تسلك أفضل السبل الى غايتها ألا وهي تتام الزوجين من الناحية الفيزيولوجيـة والنفسية والاجتماعية وتعاونهما وتوادهما وتراحمهما وسـكون أحدهما الى الآخر ٠ « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا اليهـا وجعل بينكم مودة ورحمة ان في ذلك لآياتلقوم يتفكرون » (الروم ٣٠ : ٢١) ٠

وهكذا أقام الاسلام على غريـزة الحبالطبيعية نظاماً شرعياً واجتماعياً أعلى وأسمى من مجرد الميل الطبيعي ٠ يضاف الى ذلك قلوب الرجال العرب النبيلة التي تخفق بأجمل عواطف الحب ٠ ويرغب كل أمرىء منهم في أن ينشىء أسرة ويرعى زوجته وأولاده ويحميهم جميعاً ويذلـلهم مرافق الحياة ، كما أن المرأة العربية

اشتهرت منذ القديم بالخَفَر والصبر والعفاف والتضحية وتعهدها لبيتها وزوجها وأولادها ٠

فالحال الطبيعية والاجتماعية السليمة عندنا أن يكون كل انسان ذكراً أو أنثى متزوجاً ٠ ولما كان العرب حراصاً على صحة الأنساب وسعادة الأسرة منعوا أن يتسرب اليها الفساد ونظروا اليه على أنه كارثة ومأساة لا سخرية ولا هزواً كما عند بعض الشعوب ٠

أما العُزْبة فيُنظر اليها في البلاد العربية بوجه العموم على أنها أمر غير طبيعي ، وليس بالسويّ ولا المستَحَب ٠

ولهذا كان معدل العزّاب بين الرجال والنساء في البلاد العربية لدى مختلف فئات الأعمار أقل منه في البلاد الغربية ٠

فالزواج اذن هو الحال الغالبة بين الناس ٠

ثم ان الزواج مبكر في البلاد العربية ولا سيما بين البنات ٠ ولو اعتمدنا على الأرقام التي يعطيها الاحصاء للزم أن يُنظر اليها على أنها تقريبية في البلاد العربية لأنه يجوز اجراء عقد الزواج الشرعي قبل تسجيله أو دون تسجيله ولا سيما في الأرياف ، وان كان التسجيل صائراً بالتدريج الى الضبط والدقة ٠ والناس في البلاد العربية يحبون أن يكون لهم ذرية فهي عندهم استمرار لذواتهم ، وهي عندهم ينبوع سعادة ، وهي عندهم مجال للتفاخر والتكاثر ٠ وقد دعم الدين هذا الميل المتأصل في النفوس ، كما جاء في الحديث الشريف ٠

ويذكر أبو حامد الغزالي في جملة « الخصال المطيبة للعيش التي لا بد من مراعاتها في المرأة ليدوم العقد وتتوفر مقاصده » على حد تعبيره « أن تكون المرأة ولوداً فان عرفت بالعقر فليمتنع عن تزوجها ، قال عليه السلام : عليكم بالولود الودود ٠ فان لم يكن لها زوج ولم يعرف حالها فيراعي صحتها وشبابها فانها تكون ولوداً في الغالب مع هذين الوصفين » ٠

وعندنا أن اباحة تعدد الزوجات في بعض الأحوال الاستثنائية تدخل في العناصر الايجابية لتنظيم العلاقات الجنسية ولتكثير النسل ٠ ونتفهم هذا بسهولة اذا

انتبهنا في التاريخ لارباء عدد النساء على الرجال في صدر الاسلام بسبب شهداء المجاهدين الذين فتحوا جوانب الأرض ، وكذلك ورث المسلمون الأوائل ما خلفته جاهليتهم من آثار التقاتل والتفاني بين القبائل اذ كانت الحروب والغارات سجالاً بينهم • ولا شك أن آثارها كانت مشؤومة على الذكور ، ولا يمكن أن يعدلها وأد البنات الذي كان محدوداً ،والذي انما عرف عند قليل من القبائل وحسب ، فحرمه الاسلام •

واتجاه الدين في روحه فالى الاكتفاء بزوجة واحدة • ذلك أدعى للسعادة ولحسن تربية الأولاد • على أن التطور الاجتماعي وضع صعاباً اقتصادية ازاء تعدد الزوجات•فأصبح هذا التعدد قليلاً أو نادراً جداً الا في البيئات الريفية ولدى الأغنياء من الريفيين • ويقصد الزواج المتعدد أحياناً الى تيسير بعض الأمور الاقتصادية لأن الزوجة في الريف تقوم بكثير من الأعباء الاقتصادية كالعناية بالماشية واعداد الحليب والزبدة والجبن وغيرها • بيد أن ذلك صائر الى الزوال والاحتجاب •

ومع تلك الاعتبارات الدينية والنفسية السالفة نعتقد أن الأحوال الاجتماعية العامة ونمط الاقتصاد الزراعي هي المحددة نهائياً بوجه عام لارتفاع معدل المواليد في البلاد العربية •

ان معدل المواليد(٦) هذا يحسب بقسمة عدد المواليد في سنة تقويمية(٧) على متوسط عدد السكان في خلال السنة نفسها وهو ما يكافىء عدد السكان في ١ تموز (يوليو) على أن يضرب خارج القسمة بألف :

$$\text{معدل المواليد} = \frac{\text{مو} \times ١٠٠٠}{\text{ع}}$$

مو عدد المواليد ، عدد السكان في منتصف السنة •

واذا شملت الولادات المواليد الأحياء والمواليد الأموات وصف المعدل بالجمعي •

ولكن لا يدخل فيها على الغالب الا المواليد الأحياء فيوصف المعدل بالناجع أو الواقعي • واذا أُغْفِل وصف معدل المواليد فالمراد هذا المعدل الأخير الذي لايحوي الا المواليد الاحياء • وهو المعدل المتداول الشائع الاستعمال •

على أنه من المناسب عند حساب عددالمواليد في السنة أن ننتبه لعدد المواليد الحاصلة فعلا في السنة وعدد المواليد المسجلة لأن مهلة التسجيل قد تكون في بعض البلدان طويلة تتجاوز الشهر، ، وهذا ما يجعل العدد الأول يختلف عن العدد الثاني أحياناً ٠

كذلك من المناسب الانتباه لتعريف المولود الحي لأن المجتمعات تختلف في هذا الاعتبار ٠

فبعض البلدان يعطي مهلة ثلاثة أيام أوأكثر لتسجيل المولود ، فاذا هلك المولود خلال هذه المهلة سجل في عداد المواليد الأموات لا في عداد المواليد الأحياء ٠

وثمة اختلاف في تعريف الوليد الحي عند ولادته هل يعتبر التنفس أو الاستهلال أو أي أمارة حياة أخرى دليلا على حياته فيُعد وليداً حياً ولو هلك بعد ذلك بوقت قصير أو هل تعتبر مدة الحمل (ستة أشهر في ايطالية) أو مقدار الوزن (٤٠٠ غرام كما في تشيكوسلوفاكية) شرطاً لاعتباره قابلاً للحياة لأن الأجنة الذين يولدون قبل تلك المدة أو الذين أوزانهم أقل من ذلك قلما يعيشون ولو ولدوا أحياءً ٠ هذه اعتبارات تتفاوت بتفاوت التشريع ٠

هذا وقد اقترحت منظمة الصحة العالمية في آذار (مارس) سنة ١٩٥٠ تعريف « ولادة الوليد الحي » بأنها « طرح جسم الأم نتاج الحمل بصرف النظر عن مدة الحمل أو اخراجه منه على أن يتنفس هذا النتاج بعد الانفصال أو تظهر عليه أمارة من أمارات الحياة كخفقان القلب أو نبض الحبل السُرّي أو اختلاج عضلة قد تخضع لفعل الارادة سواء قطع الحبل السري أم لم يقطع وفُصلت المشيمة أو لم تفصل » ٠

ولا شك في أن توحيد هذه الاعتبارات لدى مختلف المجتمعات ييسر الموازنة الصحيحة بين معدلات المواليد ٠

هذا وقد اهتم الفقهاء المسلمون منذ القديم بتعريف المولود الحي وبتفريقه عن المولود الميت وآراؤهم في هذا الموضوع تطابق تماماً توصية منظمة الصحة العالمية ٠ جاء في « تكملة البحر الرائق شرح كنز الدقائق » : «وطريقة معرفة انفصاله حياً أن يستهل أو يُسمع منه عطاس أو تنفس أو يتحرك بعض أعضائه أو ما شاكل ذلك » (٨) ٠

ويجري على هذا النهج من البلاد العربية جمهورية مصر العربية • فهي تعتبر أي أمارة من أمارات الحياة كافية لاعتباره حياً ، فاذا مات قبل تسجيله سجل بين المواليد الأحياء ثم بين الوفيات ولم يسجل بين المواليد الأموات • وتجري سورية على تسجيله بين الوفيات لا بين المواليد الاحياء •

واذا تأملنا معدلات المواليد في مختلف البلدان جاز أن نصنفها تصنيفاً عاماً في ثلاثة أقسام :

١ ــ بلاد مولوديتها ضعيفة ، (وهي ماقل عدد المواليد فيها عن ٢٠ لكل ألف شخص من السكان) •

٢ ــ بلاد مولوديتها متوسطة (من ٢٠ الى ٣٠ بالألف) •

٣ ــ بلاد مولوديتها مرتفعة (أكثر من ٣٠ بالألف) •

وفي الغالب تكون البلاد ذات الحضارة الصناعية الرأسمالية ذات معدل مواليد منخفض ، على حين أن البلاد الزراعية والبلاد الناشئة النامية ذات معدل مرتفع •

والبلاد العربية مرتفعة المولودية ،ومعدل المواليد فيها على الغالب يناهز الأربعين بالألف • وسنورد عما قليل بعض الأمثلة •

ويفيد معدل المواليد في بيان زيادة الشعب في السنة بوجه عام ،ولكنه غير دقيق الدلالة • ذلك أن المواليد تنسب الى مجموع السكان في منتصف السنة ، وفيهم الأطفال والأولاد الصغار والمسنون والنساء اللواتي تجاوزن سن الخمسين • وكذلك لا يكفي الاعتماد على هذا المعدل وحده في المقابلة بين الشعوب لأن فئات الأعمار عندها ليست متشابهة ، فبعضها كما ذكرنا في بحث الأعمار فتي" وبعضها هَرِم أو مُسِن •

واذا أريد التدقيق في الولادات لزم حساب معدل الخصب(٩) وهو عبارة عن عدد المواليد في غضون السنة التقويمية منسوباً الى عدد الاناث من سن العاشرة أو سن الخامسة عشرة الى نهاية التاسعة والأربعين •

فاذا كان عدد المواليد يشمل المواليد الأحياء والأموات حصلنا على الخصب الجمعي ، واذا شمل الأحياء وحدهم كان الخصب الواقعي • واذا أغفل الوصف كان الخصب الأخير هو المقصود •

وباعتبار معدل الخصب يمكن تقسيم البلاد ثلاث زمر :

١ ـ بلاد معدل الخصب فيها ضعيف (أقل من ٨٠ بالألف) ٠

٢ ـ بلاد معدل الخصب فيها متوسطة (بين ٨٠ ـ ١٠٠ بالألف) ٠

٣ ـ بلاد معدل الخصب فيها مرتفع (أعلى من ١٠٠ بالألف) ٠

والبلاد العربية من الزمرة الأخيرة ٠

ان معدل الخصب أقوى دلالة على مدى الانسال في المجتمع من معدل المواليد ، لأنه بالتعريف ينسب المواليد الى الاناث في سن الانسال لا الى مجموع عدد السكان ٠

ان التبكير في تزويج البنات من أهم العوامل التي ترفع معدل الخصب في فئات الأعمار الفتية بين الزوجات ٠ ولو رجعنا الى جدول نسب المتزوجات لرأينا أن نسب الزوجات اللواتي أعمارهن بين ١٥ ـ١٩ وبين ٢٠ ـ ٢٤ في البلاد العربية تعادل نسب عدد الزوجات اللواتي أعمارهن بين ٢٠ ـ ٢٤ ، ٢٥ ـ ٣٤ في فرنسة والسويد مثلاً ٠ فالتبكير في زواج البنات اذن حاصل في البلاد العربية بمقدار خمس سنوات بالنسبة للبلدين الأوربيين الآنفين ٠ وهذا التبكير أهم نتائجه زيادة الأولاد واتساع الذرية ٠

هذا وترغب الأسرة العربية في الأولاد فهم عدة الأهل وعتادهم وعمادهم وأملهم الكبير ٠ والنفقات القليلة التي تصرف على تربيتهم تعود بالخير الوفير على أهليهم وعلى بلادهم ، وانه لا شيء أغلى ولاأعلى من الانسان ولا سيما اذا نظرنا الى القيم الرفيعة المختلفة التي يستطيع تحقيقها وانشاءها وابداعها ٠

والذي يجعل الأهلين يرغبون في الذرية أحياناً ارتفاع نسب الوفيات بعض الشيء بينها ٠ فاذا فقد الأبوان ولداً لهمارَجَوا الله أن يثيبهما أجراً في مصيبتهما وأن يعوضهما بدلا منه ٠ هذا ولا ريب في أن معدل المواليد سوف يقل بعد أمد حين تتقدم الأحوال الاجتماعية وتزدهر الموارد الاقتصادية ويرتفع مستوى المعيشة وتنخفض تبعاً لذلك الوفيات ٠

وثمة فريق من الباحثين قد يُغَرِربهم التفكير الاستعماري فيدعون الى ضبط النسل وتقليل المواليد في البلاد العربية ٠

ولقد سلف أن أكثر البلاد العربيــة متخلخل بالناس قليل الكثافة بهـم محتاج الى العمران الذي يتم بزيادة السكان :وأيا كان الأمر فلا شك أن السبيل القويم السعي لتقليل الوفيات بتحسين أحـوال المعيشة عامة وزيادة الموارد الاقتصاديـة والعناية بالأمور الصحية ٠

فاذا تهيأ ذلك وتقدمت البلاد انخفض بطبيعة الأمر معدل المواليـد ، وهكـذا يبين أن الصواب البدء بمكافحة الموت لا بمكافحة الحياة ٠

الـوفيـــات

الولادة والوفاة بالنسبة الى الفرد طرفان لحياته في هذا العالـم ٠ الـولادة بدايتها والوفاة نهايتها ولكنهما للمجتمع وظيفتان دائمتان ٠ فهو يضيع بالموت في كل حين قسماً من عناصره ، ويعتاض بالولادة عناصر جديـدة ٠ ويشبـه في هـذا التجدد الجسم الحي الذي يضيع بعض خلاياه ويتبدل بها خلايا حديثة ٠

واذا كانت الولادات عاملا مهماً في زيادة السكـان فالوفيـات تأتي في طليعـة العوامل التي تنقص عددهم ٠ ويحسب لها في كل مجتمع معدل بأن يحصى عددها في غضون السنة التقويمية ويقسم على عدد السكان في منتصف السنة ويضاعف خارج القسمة بألف ٠

وقد يؤخذ عدد السكان في أول السنة بدلاً من منتصف السنة ٠ فتحصل عندئذ نسبة الوفيات ٠

هذه النسبة الأخيرة تتضمن معنى احتمال الوفاة المتعرض له كـل فرد مـن السكان في بداية السنة ٠ ولكل من النسبة والمعدل موضع استعمال والفرق بينهمـا ضئيل جداً(١٠) ٠

هذا ويمكن في العصر الحاضر تقسيم البلدان ثلاث زمر بحسب ارتفاع معـدل الوفيات السنوي ٠

١ ــ البلدان الكثيرة الوفيات (المعدل أعلى من ١٣ بالألف) ٠
٢ ــ البلدان المتوسطة الوفيات (المعدل بين ١٠ ــ ١٣) ٠
٣ ــ البلدان القليلة الوفيات (المعدل أقل من ١٠) ٠

هذا جدول بالاحصاءات الحيوية في البلاد العربية يوضح المعدلات المهمة

الدولة	السنة	معدل المواليد بالألف	معدل الوفيات بالألف	معدل النمو الطبيعي	نسبة وفيات الرضع	الأجل المتوقع لدى الميلاد	معدل الخصب الكلي(١)
المملكة الأردنية الهاشمية	١٩٨٤	٤١ر٥	٦ر٦	٣٤ر٩	٦٣ر٠	٦٦ر٦	٧ر٢
دولة الامارات العربية المتحدة	١٩٨٦	٤٦ر٣	٦ر٦	٣٩ر٧	٤٨ر٩	٦٦ر٨	٧ر٥
دولة البحرين	١٩٨٤	٣٢ر٤	٩ر٥	٢٣ر٠			٤ر٧
الجمهورية التونسية	١٩٨٦	٣١ر١	٦ر٤	٢٤ر٧	٨٥ر٣	٦٠ر٠	
الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية	١٩٨٥	٣٩ر٥	٨ر٤	٣١ر١	٩٣ر٥	٦٠ر٠	
جمهورية جيبوتي	١٩٧٠	٤٢ر٠	٧ر٦	٣٤ر٤			
المملكة العربية السعودية	١٩٨٦	٣٧ر٣	١٢ر٨	٢٤ر٥	١٠٨ر٦	٥٦ر٠	٧ر٢
جمهورية السودان الديمقراطية	٨٠/١٩٨٥	٤٥ر٩	١٧ر٤	٢٨ر٥	١١٧ر٨	٤٧ر٨	
الجمهورية العربية السورية	١٩٨٦	٤٢ر٤	٨ر٣	٣٤ر١	٥١ر٣	٦٦ر١	٧ر١
جمهورية الصومال الديمقراطية	٨٠/١٩٨٥	٤٧ر٩	٢٣ر٣	٢٤ر٦	١٥٤ر٩	٤٠ر٩	
الجمهورية العراقية	١٩٨٦	٤٥ر١	٨ر٦	٣٦ر٥	٦٣ر٣	٦٢ر٧	٧ر١
سلطنة عُمان	١٩٨٤	٤٧ر٥	١٥ر٣	٣٢ر٢	١١٦ر٤	٥٠ر٧	٧ر١
فلسطين	١٩٨٢	٤٤ر٥	١٣ر٢	٣١ر٣			
دولة قطر	١٩٨٦	٣٣ر١	٤ر٨	٢٨ر٣	٥١ر٥	٦٦ر١	٤ر٩
دولة الكويت	١٩٨٤	٣٤ر٧	٢ر٨	٣١ر٩	١٨ر٥	٦٩ر٠	٦ر٦
الجمهورية اللبنانية	١٩٨٤	٣٠ر٤	٧ر٧	٢٢ر٧	٤٩ر٢	٦٦ر٨	٣ر٨
الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية	٨٠/١٩٨٥	٤٥ر٦	١٠ر٩	٣٤ر٧	٩٦ر٥	٥٨ر٣	
جمهورية مصر العربية	١٩٨٦	٣٩ر٣	٨ر٧	٣٠ر٦	٧١ر٢	٦٠ر٥	٥ر٣
المملكة المغربية	٨٠/١٩٨٥	٣٦ر٤	١١ر٣	٢٥ر١	٩٦ر٥	٥٨ر٣	
الجمهورية الاسلامية الموريتانية	٨٠/١٩٨٥	٥٠ر١	٢٠ر٩	٢٩ر٢	١٣٧ر٣	٤٣ر٥	
الجمهورية العربية اليمنية	١٩٨٦	٤٩ر١	٢٠ر٨	٢٨ر٣	١٤٠ر٢	٤٧ر٣	٧ر٥
جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية	١٩٨٦	٤٩ر٧	١٧ر٨	٣١ر٩	١٣٣ر٣	٤٩	٧ر٥

نقلا عن المجموعة الاحصائية العربية الموحدة
العدد الثاني نيسان/ابريل ١٩٨٩
جامعة الدول العربية
الأمانة العامة

الأمم المتحدة
اللجنة الاقتصادية والاجتماعية لغربي آسيا

١ ـ معدل الخصب الكلي محسوب هنا للمرأة الواحدة وهو غير معدل الخصب العام الذي سلف شرحه وسياتي شرح الخصب الكلي .

وارتفاع معدل الوفيات يشير الى عدم تقدم الأمور الصحية والاقتصادية في البلاد تقدماً كافياً وقد انخفضت معدلات الوفيات في البلاد العربية انخفاضاً ملحوظاً نظراً لتقدم الأحوال الصحية فيها ·

ولكن معدل الوفيات هذا غير دقيق الدلالة · فهو يشير الى عدد الأموات عامة ويُغفل عاملاً مهماً في الوفيات وهو اختلاف الأعمار ، ولذلك لا يشف تماماً عن الأحوال الصحية في البلاد · ومن المعلوم أن معدل الوفيات في السجن مثلاً أقل منه في المستشفى أو في ملجأ العجزة مع أن أحوال المستشفى أو الملجأ أجود وأكرم من أحوال السجن · وقد يكون الشعبان متقاربين في العادات والنظم الاجتماعية وفي أحوال الاقليم، ومع ذلك يختلف معدل الوفيات عندهما لاختلاف توزع الأعمار·

ولذلك تحسب معدلات الوفيات في فئات الأعمار اذا اعتبر عدد الفئة في منتصف السنة أو نسب الوفيات اذا اعتبر عدد الفئة في أول السنة بحسب مقتضيات الحساب ويوازن بينها عند اللزوم فهي أصح شفوفاً عن الأحوال الصحية في المجتمعات ·

ويمكن حساب نسب الوفيات لكل سنة من سني العمر وعدد الوفيات فيها أيضاً ورسم الخط البياني الدال على اختلاف نسب الوفيات مع الأعمار وكذلك الخط البياني الدال على اختلاف عدد الوفيات في الأعمار ·

أما شكل المنحني الأول فهو قريب من حرف اللام العربي ، وأما شكل المنحني الآخر فهو بعد هبوطه يرتفع بأناة حتى يبلغ نهايته العظمى في سن ندعوها بالعمر النظامي أو الطبيعي أو المعتاد ، تكون الوفيات فيه أكثر منها في الأعمار التي بعده والتي قبله بصرف النظر عن وفيات الرضع ·

وفيات الرضع

هي بالاصطلاح الوفيات التي تقع بين المواليد الأحياء قبل أن يتموا عامهم الأول · فالرضيع هنا بالاصطلاح من لم يبلغ تمام العام الأول مع أن مدة الرضاعة عامان ·

ولحساب نسب وفيات الرضع طرق تتفاوت دقة وضبطاً أبسطها وأهمها ما يأتي :

١ ـ يحسب عدد وفيات الرضع فيالسنة التقويمية وينسب الى عدد الرضع الذين أعمارهم أقل من سنة أو الى عددالمواليد الأحياء في تلك السنة ٠

$$\text{نـا} = \frac{\text{و}}{\text{ض}} \quad \text{أو} \quad \text{نـا} = \frac{\text{و}}{\text{مو}}$$

ولكن هذه الطريقة تنقد بأن الوفيات الحاصـلة بـين الرضـع الذين تقـع أعمارهـم دون السنة الأولى قـد تصيب الرضع المولودين في السنة الفائتة ٠

٢ ـ لذلك قد تنسب وفيات الرضعفي السنة التقويمية الى متوسط المواليد في هذه السنة وفي السنة التي قبلها ٠

$$\text{نـا} = \frac{\text{٢ و}}{\text{مو} + \text{مو}'}$$

٣ ـ لكن الوفيـات التي تصيب مواليد السنة المحسوبة فيها النسبة أكثر من الوفيات التي تصيب مواليد السنة الفائتة ٠

لذلك يعدل الدستور السابـق على الشكل التالي :

$$\text{نـا} = \frac{\text{و}}{\text{٧٢ر٠ مو} + \text{٢٨ر٠ مو}'}$$

باعتبار موَ مواليد السنة الفائتة ٠

٤ ـ يسب الى عـدد المواليـد فيالسنة التقويمية مو عدد من يتوفى منهـم في السنة نفسها وليكن و ثم في في الســنةالتالية وليكن وَ ٠

$$\text{أي نـا} = \frac{\text{و} + \text{و}'}{\text{مـو}}$$

وكما يأتي الاختلاف من طريقة الحساب كذلك يأتي من تفاوت نظم التشريـع المتعلق بتسجيل المواليد ومن تفاوت الاعتبـارات حـول تعـريف المـولود الحي والمولـود الميت ٠ وقـد تقدم شرح هـذاالتفاوت عند بحث الولادات ٠

ولكن هذا التفاوت يُدخِل في الحساب فروقـاً ضئيلة لا تمنـع من المقايسـة والموازنة بوجه عـام ٠

ومن المعلوم أن وفيات الرضع في البلاد العربية مرتفعة • ولا بد من تعهد هذا الجانب الغض من بنياننا القومي • ومن الضروري اقامة تشريع يكفل العناية بالأمهات الحوامل ويسهل العيادات الطبية لهن ويجعل كل ولادة لا تقع الا في مستشفى أو باشراف طبيب أو قابلة مختصة • هذا ، ولا شك أن وفيات الرضع ضرب من التضييع في رأس المال الانساني ان جاز هذا التعبير • وفيه ارهاق لصحة الأمهات لا طائل فيه ولا نفع ، عدا الأحزان التي تساور نفوس الأهل عند وفاة وليدهم وعدا النفقات التي تصرف فتضيع سدى وتذهب عبثاً •

واذا كان الانسان مسؤولا عن عمره الى حد فان الرضيع أو الطفل يبدو وكأنه وضع زمام حياته بين يدي المجتمع الذي وفد اليه • فالمجتمع مسؤول عنه ، وعلى المجتمع تقع تبعة هلاكه في الغالب حين يموت • ذلك أن المجتمع بتنظيم الأمور الصحية فيه وحماية الأمهات الحوامل والأطفال يستطيع أن ينقص نقصاً كبيراً الوفيات التي تقع بين الرضع والأطفال • حتى ان مدى نقصان وفيات الرضع يستطيع أن يشف عن مقدار تقدم المجتمع •

ان وفيات الرضع مرتفعة نسبياً في الحال الطبيعية لدى مختلف المجتمعات ، وكأن كل انتاج أياً كان نوعه مادياً أوحيوياً لا بد من أن يلازمه نصيب من التلف • بيد أن تقدم الحضارة يؤدي الى نقصان هذا التلف الى أصغر حد ممكن • واذا كان الأمر كذلك فلا عجب اذا وجدنا أن لكل مجتمع نسبة لوفيات الرضع مرتبطة بدرجة تطوره وصالحة لكي تكون دليلاً على هذا التطور • فهي بهذا الاعتبار معيار عددي يُستند اليه أحياناً في الدراسات الاجتماعية لبيان مدى تقدم المجتمع عامة ، لا من الوجهة الصحية وحدها ، لأن الأمور الصحية والاجتماعية والاقتصادية وأمثالها متشابكة متضامنة متساندة • وقد ظهر من الدراسات الاجتماعية الحديثة أن هذا الجانب الغض من الأسرة يتلقى الى مدى كبير آثار التنظيمات الاقتصادية والاجتماعية العامة • فوفيات الرضع قسم كبير منها تكون أسبابه اجتماعية وليست قائمة في بنية الرضيع أو الطفل •

على أن بعض الأسباب قد تكون فيزيولوجية • من هذه اختلاف الأبوين في الزمرة الدموية •

الزمرة الدموية Rh أو العامل بندر

من المعروف أن الدماء تصنف في أربع زمر أساسية وهي O , AB , B , A وأنها على ذلك تصنف في زمر أخرى مثل M , N , P , H , G . ثم كشف العالمان الأمريكيان وينر Wiener وبترز Peters سنة ١٩٤٠ في دم القرد المسمى بندرأ Macacus Rhesus ، ثم في الانسان ، هذه الزمرة التي دعيت بأول اسم القرد • وهي منتشرة بين الناس بنسبة ٨٠ ـ ٨٥ بالمائة واختلاف الزوجين في هذه الزمرة بأن يكون دم الرجل يحوي هذا العامل على حين دم زوجته خلو منه داع الى قلة النسل ، اذ يولد للزوجين الولد البكر بسلام ، ولكن في خلال الحمل يتكون في دم الأم الجسم الضدي أو الداحرة التي تؤثر في دم الجنين الثاني أو الثالث أو غيره اذا ورثوا من أبيهم العامل Rh ويستدعي ذلك اسقاطهم أو اصابتهم بفقر الدم وهلاكهم بعد الولادة اذا لم تغسل دماؤهم وتبدل ، ولذلك ينصح للمقبلين على الزواج أن يحللا دماءهما ويعرفا الزمرة التي ينتسب كلاهما اليها • حتى اذا رغبا في الذرية عرفا مصيرها ان اختلفا في هذه الزمرة الدموية •

على أن كثرة شيوع هذه الزمرة بين الناس كما قدمنا يقلل احتمال تفاوت الزوجين فيها ويضعف من أهميتها في النطاق الاجتماعي العام ، على حين يبقى أثرها من الناحية الفردية •

العوامل المؤثرة في الوفيات

يؤثر في الوفيات عوامل متفاوتة بعضها داخلي وآخر خارجي . أما الداخلي فكالعمر والجنس •

العوامل الداخلية

العمر ـ ان وفيات الرضع تكون عادة مرتفعة فاذا تجاوز الوليد السنة الأولى قلّ تعرضه للوفاة وزاد احتمال تعميره اذ تهبط نسبة الوفيات هبوطاً سريعاً في السنة الثانية والثالثة وهلم جرا ، ما عدا بعض البلدان النامية ولا سيما التي حول البحر

الأبيض المتوسط ومنها البلاد العربية حيث تستمر وفيات الأطفال الصغار مرتفعة في السنة الثانية والثالثة والرابعة ثم تنخفض انخفاضاً شديداً • وقد نقصت وفيات الاطفات بفضل المضادات الحيوية وتقدم العلاج • وما وقع منها يعود اكثره الى طوارىء تحدث عن الطيش وعن اغفال اهليهم لهم • ثم اذا كبروا كدهم الجهد وتداولتهم الاحوال الاجتماعية والاقتصاديه وهموم مكاسبهم ومقتضيات أعمالهم • فاذا بلغوا عتيا من العمر تداعى الجسم وناله النصب والاجهاد • وربما كان تداعي بنية الجسم بالكبر اشد تأثيرا في المسنين من العوامل الخارجية • بل ذلك التداعي يكون سببا لزيادة تأثير العوامل الخارجية فيه •

الجنس ـ ثم ان نسبة الوفيات بين الاناث أقل منها بين الذكور عامة في جميع الأعمار اذا تساوت الأحوال الاجتماعية التي ترعى الذكور والاناث جميعاً على السواء وقد سبقت الاشارة الى ذلك أما اذا كان المجتمع أقل رعاية لأحد الجنسين زادت وفياته على الجنس الآخر • ومن المعروف أن نسبة الوفيات بين الاناث في الهند أعلى منها بين الذكور وذلك لزواج البنات المبكر وتعرضهن للحمل المتكرر وما قد يرافق الولادة من حمى النفاس • كذلك تتدخل بعض العادات التي تحمل الأرامل على احراق أنفسهن بعد وفاة بعولتهن وان كانت هذه العادات صائرة الى النقصان والتلاشي •

العوامل الخارجية

أما العوامل الخارجية فهي متعددة ونحن نريد أن نتعقب أهمها باستثناء الأوبئة والحروب •

الحال المدنية ـ لقد تبين من الاحصاء أن الوفيات بين المتزوجين أقل منها بين العزاب في الأعمار أنفسها • ذلك أن السعادة والرضى في الزواج يهيئان حياة سليمة وصحية • فالزواج أكثر ملاءمة للانسان جسماً وعقلاً من العزوبة • ولما كان الانسان يُقبل على الزواج طوعاً واختياراً فربما يكون الصدوف عنه دلالة على ضعف أو اضطراب أو قلة التكيف في بعض الأحيان•

ثم ان الوفيات بين الأرامل والمطلقين أكثر منها بين المتزوجين بل أكثر منها بين العزاب بوجه العموم • وارتفاع الوفيات هذا قد يُعزى الى سوء انتخاب القرين من الوجهة الصحية في البداية اذ لا بد من تأثر القرين بقرينه صحياً ، أو يُعزى الى مشاق الترمل • أما المطلقون فان قلة التلاؤم في الزواج وقلة الاستقرار بعده أمران منغصان يتهددان عيشهم ويقوضانه •

هذا وان تلك نتائج احصائية تصح في البلاد المتقدمة التي تحمل الدولة فيها القسط الأوفر من أعباء الأسر • وليس في بلادنا احصاء في هذا المجال ، وتتحمل الأسر أنفسها مختلف الأعباء وشتى الهموم في اعالة أبنائها وتنشئتهم كما تتحمل مسؤولية صحتهم ونموهم •

المناخ ــ وقد يكون للمناخ تأثير في الوفاة ولكن يصعب عزل أثره وحده بين العوامل المحيطة الأخرى • فقد تتفاوت البلدان مناخاً وتتشابه في انخفاض معدل الوفيات كاسترالية ونيوزيلندة وجنوبي افريقية وكندا حيث تشتد حمارّة القيظ في بعضها كما تشتد صبارّة البرد في بعضها الآخر • وقد أصبح الانسان يستطيع أن يتغلب على سوء المناخ اذا كان غير صحي لانتشار بعض الأوبئة فيه أو الحشرات أو الطفيليات • ولا شك أن للاقليم أثراً في تفشي بعض الأمراض كالبُرَداء والحمى الصفراء اذ يساعد ارتفاع الحرارة ووجود السباخ على انتشار جراثيمهما • وقلما ينتشر الخناق والحمى القرمزية في المناطق الاستوائية • ثم ان أمراض جهاز التنفس لا تنتشر في طقس مشمس جاف • أما انتشار السل في بعض المناطق الجافة المشمسة فمرده الى سوء التغذية والفقر والاستعمار • هذا وان الزكام والانفلونزا مرضان عامان في مختلف البلدان وان كانا في البلاد الرطبة أكثر انشاراً وأشد فتكاً •

الفصول ــ وللفصول آثار في معدل الوفيات واضحة • وقد وجد نهاية عظمى للوفيات بأوربة في غضون كانون الثاني وشباط ، وبحوض البحر المتوسط في تموز وآب • ولكن تقدم الصحة ولا سيما الصحة الغذائية واستعمال المضادات الحيوية نقصت من استفحال الأمراض التي يتسبب بها اختلاف الفصول كالاسهالات وأمراض التنفس وترتب على ذلك انخفاض في الوفيات الناجمة عنها •

الريف والحضر ــ لقد مكننا الاحصاء الحيوي من المقايسة بين معدلات الوفيات في المدينة وفي الريف • ولقد كان معدلالوفيات لأمد قريب في الريف أقل منه في المدن • بيد أن الأمر قد انقلب في عقود السنين الثلاثة الأخيرة فأصبح في المدن أقل منه في الأرياف لأعمار معينة •

لقد تغيرت حال المدن في العصر الحاضر عنها في غابر الدهر • فقد تقدم العمران واتسعت الشوارع وزادت الخدمات الصحية وتحسنت مرافق الحياة وجُرّت المياه الى البيوت وتيسرت التدفئة والتكييف ، كما انتشرت النظافة وأشرفت الحكومات على تأمين السلع الضرورية من أغذية وملابس ومساكن الا أنه ما يزال في المدن أحياناً مجال للتحسين فيأحوال المصانع ولهاثها الداكن المؤذي ومحروقات مطايا المواصلات النافثة كالسيارات والباصات • وما يزال الدخان والضجيج والازدحام يرهق الحياة في المدن •

ولئن استطاع الطب الحديث والتغذية الجيدة أن ينقصا ضراوة الأمراض الجرثومية في المدن فان اكتظاظ المواصلات زادت في سرعة انتشار الأوبئة بين أهل المدن ان وقعت كما جعلت طوارىء الاصطدام تستفحل استفحالاً خطيراً •

ان الريف في البلاد العربية جميل ولكنه ما يزال متأخراً بالنسبة الى المدينة على الرغم من جودة مُناخه وعذَاوة هوائه وجمال آفاقه •

الازدحام ــ ان المدن الكبيرة من أخص صفاتهاالازدحام بالنسبةالىالأرياف حيث تنبسط الحقول وتشتبك الغابات • ولقد أخذت الهيئات المسؤولة في الدول تبذل جهودها في تنظيم المساكن الجديدة بالمدينة بحيث تتوافر فيها الشرائط الصحية وتحيط بها الحدائق كما تضع الخطط المناسبة لانشاء المدارس والحوانيت والمخازن في أفضل الأحوال المريحة • ومعذلك فان الصحة لا تتعلق بالآجرّ وبالملاط ولا بالخدمة الصحية بل تتعلق أيضاً بعادات الناس وهي تتحكم فيها التربية والذكاء وتتعلق أيضاً بالغذاء وبمستوى المعيشة وترتبط ارتباطاً وثيقاً بمقدار الدخلولو أن هذا الارتباط أخذت تُخَفّف منه قوانين تأميم الطب والضمان الاجتماعي الايجابية • هذا وقد غدت الدول العربيةالنفطية في طليعة البلدان اهتماماً بأحوال شعبها الصحية • على أن ارتباط الأموربالدخل يدعونا الى تأمل علاقة الوفيات بالحرفة وبالأمور الاقتصادية •

الحرفة ــ ان نوع العمل يؤثر في الوفيات • وقد أجريت احصاءات لبيان مدى هـذا التأثير • ولا شك أن بعض الحرف مضر بالصحة كتعدين الزئبق والقصدير والعمل في أعماق المناجم. بيد أن هذا لا يزيد وحده في معدل الوفيات بين هؤلاء العمال، لأن العوامل مشتبكة • فكثيراً ما يُختار الأقوياء لأمثال تلك الأعمـال • ولذلـك لا بد من تَصَفُّح تأثير الحرف من مختلف الوجوه •

تؤثر الحرف أولاً من حيث اصطفاء المحترفـين لأن بعضهـا يقتضي قـوة في الجسم ، ولا يمكن احترافها الا اذا كان الراغب ذا نصيب من القوة لخطورتهـا وتعرض صاحبها لاختلاف الأجواء كالطيارين وسائقـي القاطـرات أو لقسوتهـا ومشقة العمل فيها كعمال المناجـم والحمالين ، على حين لا تقتضي حـرف أخرى جهداً جاهداً ولا نصباً ناصباً ، ولذلك تغدو موئل الضعفاء من الناس ومحط ركابهم كالعمل في الدواوين والادارة ، وقد وجدت نسبة الوفيات بين القائمين بهذه الأعمال عالية نسبياً •

وتؤثر الحرف ثانياً من حيث نوع العمل المطلوب فقد يكون شاقاً مرهقاً ، ومن حيث جو العمل كأعماق المناجم وأجـواء بعض مصانع النسيج التي تتطلب حرارة رطبة وحلج القطن الذي يثير النفاية والغبار فيصلان الى الرئتين وصقل المعادن الذي يطير النثار الدقيق فيعلق بمجاري التنفس وتعديـن الزئبـق ذي الأبخـرة السامة وصناعة الأصبغة التي تنشر بعض الروائح السيئة • وقد تجعل الحرفة نمط الحياة مضطرباً ، ينبغي مثلاً لِنُدُل الفنادق أن يستجيبـوا لرغبـات المسافريـن بعضهم يوقظ بكرة وبعضهم يثوب في الهزيع الأخير من الليل ، والحـراس ينامـون النهار ويسهرون الليل ونوم الليل أروح من نوم النهار أو تدفع الحرفة الى اعتياد لون من المعيشة سيء كعمال المقاهي والملاهي يعتادون المسكرات •

وتؤثر الحرف ثالثاً عن طريق مستوى العيش الذي تُخوّله أصحابها أي عن طريق مقدار الدخل ، ولا شك أن صاحب المصـرف والتاجـر والموظـف والطبيب والمحامي والعامل والأجير الخ لكـل منهم مستوى خاص من العيش في خارج الحرفة سواء في داخل البيت (من جهة المسكن ، والغذاء ، واللباس) أو في الحياة العامة (من جهة العادات الاجتماعية المختلفة والعناية المتفاوتة بالتداوي والقدرة على

التداوي) • على أن هذا التفاوت أصبح يتضاءل بتيسير الدولة سبل التداوي لأبنائها • وهذا ما هو حاصل في البلاد العربية النفطية • والخلاصة أن تقدم الطب والشؤون الصحية من جهة وازدياد الثروة العامة من جهة ثانية هما لا شك متضامنان متداخلان •

الأجـل المتوقـع

في علم السكان مصطلح مهم يتلمس الحياة والموت معاً مشتبكين وهو الأجل المتوقع • ويقال له أيضاً العمر المتوقع اذا نظرنا الى مدى الحياة المتوسط التي يعيشها أفراد جيل من الأجيال • وهو معيار جيد يُعتمد في علم السكان وفي علم الاجتماع وفي البحوث الاقتصادية وفي شركات التأمين على الحياة وفي تعرّف مستوى المعيشة في المجتمع • وأهميته ترجع الى أنه يلخص حياة جيل كامل من حيث مدة هذه الحياة موزعة عليهم نظرياً وحسابياً بالتساوي • الجيل في اللغة أهل الزمان الواحد ولكنه هنا بالاصطلاح جملة الأفراد المولودين في سنة تقويمية واحدة (١ كانون الثاني/يناير ـ ٣١ كانون الأول/ديسمبر) أو في فترة زمنية مسمّاة واحدة • وقد يُطلق على الجيل في علم السكان لفظ الفوج بأن يقال مثلاً فوج المواليد أو جيل المواليد وهم الذين ولدوا في سنة واحدة •

فاذا نظرنا الى جيل من المواليد في سنة من السنين وتعقبنا عدد من يبقى منهم على قيد الحياة سنة بعد سنة وجمعنا الأعمار المختلفة التي عاشوها حتى بلغوا آجالهم تِباعاً وقسمنا مجموع الأعمار على عدد أفراد الجيل في البداية كان خارج القسمة هو الأجل المتوقع ، كأننا تصورنا في الخيال أنهم جميعاً عاشوا وسطياً هذا العمر على التساوي • وحسابه يسير وهو نظري وواقعي معاً : نظري لأنه يعتمد على الغالب عدد أفراد الجيل عشرة آلاف أو مائة ألف ، وواقعي لأنه يُطبّق على هؤلاء مائة الألف أو عشرة الآلاف نسب الوفيات الجارية في المجتمع نفسه في كل عمر من الأعمار المتتالية إبان فترة زمنية محددة حتى ينقرض الجيل كله احصائياً بهذا التطبيق •

وهذا الأجل المتوقع أو العمر المتوقع هو غير العمر المتوسط وغير العمر الوسيط وللتفريق بين هذه المصطلحات نضرب مثلاً بسيطاً :

خمس سيارات خرجت من مصنع واحد في سنين متفرقة وهي ١٩٦٠ ، ١٩٧٠ ، ١٩٧٥ ، ١٩٨٠ ، ١٩٨٥ . فاذا حسبنا أعمار هذه السيارات عام ١٩٩٠ وهي مازالت صالحة للاستعمال كانت على التوالي ٣٠ ، ٢٠ ، ١٥ ، ١٠ ، ٥ فالعمر المتوسط لها عام ١٩٩٠ هو ١٦ سنة .

أما العمر الوسيط فهو ١٥ في الترتيب لأن قبله رقمين وبعده رقمين فهو يقسم المجموعة قسمين متساويين في العددوأما الأجل المتوقع أو العمر المتوقع فلا يحسب لهذه السيارات التي صنعت فيسنين متفرقة أي هي من أجيال مختلفة وانما يحسب لجملة من السيارات صنعتفي سنة من السنين ، ولتكن سنة ١٩٩٠ ، أي هي من جيل واحد . نفرض عددالسيارات خمساً أيضاً اشتغلت جميعاً ثم تعطلت نهائياً على التوالي بعد ١٥ ، ١٧ ، ١٨ ، ٣٥ ، ٤٠ سنة فالأجل المتوقع لها عند خروجها من المصنع مجموع السنوات التي اشتغلت ابانها حتى تعطلها مقسوماً على عددها أي $\frac{١٢٥}{٥}$ = ٢٥ سنة .

ويجوز أن يقال لهذا المصطلح الأجل المتوسط أيضاً لأنه المتوسط الحسابي للآجال : آجال السيارات أو آجال أفرادالجيل الانساني على الرغم من التباين الشاسع بين السلع المصنوعة .. والانسان .

هذا وكلما جادت صناعة السيارات والعناية بها وحسن تعهدها تطاول أمد استعمالها وابتعد أجلها المتوقع وبالتمثيلأيضاً كلما حسنت الحياة الاجتماعية والصحية والاقتصادية وغيرها في المجتمعابتعد الأجل المتوقع أي تطاول العمر المتوقع .

واذا تطاول هذا العمر المتوقع اتسعت للفرد وسطياً فسحة الحياة للعمل والانتاج والاتقان في مختلف المجالات . ومن المعلوم أن الاتقان والانتاج والعمل أساس التقدم الاجتماعي . ولذلك كان لهذا المصطلح دلالة عميقة وفسيحة في علم الاجتماع .

وللأجل المتوقع علاقة بنسبة وفيات الرضع فكلما انخفضت هذه الوفيات طال الأجل . وكان الأجل المتوقع منخفضاً في البلاد النامية قبل كشف المضادات الحيوية

(أي الصادّات) ولكنه ارتفع ارتفاعاً واضحاً بعد تحسن الأحوال الصحية وتقدم الشؤون الطبية والعناية بصحة المواليد والرضع والأطفال .

ويمكن أن يحسب الأجل المتوقع للجيل في كل عمر من الأعمار التي يصل اليها ولكنه على الأغلب يحسب للمواليد جملة كما يحسب للذكور والاناث كل على حدة . ومن الملاحظ أن الخط البياني الذي يدل على اختلاف الأجل المتوقع باختلاف العمر يبدأ منذ زمن الولادة ثم يرتفع أحياناً ليبلغ الذروة بعد مرور السنة الأولى على المولود . ذلك أن الوليد الانساني يحتاج غب الولادة الى الرّأم والتعهد والعون اذ تقاوم وظائفه الحيوية تغير المحيط الخارجي الذي وفد عليه . وأكثر ما يقع من وفيات الرضع والأطفال في العام الأول وبعده من قلة العناية والغفلة .

هذا ولا يخفى أن هذه اعتبارات احصائية تفيد في تعرف أحوال المجتمعات وتبين خصائصها من الوجهة الكمية والعددية كما تفيد في الموازنة بينها .

أما العمر الحقيقي الذي وهبه الله لكل فرد من الأفراد فعلمه عنده جلّ وعلا (ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء - آية الكرسي) . وقد كلّفنا الدين الحنيف العناية بأنفسنا وأهلينا ومجتمعنا .

الدليل الحيوي ومعدل الخصب الكلي ومعدل التكاثر

ان معدل النمو الطبيعي أو الزيادة الطبيعية وهو الفرق بين معدل المواليد ومعدل الوفيات يعطي فكرة بسيطة عن زيادة السكان . ولكنه غير دقيق الدلالة . فمعدل النمو هذا سواء اذا كان معدل المواليد ٤٠ ومعدل الوفيات ٣٠ أو كانا ٣٠ ، ٢٠ أو ٢٠ ، ١٠ ، اذ هو يساوي في الأحوال الثلاث ١٠ مع أن الفرق كبير بين هذه الأحوال لأن الزيادة نفسها حاصلة في الحال الأخيرة مع استهلاك أقل في الأرواح وصرف أقل في الولادات . ولهذا يفضل في بعض الأحيان حساب الدليل الحيوي على معدل النمو الطبيعي وهو $ح = \frac{مو}{و} \times ١٠٠$

حيث ح الدليل الحيوي ، مو عدد المواليد، وعدد الوفيات في نفس المدة الزمنية.

ويمكن بسهولة التعويض عن عدد المواليد و عدد الوفيات بمعدليهما ٠

فالدليل الحيوي يشير الى عدد المواليد الأحياء الحاصلة مقابل مائة وفاة في السكان ٠ وهو دليل بسيط ومهم اذ يشير الى القوة الحيوية للشعب ٠ فاذا حسبناه في الأحوال السابقة الثلاث كان على التوالي ١٣٣ ، ١٥٠ ، ٢٠٠ ، وظهر الفرق واضحاً ٠

ثم ان معدل النمو الطبيعي أيضاً لا يشف عن حقيقة ازدياد الشعب أو ثبوته أو نقصانه ٠

فقد يكون معدل المواليد أكبر من معدل الوفيات ويكون الشعب مع ذلك متناقصاً. لايضاح ذلك نتصور مجتمعاً فيه خمسة ملايين امرأة (آنسة وسيدة) بين سن الخامسة عشرة وسن الثلاثين ٠ وفيه في السنة نفسها أربعة ملايين و ٧٠٠ ألف بنت دون الخامسة عشرة ٠ فلو فرضنا أن هؤلاء البنات دون الخامسة عشرة بلغن جميعاً سن الزواج ولم تهلك واحدة منهن كان من المحتم نقصان عدد المواليد في المستقبل بعد مضي خمس عشرة سنة لأن عددهن أقل من خمسة ملايين ٠ وبهذا يتناقص المجتمع على الرغم من ارباء معدل المواليد على معدل الوفيات في هذا المجتمع ٠

وبسبب قلة الكفاية في معدل النمو الطبيعي يعمد العلماء الى حقيقة التوالد الانثوي أي عدد ما تلده الأمهات من بنات يحللن محلهن حين يكبرن فيغدون أمهات أيضاً ٠ فاذا كانت الأم تلد وسطياً بنتاً تحل محلها باعتبار الظروف الجارية في المجتمع من زواج ووفيات اعتبر المجتمع ثابتاً في العدد لا يزيد ولا ينقص واذا كانت الأم تلد أكثر من بنت واحدة كان المجتمع متزايداً واذا كانت الأم تلد أقل من بنت وسطياً كان المجتمع متناقصاً وذلك بصرف النظر عن معدلي المواليد والوفيات.

ولحساب ذلك يلجأ الى تعرف معدلات الخصب العُمْرية أي عدد المواليد ذكوراً واناثاً لفئات أعمار الأمهات كما في الجدول الآتي لدولة الأمارات العربية المتحدة عام ١٩٨٦ بين المواطنات ٠

فئات الأعمار	معدل الخصب في الألف
١٥ ــ ١٩	١٥٨ر٨
٢٠ ــ ٢٤	٣٦١ر٢
٢٥ ــ ٢٩	٣٨٢ر٨
٣٠ ــ ٣٤	٣٠٢ر٢
٣٥ ــ ٣٩	١٩١ر٠
٤٠ ــ ٤٥	٨١ر٤
٤٥ ــ ٤٩	٢٩ر٤
	١٥٠٦ر٨

ويلاحظ أن معدل الخصب العمري يبلغ أوجه بين نساء دولة الامارات في الفئة العمرية (٢٥ ــ ٢٩) ، ولما كان مدى فئة العمر خمس سنوات لزم ضرب المجموع بالعدد (٥) فالحاصل ٧٥٣٤ ،ومعناه أن كل ألف والدة بين سن الخامسة عشرة ونهاية التاسعة والأربعين يولد لهن٧٥٣٤ مولوداً ذكراً وأنثى ٠ فالوالدة الواحدة يولد لها وسطياً ٥ر٧ من الذرية ٠ وهذا الرقم الأخير يُدعى معدل الخصب الكلي ٠ وبتعبير بسيط كل عشر أمهات يولد لهن وسطياً ٧٥ مولوداً ذكراً وأنثى ٠ ولما كانت نسبة الذكورة في مجتمع الامارات بين المواليد هو ١٠٥ صبيان الى ١٠٠ بنت نضرب معدل الخصب الكلي وهو ٥ر٧ بنسبة الاناث في مجموع المواليد وهو $\frac{١٠٠}{٢٠٥}$ فيكون الجداء ٣ر٦٦ وهو معدل التكاثر ، ويوصف فيقال له معدل التكاثر الصافي اذا دخل في حسابه نسبة تعمير الأمهات ٠ ومعناه هنا في الامارات المتحدة أن الأم في حياتها الزوجية ومرحلة قدرتها على الانسال يولد لها أكثر من ثلاث بنات يتبوأن مكانها في الأمومة حين يَكْبَرْن ويغدون أمهات ٠ فمجتمع الامارات بهذا الاعتبار مجتمع متزايد تزايداً واضحاً ٠

الهجـــرة

هي انتقال المرء من أرض تدعى المكان الأصلي أو مكان المغادرة الى أخرى تدعى المكان المقصود أو مكـان الوصول بشرط أن يتجاوز الانتقـال على الأقل حدود منطقة ادارية • ولا تنطبق الهجرة بهذا الاعتبار في الغالب على من ليس لـه مُقام (أي محل اقامة) ثابت • فلا يدخل فيها البدو ولا أشباه البدو في أكثر الأقطار. ويفرق أحياناً بين الهجرة والنقلة الوقتية أو الرحلة الوقتية باعتماد معيارين وهما طول الغيبة عن المكان الأصلي ومدة الاقامة بالمكان المقصود •

ويدعى المهاجـر من موطنه الأصلي ظاعناً ونازحاً كمـا يدعى المهاجـر الى موطنه الجديد وافداً ومغترباً • ويوصف بهذا الوصف من أجمع أمره على مغادرة وطنه إما أبداً وإما الى أمد غير محـدود يتجاوز على الأقل السنة •

ويجري التفريق في الدولة ذات السيادة بين الهجرة الداخلية حين يكون المكـان الأصلي والمكان المقصود واقعين في داخل الدولة ، والهجـرة الخارجية أو الهجـرة الدولية التي تجتاز حدود الدولة •

تؤثر حركة الهجرة في عدد السكان • مثـلها في ذلك مثل حركة السكان الطبيعية أو نموهم الطبيعي • وتقاس بصافي الهجرة في المنطقـة أو الدولة وهو الفـرق بين الداخلين الوافدين اليهـا والخارجين الظاعنين عنهـا • فـاذا زاد الداخلـون على الخارجين دعيت الزيـادة فيض الهجـرة واذا نقصوا عنهـم دعي النقص غيض الهجرة • ويمثل مجموع الداخلين والخارجين حجم الهجرة •

وثمة هجـرة اختيارية تتم برغبـة الفـرد واختياره فـاذا حملت الأشخاص منفردين كالعمال مثلا دعيت بالهجرة الفردية • وقـد تحمـل أسراً برمتهـا فتلك هجرات الأسر • وبعضها هجرات تبعية أي تابعة لهجرة رب الأسرة ولا سيما هجـرة زوجه وأطفاله • أما تنقـل العمال الذي تبتعثه ظـروف العمـل والذي يتعلـق بالسكان العاملين فهو يؤلف هجرة العمل • وقـد ينتقل أحـد القرينين الى موطـن القرين الآخر رغبة في الزواج فتلك هجرة زواج • واذا حصـل الانتقـال عن ترك العمل بسبب التقاعد دعي هجرة تقاعد .

وثمة أيضاً الهجرة الجماعية وهي هجرة منظمة بعض التنظيم يشارك في ركوب متنها زمرة من الأفراد والأسر . وقد تكون هذه الهجرة ضخمة تحدث على الرغم من ارادة سكان الأرض المهاجَر اليها فهي نوع من الغزو وقد يكون هذا الغزو طويل الأمد تقوم به عناصر قليلة العدد فيدعى تسللا .

أما سياسة الهجرة فهي جانب من جوانب السياسة السكانية . وتسن الدول عادة قوانين الهجرة الوافدة اليها فتحدّ بهاتيار هذه الهجرة وتنظمه وربما لا تسمح للأجانب بالهجرة الا لمن تصطفيهم لحاجاتها ومآربها فتلك هجرة وافدة اصطفائية.

بحث الهجرة واسع يتعلق بالتاريخ اذ وجدت الهجرة منذ وجد الانسان . وحركات الهجرة التاريخية تملأ صفحات كثيرة من كتب التاريخ . بل نحن العرب المسلمين نؤرخ بالنسبة الى هجرة مُشرقة في تاريخنا . ويتعلق بحث الهجرة بالاقتصاد لأن بين الاقتصاد والهجرة علاقات مشتبكة ، ويتعلق بالسياسة فقد تكون دواعيها وآثارها سياسية ، ويتعلق بعلمي النفس والاجتماع لأن لها أسباباً ونتائج نفسية واجتماعية ، وتتعلق بعلوم أخرى يطول استقصاؤها . وهنالك هجرة للجماد كرؤوس الأموال وللنبات وللحيوان ولا سيما الطير . ولكن هجرة الانسان أهم أنواع التحركات .

ويفرق في الهجرة بين العوامل النابذة التي تدفع الناس الى ترك أوطانهم الأصلية والعوامل الجابذة التي تغريهم بالقدوم الى أوطان أخرى . قد يهاجر المهاجرون لأحوالهم الرديئة في بلادهم وقد تجذبهم في الوقت نفسه مغريات في البلاد الأخرى فالنبذ والجذب يتحكمان في تيار الهجرة . ويهمنا في هذه الدراسة تيارات الهجرة في البلاد العربية ، نلم بها الماماً يسيراً ومفيداً .

يختلف النظر الى الهجرة في البلاد العربية باختلاف موقف الباحث فاذا نظرنا اليها على أنها وطن واحد كانت الهجرة من بعضها الى بعض هجرة داخلية . واذا نظرنا في الدول القائمة فيها اعتبرناها هجرة خارجية ودولية . أما الموقف الأول فيسوغه أن الشعب فيها يكاد يكون واحداً . وقد اختلط بعضه ببعض في غمار التاريخ مكوناً بلغته وثقافته وحضارته وعاداته وماضيه وأمجاده وآلامه وآماله كتلة من البشر متجانسة متماسكة من أرسخ شعوب الدنيا كياناً وأعمقها وجوداً في الأرض وفي السماء .

وأما الموقف الثاني وهو الواقعي فيسوّغه أن لكل جزء منها حكومة ذات سيادة على أرضها وعضويةفي منظمة الأمم ونظاماً اقتصادياً وسياسياً يختلف عن نظام البلد الآخر • ومع ذلك فالهجرة البشرية على الرغم من تلك الحواجز مستمرة بين تلك الدويلات (التصغير هناللتحبب) ، لأن اقامة الحواجز لا تستطيع أن تحول دون مجرى الظواهر الطبيعية وأن تمس الجذور القوية الممتدة في باطن تلك البلاد • وكل شيء في تطور الانسانية يحفز على الظن أن تلك الربوع سوف يزيد تقاربها وتضامنها وتعاونها في شتى الميادين • واذا كانت أوربة على اختلاف قومياتها ولغاتها وعاداتها وماضيها تتقارب وتحاول تأليف كتلة ذات كيان متضامن ومتعاون فان البلاد العربية لكي تضمن تقدمها ولحاقها بالموكب الانساني الحضاري لا بد من أن تزيد تقاربها وتآلفها وتعاونها في مجالات شتى وان بقيت السيادة الكاملة منها مصونة ومحصنة •لقد تعرضت البلاد العربية لضروب من الهجرة الخارجية منها واليها ومن المناسب أن نلم ببعض تياراتها القوية •

فلقد حملت الهجرة ألوفاً من أهالي بلاد الشام من سوريين ولبنانيين وأردنيين مع تيار الهجرة في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين الى الأمريكتين الشمالية والجنوبية وتألقت نجوم كثير من المهاجرين في ميادين الثقافة والأدب والعلم والسياسة والاقتصاد • وأدب المهجر الحديث يذكرنا بأدب الأندلس القديم • ولكن تلك الجاليات العربية شرعت تنصهر في المجتمعات الأجنبية شيئاً فشيئاً وتنسى ذرياتها لغتها الأصلية بالتدريج •

وقد توطن هؤلاء المهاجرون الأماكن التي هاجروا اليها ما عدا فريقاً آثر الاياب الى الأوطان منهم من أخفق في هجرته ولم تفتح أمامه أبواب العمل والرزق فانكفأ الى أهله ومنهم من جمع ثروة ضخمة تكفيه وتكفي أسرته فرجع حامداً نجعته •

ويبدو من ذلك أن لهذه الهجرة بعض المزايا وهي جلب الثروات المجمعة في البلاد الأجنبية • ويضاف أن المهاجرين لا ينسون أهليهم فهم يمدونهم بالمال في الحين بعد الحين • وتلوح هذه الهجرة السكانية مستتبعة لهجرة مالية أضعف منها تجري بعكس اتجاهها ، هذا زيادة على الدعاية الجيدة التي يقوم بها المهاجرون لبلادهم الأصلية •

بيد أن مساوىء الهجرة أكثر من مزاياها اذ انها تلحق بالبلاد نقصاً في القوى الديمغرافية والاقتصادية وغيرها • فالمهاجرون كما سلف شباب أو كهول أي هم في سن العمل والانتاج • فلما هاجروا أضاعت البلاد فيهم رجالا منتجين ، كما تضيع فيهم مجموع النفقات التي استدعتها تربيتهم وتنشئتهم وريعها • ولا تفي بهذه الخسارة ثروتهم المجمعة ان عادوا بها الى البلاد أو أرسلوا نصيباً ضئيلا منها الى أهليهم ، لأنهم في بلد الاغتراب قد اشتغلوا واشتركوا في بعض المشروعات أو استصلحوا الأرض فزادوا رأس المال هناك • ولو لبثوا في بلادهم الأصلية وعملوا فيها لبقيت آثارهم فيها وتضاعفت العوائد والفوائد •

أما الهجرة الى البلاد العربية فكانت آفة عليها • يمكن أن نذكر هنا هجرة الفرنسيين الاستيطانية الى الجزائر والايطاليين الى ليبيا في أثناء الاحتلال ولكن استقلال هذين القطرين لفظ أكثر أفراد تلك الجاليات الأجنبية •

على أن أكبر آفة عرفتها البلاد العربية منذ هجمات التتر والحروب الصليبية هي الهجرة الصهيونية • انها غزو سياسي وعسكري وعرقي تحت ظاهر قومي لأناس ينتسبون الى قوميات مختلفة وتحت ظاهر ديني دين موسى عليه السلام براء منه • وقد تسببت بجلاء القسم الأكبر من الفلسطينيين أهل البلاد الأصليين الى مختلف البلدان وتحت كل نجم ونشأ عن ذلك كوارث معروفة • ولعل في الآفاق العالمية وفي التعاون العربي الحازم ما يبعث على الأمل في احلال السلام وتوطيد العدالة •

والهجرة من البلاد العربية الى البلاد العربية تتبع عاملي الجذب والنبذ بينها حسب المستوى الاقتصادي وفرص العمل. ويجري التيار الغالب في البلاد العربية المحدودة الدخل الى الدول النفطية الغنية كالسعودية ودول الخليج وليبيا ويحمل خاصة المهاجرين من الدول العربية الآسيوية كما يحمل قلة من مصر وقليلا من السودان أما ليبيا فتتلقى المهاجرين من مختلف البلاد العربية آسيوية وافريقية على تفاوت في النسب • وأما المغرب العربي فان تيار الهجرة فيه يتجه شمالا الى فرنسة أصلا لروابط اللغة والثقافة والسياسة ولأن فريقاً من أهله سبقت هجرتهم اليها • وتتجه فروع من تيارات الهجرة الى المملكة المتحدة والبلاد الأوربية الأخرى والى كندا واسترالية وأمريكة •

وقد نشأت تيارات للهجرة جديدة من خارج البلاد العربية الى البلاد العربية النفطية ولا سيما من الهند والباكستان وسريلانكا والفليبين • ومغبات هذه الهجرة الأجنبية موضع للتأمل والمناقشة •

الهجرة الداخلية في البلد العربي هو تغير في محل الاقامة بين قسم اداري وآخر لفترة زمنية تستغرق سنة أو أكثر كما سلفت الاشارة •

وتصنف أربعة أصناف : ريفية ريفية ، وريفية مدنية ، ومدنية ريفية، ومدنية مدنية • وهنا على الرغم من بساطة التصنيف يلزم تعريف المركز الريفي والمركز المدني الذي يدعى أيضاً بالحضر • والتفريق بينهما يختلف باختلاف الدول وتفاوت الاعتبارات •

أهم هذه الأصناف الهجرة الى المدن أو الحضر • انها تتبع درجة التقدم والثقافة وتبدل نمط المعيشة وتوافر فرص العمل وسبل الرقي في السلم الاجتماعية • يؤلف هذا الصنف غالبية تيار الهجرة الداخلية بحيث لا ينصب البحث الا عليه • وهو الذي أدى الى اتساع العمران ونشوء المدن الكبيرة الضخمة في العصر الحاضر • ومن الطبيعي أن يكون لها مشكلات تتفاوت بتفاوت المجتمعات وبتفاوت الميادين الاقتصادية والتنظيمية والصحية وأمثالها • ويرجع هذا التفاوت الى نظام المجتمع نفسه ومدى ايلاء المسؤولين فيه الانتباه اللازم لها للاستفادة من عناصرها الايجابية وتحامي عناصرها السلبية • المدن مراكز العلم • فيها من بيوته ومعاهده ما ليس في الريف. فيقبل أبناء القرى لينهلوا من معينها • ولكنهم بعد أن يتخرجوا يكونون قد استساغوا الحياة الحضرية فيستحبون الاقامة في المدن بسبب ذلك أو بحكم ممارستهم أعمالهم واختصاصهم أو بسبب وظائفهم التي قد يُسمَّون لها • وقلّ أن يعودوا الى قراهم حيث لا يجدون فيها مزايا المدن من جد وكسب ، ولهو أحياناً ، وتقدم في المناصب ومشاركة عميقة في الحياة الثقافية والاجتماعية • ومن المعلوم أن تنوع الاختصاص وعلو المناصب مكانهما في المدن ولا سيما في العواصم •

ثم ان المجتمع الريفي ذو تقاليد وعادات وروح قَبلية أو عشائرية أو طائفية تضغط على أفراده وتضيق مجال حريتهم وتسمح بالتدخل في شؤونهم الخاصة • وهذا كله يدفع ببعضهم الى الهرب من هذا الضغط •

ولا يخفى توافر فرص العمل في المناطق الصناعية وتيسر مختلف السلع في المدن • وقد أدى تنظيم الغلات الزراعية الى انتقال مراكز النشاط الاقتصادي الزراعي من القرى الى المدن كالتهيئة النهائية لمشتقات الألبان وتحضير اللحوم وحفظها ومَقْرِ الخضار في المعلبات (الكنسروة) واتساع التجارة والأسواق وهكذا تتكاثر سبل الموارد الاقتصادية في المدن •

كانت القرية ذات اكتفاء اقتصادي ذاتي ولكن هذا الاكتفاء طفق يضعف بل يتلاشى • وأخذت القرية تعتمد في حاجاتها التموينية والاستهلاكية في الغالب على المدينة • واذا بقيت طائفة من القرى في البلاد العربية تحتفظ بسماتها التقليدية فان تلك السمات تتجه نحو الزوال •

واعتاد القسم الأكبر من الريفيين الذين يفدون الى المدينة للعمل وللكسب اتخاذ أطراف المدينة مواقع لبناء مساكنهم وأكواخهم وكلها تبنى أحياناً دون رقابة ولا تخطيط منظم فهي سيئة البناء مكتظة بأهليها سريعة النمو والامتداد تنمو كما تنمو الفطور وكأنها قرى معلقة بأطراف المدينة وكأنها جميعاً تعمل من الوجهة الاجتماعية على ترييف الحضر بدلا من تحضير الريف وذلك بسبب نقص الخدمات الاجتماعية الضرورية • وما زال تيار الهجرة الداخلية في أغلب البلاد يجري عشوائياً • ومن المناسب الاشراف على هذه الاندفاعات السكانية ووقايتها من الآثار السلبية والاستفادة منها في استغلال الأراضي واستثمارها وتنظيم قوة العمل وتوفير الموارد الاقتصادية واسباغ الصحة والتقدم على المجتمع •

ولقد أصبح الارتباط بين الريف والحضر في جميع البلدان شديداً كما أصبح الارتباط بين البلدان المتقدمة والبلدان النامية على درجة لا يمكن اغفالها (تبعية البلاد النامية للبلدان المتقدمة في الاستهلاك والصناعة والعلم ، وتبعية البلاد المتقدمة النسبية للبلاد النامية في بيع سلعها واستيراد الطاقة والمواد الأولية) •

وهكذا يجدر العمل على تقليل التفاوت في الدخول المالية وفي مجالات التقدم الاجتماعي بين البلدان المتقدمة والبلدان النامية وبالتالي تقليل الفروق في الدخول وفي مجالات التقدم الاجتماعي ما أمكن بين الريف والحضر • وأيا كان الأمر فان الانسان أهم عنصر في جميع الاعتبارات ولا بد في كل تدبير سليم من الحفاظ على

حريته وكرامته ومن السعي نحو تقدمه وحمايته من البؤس والشقاء وآفات الأمراض وعوادي الطبيعة ٠

هجـرة العقـول :

ان البلاد المتقدمة بسبب تقدمها المطرد السريع بحاجة ماسة وملحة الى العلماء والمتخصصين ولا تكاد تسد الجامعات والمعاهد العلمية تلك الحاجة المتزايدة، كما أن نفقات اعدادهم وتخصصهم كبيرة باهظة ثم ان عوامل التنافس بين الدول الصناعية تقتضي الاعتماد على الكفايات العلمية الكبيرة ، ولهذا طفقت تلك الدول تجتذب تلك الكفايات بالمغريات المادية والمعنوية ، ولا سيما من بلدان العالم الثالث ومن بينها بعض أقطار الوطن العربي ٠

ان الحاجة التي نوهنا بها الى العلماء قد اشتدت في السنين الأخيرة بسبب مقتضيات النمو والانتاج ، كذلك نجد الربح الكبير الذي أفادته الدول المتقدمة في المال وفي الوقت من هجرة العقول اليهاقد عزز ذلك التيار ودعمه ٠ وكل زيادة في جانب يقابلها خسران في الجانب الآخر ٠ فقد ألمت الخسارة بالبلاد التي تنطلق منها عناصر ذلك التيار ولا سيما أن تلك العناصر في الغالب ناشئة فتية تومض بالوعود ٠ فكان فقدها في بلادها الأصلية «ضغثاً على ابالة» كما يقول المثل العربي القديم ٠ وليس ما يمنع تلك الدول المتقدمة ازاء الربح من رأس المال البشري هذا من أن تضع لامتصاصه خططاً سرية وعلنية باطنة وظاهرة ٠

هذا التيار جار بين البلاد المتقدمة بحسب الاغراء المادي والعلمي والظروف الملابسة ٠ ولكن نسبة هذه الهجرة من البلاد النامية ولا سيما من الوطن العربي أعلى وأدعى للخسران ٠

والذي يسترعي الانتباه ازدياد الاختصاصيين الذين يهاجرون من البلاد العربية الى أوربة والولايات المتحدة ٠ وهذه الزيادة ناشئة عن قوتي نبذ وجذب كما هو شأن تيارات الهجرة عامة. قوة النبذ في البلد الأصلي ضآلة الرواتب والأجور واضطراب الأحوال الاجتماعية وقلة المختبرات التي يستطيع المتعلم الناشىء فيها أن يمارس اختصاصه ودرايته ، كذلك ضآلة فرص العمل العلمي وانخفاض المردود في البحث وعدم وجود ميزانية تدعم الباحث وتزوده بالعناصر الضرورية

في بحثه وانتاجه ، على حين يقابل كل ما سلف في البلاد المتقدمة مزيد من المكافآت المالية والمعنوية وأعداد هائلة من الأجهزة والمراجع ووسائل البحث والنشر والتقدير وسهولة تبادل المكاسب العلمية وتتامّ الاختصاصات المتنوعة بحيث تتعاون أسباب المعرفة المتفاوتة على تقدم سير العلم وتضامن جوانب الرقي • وقد يتفوق أبناء البلاد العربية في مواطن هجرتهم على أبنائها في مختلف المجالات الفكرية والعلمية والاقتصادية •

هذه الهجرة التي تجتاح البلاد الأصلية تستنزف خيراتها وتطيح بمواردها وتعوق تقدمها • ان العالم الذي أعدته بلاده قد كلفها نفقات باهظة عليه أن يعوضها بعد تكونه العلمي بانتاجه وباسهامه في تقدمها ، وذلك انما يتم في سني حياته المنتجة ، فكأن هجرته الى البلاد الغنية هدية من فقير معدم جمع بُلَغَ معيشته وقدمها للموسر الثري ليزيد ثراءه ويساره ، ولا سيما أن تلك السنين المنتجة سوف تمضي في البلد المقصود •

ان أكثر من نصف المختصين في سورية ولبنان والأردن مثلاً وكذلك الأمر في مصر والمغرب يغادرون بلادهم الى بلد آخر أكثر تقدماً • واذا علمنا أن البلاد في أمس الحاجة الى هؤلاء النازحين ، وقد خسرت عليهم مبالغ طائلة في تنشئتهم العامة واعدادهم الاختصاصي ، تبينت لنا العواقب الغاشمة لهذه الهجرة والمواقف العامة لأولئك المهاجرين • ولا بد من اتخاذ التدابير التشريعية والاجتماعية والمالية لاسترداد تلك الكفايات والامساك بها وإسباغ التكريم لها والعمل على تهيئة المجال المناسب لانتاجها المثمر • وقد كان للعلم في ماضي البلاد العربية أعلى مكانة وأجل شأن وأسمى غاية • ومثل هذا الغبن واقع في بقية البلاد العربية • وهو من العقبات العاتية التي تعترض في سبيل تقدمها السريع. ولا شك أن الخسارة من هذا النوع تستدعي خسارات تالية متفاقمة • ان العالم في الحقيقة بمثابة مدرسة يُخَرِّج حوله العلماء ويدربهم ، ولذلك خسارته ليست خسارة فرد واحد ولا ضياع مبلغ من المال وانما هي فقدان أفراد متعددين ومبالغ طائلة وامكانات معنوية كثيرة. ولذلك ينبغي اعطاء العالم مكانة طليعية في تنمية المجتمع ، وتقديم أفضل الأحوال المناسبة له ، وعونه على القيام بأعباء رسالته الفكرية وتشجيع انتاجه ونشاطه على صعيد وطنه وفي المجال العالمي إن أمكن •

قضايا ومشكلات سكانية

يهمنا هنا في الدراسات السكانية للدول العربية أن نلقي بعض الأضواء على طائفة من تلك العناصر التي سلف شرحها فنتناول السياسة السكانية التي تتعلق بتنظيم الأسرة وتوزع السكان وبصحتهم والأحوال التعليمية لديهم وبجانب من الأمور الاقتصادية ٠

تبحث السياسة السكانية المبادىء الظاهرة والباطنة التي تعتمدها السلطات العامة في ميادين القضايا الديمغرافية وجملة التدابير التي تتخذها تلك السلطات في سبيل تحقيق تلك المبادىء ٠

١ ــ يدخل تنظيم الأسرة في هذه السياسة ، اذ تنظر الدولة في أمر ازدياد السكان وثبوت عددهم ونقصانه ، فاذا كان اتجاه هذه السياسة نحو نمو السكان قيل لها نصيرة زيادة السكان ، واذا كان اتجاهها نحو ضبط النسل وعدم زيادتهم قيل لها سياسة ضابطة الزيادة أو سياسية ملتسية نسبة الى القس الانكليزي ملتس[١١] ٠

ومن التدابير التي تحفز على زيادة المواليد أو تخفيف تناقصهم كما هو حاصل في فرنسة مثلاً الاعانات وهي اعطاء الأسرة مبلغاً من المال يتجدد دورياً ، وكذلك المنح وهي أيضاً مبلغ من المال يعطاه العروسان مرة واحدة أو أكثر من مرة عند الزواج ٠ ومن المنح منحة الأمومة حين تحمل الزوجة ومنحة الطفل حين يولد ٠ ومن الاعانات تخفيف الضرائب عن رب الاسرة ٠

ومن التدابير التي رسمت لخفض عدد المواليد في البلاد النامية برامج السكان التي تشتمل على تعليم تنظيم الأسرة وعلى خدمة تنظيم الأسرة ، وهما يتمّان اما مستقلين واما بالاشتراك مع برامج الصحة ومع برامج الرعاية الاجتماعية ولا سيما رعاية الأمومة وصحة الأطفال ٠

وفي تنظيم الأسرة يَبْرُز ما يدعى الوالدية المسؤولة أو الوالدية المنظمة ، وهي أن يكون للأبوين موقف واعٍ تجاه نسلهما ٠ وقد يختلف عدد الأولاد الذي يتوقان الى مجيئه وينشد انه عن عدد الأولاد الأمثل الذي يرتئيانه لمجتمعهما ٠ فقد يرغب الزوجان في عدد من الأبناء لأنفسهما وحسب أحوالهما ، وهذا العدد

المنشود أو المرغوب فيه شخصياً غير ذلك العدد الأمثل للمجتمع عندهما • وقد يتطابق العددان • ذلك أن الرغبة في الذرية لا تتحقق دائماً بارادة الزوجين • فقد يكون بين الأزواج من لا ولد لهما أو من لهما ولد أو ولدان دون العدد المنشود على حين تكثر ذرية بعض الآباء والأمهات حتى يضيقوا بها ذرعا • فلأمثال هؤلاء أُعِدَّت جمعيات تنظيم الأسرة رفقاً بهم •

وكلمة تنظيم الأسرة كلمة لائقة تشير الى اتخاذ الوسائل الواقية من الحمل من أجل اقامة فترات زمنية مناسبة بين مجيء الأولاد • وهي كلمة حلت محل لفظ ضبط النسل الذي يقابل في اللغة الانكليزية لفظ Birth Control

هذا ولا توجد في الوقت الحاضر سياسة سكانية واحدة واعية تعم البلاد العربية في قضية نمو السكان وازدياد عددهم أو الحد من هذا الازدياد • وانما هنالك اتجاهات متباينة في هذا الصدد أكثرها مبني على النظر المباشر الى الواقع دون النظر الى المدى البعيد • ويمكن تصنيف تلك الاتجاهات في خمس زمر •

الزمرة الأولى ذات سياسة مُعْلَنة تسعى نحو خفض خصب الزوجات والحد من النمو السكاني وتعتمد تنظيم الأسرة وتدعو له • وتضم هذه الزمرة مصر وتونس •

الزمرة الثانية لا تعلن سياستها ولكنها ترحب ببرامج تنظيم الأسرة وتهتم برعاية الأمومة والطفولة وتشمل لبنان والمغرب والجزائر •

الزمرة الثالثة لاترى ضرورة لتنظيم الأسرة ولكنها تسمح به • ومن هذه الزمرة سورية والأردن •

الزمرة الرابعة تشجع النمو السكاني وهي زمرة البلدان النفطية الغنية وهي السعودية والكويت والبحرين وقطر والامارات العربية المتحدة وعُمان وليبيا والعراق ، وزيادة على رغبتها في النمو تتقبل هجرة الأيدي العاملة اليها وهجرة الكفايات العلمية والتقنية ولكنها تشرف على الهجرة وتنظمها تنظيماً يوائم حاجاتها ومطالبها • ومن المناسب الاشارة الى الاتفاقية المعقودة بين العراق ومصر سابقاً لتزويد العراق بالفلاحين المصريين •

الزمرة الخامسة بلدان فقيرة تضم موريتانيا والصومال وجيبوتي والسودان واليمن العربية واليمن الديمقراطية • وليس لديها سياسة سكانية • وهي بحاجة

الى النمو الديمغرافي • وقد يوجد بعض خدمات لتنظيم الأسرة لدى عيادات وزارات الصحة في أغلب هذه البلدان • هذا وان اليمن العربية سائرة في اتجاهها الديمغرافي نحو الزمرة الرابعة بسبب آبار النفط والغاز الغزيرين التي كشفت منذ سنين قليلة • كذلك السودان اذا انتظمت أمورها وتحققت وحدتها وسلكت سبيل التنمية الزراعية الناجعة تستطيع أن تستوعب عدداً أكبر من سكانها الحاليين •

ان صندوق الأنشطة السكانية ومنظمة الصحة العالمية والاتحاد العالمي لتنظيم الوالدية وأمثال هذه الهيئات الدولية تدعو كلها الى تنظيم الأسرة • وحبذا لو عمدت هذه الهيئات في دعايتها الشديدة لهذا التنظيم الى العمل على تقليل الوفيات في البلاد العربية ولا سيما وفيات الرضع ووفيات الأطفال الصغار وعلى الارشاد الصحي وعلى مكافحة الأمية ومكافحة الفقر وكذلك على رعاية المعوقين صغاراً وكباراً • فان هذه الأعمال الانسانية عندئذ أحق بالثناء وأدعى الى الارتياح وأجدر بالتنويه وأدل على الاخلاص في القول والعمل •

ولا شك أن هذه الأمور الانسانية اذا توطدت واستطاع الانسان العربي أن يعيش في ظل السلام العادل وأن يرتفع بمستوى معيشته فيصل الى حياة كريمة لائقة وشاركته المرأة في مجال الحياة الاجتماعية وفي ميدان النشاط الفكري والعلمي فان معدل المواليد سوف ينخفض انخفاضاً طبيعياً من دون حاجة الى ابتسار الشؤون واعتساف العادات والحد المباشر للذرية فان الأولاد في الوقت الحاضر يكادون يمثلون الآمال الباقية للآباء والأمهات في الوطن العربي •

٢ ــ مشكلات الهجرة : أهم هذه المشكلات هي تيار الهجرة الداخلية الى المدن ولا سيما العواصم • وهي مشكلة عامة سبق شرحها وهي تحشد القادمين في ضواحي المدن فيتراكمون تراكماً سريعاً يتجاوز توقعات الهيئات البلدية المسؤولة ويقيمون في منازل مكتظة تشبه الأكواخ في بنائها العشوائي ، لا تخضع للتصميم الصحي ولا تتبع التخطيط المدني العام ،وربما لا تتوافر لدى السلطات المسؤولة الميزانيات المالية اللازمة لتسكين أولئك المهاجرين وتعهدهم بجميع الخدمات التموينية والثقافية والصحية الا بمشقة بالغة • ولا شك أن هذه الأمور جديرة بالنظر والاعتبار وقمينة بحساب التوقعات المقبلة ورصد الأموال اللازمة ، زيادةً

على الاهتمام بالهجرات القسرية التي تُحدثها بعض الحروب أو الغزو الأجنبي أو اجتياح أراضي السكان الأصليين • هذا مع العلم أن قسماً كبيراً من الميزانيات العامة تذهب لدى بعض البلاد العربية في حاجات الدفاع عن النفس وعن الوطن بسبب الأخطار المتلاحقة •

ولا ننس الاشارة في ضمن مشكلات الهجرة الى ما يدعى بهجرة العقول التي سبق التنديد بها •

٣ ـ مقاييس الصحة : سلف أن أوردنا في جدول الاحصاءات الحيوية معدلات الوفيات السنوية ونسب وفيات الرضع والآجال المتوقعة في البلاد العربية • هذه النسب والمعدلات متجهة نحو النقصان كما أن الآجال المتوقعة صائرة الى الارتفاع وبالتالي الى تطاول الأعمار المتاحة للأفراد ، وذلك بسبب التقدم الصحي في هذه البلاد ولا سيما النفطية ، ومع ذلك فالحاجة ماسة الى زيادة التقدم واللحاق بالبلاد التي هي أكثر تقدماً ، ونحن نعطي هنا أمثلة في هذا المجال لدى بعض البلدان المتقدمة صناعياً :

	معدل المواليد	معدل الوفيات ١٩٨٠ـ١٩٨٥	معدل النمو الطبيعي	الأجل المتوقع ١٩٨٦
الاتحاد السوفييتي	١ر١٩	٧ر١٠	٤ر٨	١ر٦٥
الأراضي المنخفضة (هولندا)	٢ر١٢	٢ر٨	٤	١ر٧٣
فرنسة	٥ر١٤	٢ر١١	٣ر٣	٨ر٧١
المملكة المتحدة	١٣	٧ر١١	٣ر١	٤ر٧٢ (١٩٨٧)
الولايات المتحدة	٧ر١٥	٦ر٨	١ر٧	٤ر٧١

وذلك لمقارنتها بأمثالها في الوطن الوطن العربي (جدول الاحصاءات الحيوية).

ان جبلة الانسان العربي قوية ونقية وسليمة ولم تتأثر في الماضي بالمسكرات والمخدرات ، وان وراء هذا الانسان دينه الحنيف يَتَعَهَّده بالطهارة والنظافة جسداً وروحاً وسلوكاً ولباساً • وأكثر الثغرات في صحته وفي حياته الخلقية والاجتماعية نشأت في الظروف التاريخية السالفة ومن آثار الاستعمار في بعض أجزائه • ومع ذلك فثمة مشكلات صحية في الوطن العربي نشير الى بعضها :

آ ـ نقص الغذاء العام لقلة توافره. وتفيد المعلومات أن غالبية البلاد تحظى بنصيب يزيد على ألفي حريرة أو سُعْر في اليوم للفرد الواحد ولكن يقل هذا المتوسط في موريتانيا والصومال وجيبوتي والسودان . ولا شك أن هذه المشكلة ناشبة في الطبقات الفقيرة . والنقص يقع في مادة البروتين وفي الفيتامينات . ولا ننسى أن الأحوال الغذائية في معسكرات اللاجئين الفلسطينيين ولا سيما أطفالهم محزنة ومخزية . فأكثر هؤلاء الأطفال مصابون بالسَغَل (نقص التغذية وسوئها) . وينشأ الكساح بينهم من نقص فيتامين د .

ب ـ ومن الملاحظ أن البيئة في البلاد العربية مع جودتها الطبيعية قد تغدو سيئة في بعض الأرياف وفي أحياء المدن الفقيرة المزدحمة بالسكان ولا سيما حول أخصاص المهاجرين الريفيين والعمال ، وذلك لقلة توافر المياه الصالحة للشرب ولسوء تصريف الفضلات والأوساخ ، ولقلة الرقابة الصحية على المواد الغذائية ، ولانتشار القوارض والحشرات الناقلة للأمراض .

ج ـ وثمة أمراض مستوطنة في بعض البلدان العربية كالتيفية (التيفوئيد) والزحار (الدوسنطاريا) والأمراض المعوية وفقر الدم وأمراض الأطفال كالحصبة والخُناق (الدفتريا) والسعال الديكي والاسهال والرمد والحَثَر (تراخوما) وبعض الأمراض الطفيلية كداء البلهرسيات في مصر . وهذا المرض قد بدأ ينتشر في مناطق جديدة بالأردن والعراق والسعودية وسورية وكداء الصفر (أسكاريازس) وداء الملقُوات (انكلستوميازس) وأمثالها .

د ـ هذا وكأن هذه الأمراض لاتكفي حتى تسربت الى بعض البلاد العربية من الغرب آفات حديثة كمرض الايدز أو فقد المناعة المكتسب ، وقد ظهر هذا الوباء بأمريكة وأوروبة وانتشر في افريقية ويقدر أن أكثر من خمسة ملايين يحملون حمة (فيروس) هذا الداء في العالم . وهو ينتقل بالوصال الجنسي وبنقل دم ملوث أو استعمال ابرة ملوثة وكذلك من الأم المصابة الى جنينها ولم يثبت انتقاله بالمصافحة والغذاء والهواء .

هـ ـ ان وفيات الرضع في البلاد العربية ما زالت مرتفعة بل أيضاً وفيات الأطفال الصغار في السنة الثانية والثالثة وأحياناً الرابعة ولا ريب في ان ذلك راجع الى قلة العناية بهؤلاء الأطفال ولا سيما البنات والى سوء التغذية والى تفاوت

درجات الحـرارة بين الليل والنهـار لأن أكثر أمراض الرضع والأطفال هضمية وتنفسية ٠

٤ ـ الحالة التعليمية ـ يصنف الناس حسب هذه الحالة ٠ فمن كان يعـرف القراءة والكتابة فهو متعلم أو غير أمي ٠ ومن لم يعرفهما فهو أمي ٠

وتعتمد احصاءات التحصيل العلمي على مدة الدراسة أو سنوات التحصيـل الكاملة أو علي الشهادات المحصَّلة . وهذا كله متعلق بنظام التعليم ٠

ودرجات نظام التعليم هـذا ثلاث :ابتدائي وثانوي وعال ٠

وثمة معاهد تقنية متفاوتة الأنواع والدرجات ٠

على أن ثمة تعبيراً في البلاد المتقدمة وهو الأمية الوظيفية ٠ ويطلق على الذين قضوا بعض السنوات في مدارس ابتدائية دون أن يكتسبوا القدرة على القـراءة والكتابة في مجال أعمالهم الوظيفية ٠ فهم كالأميين في هذا الاعتبار ٠

ولا بد من اعتبار السن في الأمية ٠ وأكثر ما تتخذ سن الخامسة عشرة فمـا فوق لبيان مدى تفشي الأمية ٠

هذا وصروف البـلاد العربية التاريخية بعد طول حضارتها المتألقـة جعلت الأمية تسـري وتستفحل في ربوعهـا ٠ والعمل متواصل في مكافحة هذه الآفـة المعـوِّقـة ٠

وثمة جمعيات أهلية وهيئات رسمية تعمل في هذا الميدان ٠ ويلزم أن يُنتبه خاصة الى الأطفـال الذين هم في سـن التعليم الابتدائي دون أن يكونوا مسجلين في المـدارس ٠

٥ ـ القـوة البشرية وقوة العمـل ومعدل الاعالة ٠ يختلف مدى العمر الذي يعمل فيه المرء من مجتمع الى آخر ، متى يبدأ المرء بالعمل ومتى يتقاعد أو يحال الى المعاش ؟ تتأخر هـذه السن عـادة في بدايتها وتكبر نسبياً في نهايتها وذلك في البلاد المتقدمة عنها في البـلاد النامية ٠ تعتبر سن العمـل في أوربة والولايـات المتحدة ممتـدة من الخامسة عشـرة الى الرابعـة والستين للـذكـور والـى التاسعة والخمسين للاناث ٠ وقد تتأخر عن ذلك ٠ وتبكر هـذه السن في البـلاد النامية ، ومنها العربية ٠ يعتبر بعض هذه البلاد بدايتهـا في الثانية عشـرة بل تبدأ في بعضها بالعاشرة ٠ وتختلف نهايتها لدى الموظفين الذين يتقاعدون في سـن

التاسعة والخمسين ولدى العاملين في مختلف الميادين الأخرى حيث تنتهي بالعجز عن العمل ٠

وفي علم الاقتصاد مصطلحات تتعلق بالسكان نجملها هنا للفائدة ٠ فالقوة البشرية عادة تشمل فئات الأعمار من سن الخامسة عشر الى سن الرابعة والستين ٠ أما من هم خارج القوة البشرية فهم الذين أعمارهم أقل من خمس عشرة سنة والمرضى المزمنون والعجزة والذين هم في سن الخامسة والستين فما فوقها ٠ وهنالك قوة العمل وهي جزء من القوة البشرية وتشمل المشتغلين أولى النشاط الاقتصادي والمتعطلين ٠ أما من هم خارج قوة العمل فهم الطلاب والمتفرغات للأعمال المنزلية من ربات البيوت ٠

هذا ويحسب معدل الاعالة على الشكل الآتي :

$$\text{معدل الاعالة} = \frac{\text{من هم دون الخامسة عشرة + الذين هم في الخامسة والستين فما فوقها}}{\text{عدد السكان بين الخامسة عشرة والى الرابعة والستين}} \times ١٠٠$$

هذا المعدل متعلق بتركيب السكان العمري ولا يكشف عن مدى النشاط الاقتصادي ٠ ولهذا يحسب معدل هذا النشاط الأولي ، وهو يمثل عدد الأشخاص ذوي النشاط الاقتصادي منسوباً الى عدد السكان كلهم ٠ ومن الطبيعي أن يتأثر بتركيب السكان العمري أيضاً ٠ ويحسب كذلك معدل النشاط الاقتصادي العام ٠ وهو عدد الأشخاص ذوي النشاط منسوباً الى عدد السكان في سن العمل ، كما يحسب على الوجهين السابقين معدل النشاط للذكور ومعدل النشاطات للاناث ٠ والتفريق ضروري لأن الأول أعلى وأثبت من الثاني اذ يكون دخول الاناث في النشاط الاقتصادي ضئيلاً وهامشياً ومتقطعاً ولا سيما في البلاد العربية وخاصة مدنها ٠ ولذلك كانت مقايسة النشاط للذكور بين المجتمعات أصلح وأرشد ٠ ومع ذلك فلا يجوز الاقتصار عليه لأن نشاط الاناث في بعض المجتمعات قوي ٠ ويحسب أيضاً معدل النشاط العمري لأحد الجنسين فينسب عدد العاملين في فئة الأعمار الى عدد أفراد الفئة ٠ وجميع هذه المعدلات تؤخذ عادة في المائة ٠

والسبب في اعتماد النشاط الاقتصادي ومعدلاته هو أن العمل جوهر الحياة الانسانية وينبوع الثروة والتقدم وأساس الحضارة ٠ ومن المهم في هذا الميدان

السعي للقضاء على البطالة في المجتمع أي التعطل عن العمل • وقد نجد في المجتمعات العربية نسبة ليست بالقليلة من المتعطلين في مختلف المجالات وذلك بسبب ضيق الموارد المالية وقلة الوظائف التي ينبغي أن تتسع لتستوعب جميع من هم في سن العمل •

هذا ويصنف السكان العاملون حسب قطاع النشاط الاقتصادي في ثلاثة قطاعات :

القطاع الأول : يشمل الزراعة والطرد وصيد الأسماك والمناجم •

القطاع الثاني : يضم الصناعات التي تحول المواد الأولى سلعاً مفيدة أي الصناعات التحويلية •

القطاع الثالث : هو انتاج الخدمات•

وفي البلاد النامية قد يفرد صنف خاص هو القطاع التقليدي يحتوي الحرف التقليدية المتوارثة •

هذا وقد أعدت منظمة الأمم المتحدة تصنيفاً دورياً بجميع أنواع النشاط الاقتصادي يحسن الرجوع اليه عند الموازنة بين المجتمعات • كما تصدر الجامعة العربية مع اللجنة الاقتصادية والاجتماعية لغربي آسيا منشورات تعرض فيما تعرض معدلات النشاط الاقتصادي في البلاد العربية •

هذا ما سنح لنا عرضه في بحث الميراث الديمغرافي العربي • ولم يكن لنا بدّ فيه من الاستطراد الى شرح بعض التصورات في علم السكان وجلاء بعض مصطلحاته الحديثة ومن الاشارة في الحين بعد الحين الى القضايا والمشكلات والعقبات السكانية الطارئة بالقياس الى التقدم الاجتماعي • لقد تطاول البحث ولكننا نرجو في هذه الافاضة توكيد بعض القضايا وانارتها انارة علمية وانسانية •

□ **الحواشي :**

١ ـ ضبط الأحوال المدنية يقابل في الفرنسية Statistique de l'état civil والاحصاء الحيوي يقابل في الانكليزية Vital Statistics • واللفظان رائجان في البلاد العربية بحسب التاثير السابق لكل من الثقافتين الفرنسية والانكليزية وهما بمعنى واحد •

٢ ـ مساحة الاتحاد السوفياتي تعادل سدس مساحة المعمورة فهو اوسع من البلاد العربية ولكنه مؤلف من قوميات عدة •

٣ ـ اوربة دون اراضي الاتحاد السوفياتي •

٤ ـ الاصل في اللغة ان المدني نسبة الى يثرب مدينة الرسول(ص) والمديني نسبة الى المدينة • ولكن العرب منذ القديم استعملوا لفظ المدني بمعنى المديني فقالوا مثلا الانسان مدني بالطبع اي اجتماعي عائش في تجمع كالمدينة • ويستعمل في هذا المعنى ايضا لفظ الحضري •

٥ ـ أكلا العمر : أقصاه •
٦ ـ نستعمل هنا لفظ المواليد بدلا من الولادة لأن الولادة قدتكون توامية •
٧ ـ السنة التقويمية المتداولة في علم السكان هي من أولكانون الثاني (يناير) الى ٣١ كانون الأول (ديسمبر) •
٨ ـ المؤلف محمد بن حسين بن علي الطواري الحنفي • المطبعةالعلمية تصوير ص ٥٧٤ •
٩ ـ شاع لفظ الخصوبة في الاحصاء • ولكن هذا المصدر ليسواردا في المعجمات العربيـة • والمراد بالخصوبة والخصب الالقـاح •
١٠ ـ نبحث العلاقة الرياضية البسيطة بين المعدل والنسبةهذين المذكورين من أجل جيل مسمى فلا تدخل فيه المواليد •

$\text{د} = \frac{\text{و}}{\text{ع}}$ باعتباره « د » المعدل السنوي بالألف و« و » عدد الوفيـات في السـنة ، و « ع » عدد السـكان في منتصف السـنة •

$\text{ن} = \frac{\text{و}}{\text{ع}'}$ باعتبار « ن » هذه النسبة السنويةبالألف و « و » عدد الوفيات في السنة و « عَ » عـدد السكان في أول السنة •

نغفل المواليد لأننا نعتبر جيلا مسمى ونفرض ان الوفيات موزعة بين الجيل بانتظام في غضون السنة ، فيجوز أن نعتبر

$\text{ع}' = \text{ع} + \frac{\text{و}}{٢}$ بحيث يكون $\text{ن} = \frac{\text{و}}{\text{ع} + \frac{\text{و}}{٢}}$

وعندئذ يتهيا بسهولة حساب ن بافادة د وحساب د بافادة ن :

$\text{ن} = \frac{٢\,\text{د}}{٢ + \text{د}}$ ، $\text{د} = \frac{٢\,\text{ن}}{٢ - \text{ن}}$

١١ ـ يرى ان الناس يزيدون كالمتوالية الهندسية والموادالغذائية تزيد كالمتوالية الحسابية • والفرق كبير بين الزيادتين فينصح للمرء تاجيل زواجه حتى يضمن اعالة ذريته • أما أتباعه فيجيزون ضبط النسل بعد الزواج •

□ المصـــادر :

نذكر المصادر الآتية زيادة على ماسبقت الاشارة اليه في حواشي المقال:

– **في علـم السكـان :**
د. عبد الكريم اليافي ـ مطبعة جامعة دمشق ـ ١٣٧٨ هـ ـ ١٩٥٩ م•
– **المجتمع العربي ومقاييس السكان :**
د. عبد الكريم اليافي ـ معهد الدراسات العربية العالية ـ القاهرة ١٩٦٣ •
– **فصول في المجتمع والنفس :**
د. عبد الكريم اليافي ـ دمشق ١٣٩٤ هـ ـ ١٩٧٤ م
– **الفصل الثاني من كتاب « المجتمع العربي » :**
د. عبد الكريم اليافي ـ جامعة الامارات العربية ـ ١٤١٠ هـ ـ ١٩٨٩ م •
– **المعجم الديمغرافي متعدد اللغات « السفر العربي » :**
الطبعة الثانية د. عبد الكريم اليافي ـ اللجنة الاقتصادية والاجتماعية لغربي آسيا ـ بغداد •

عصر الترجمة والعصر الذهبي للطب العربي

د. عبدالرزاق الشقيفي

- ١ -

أمتنا العربية أعطت العالم في العصور السالفة كثيراً من المعرفة فقد ظلت ردحاً طويلاً من الزمن تحمل راية العلم ، ومشعل العرفان ، لتنير الدروب ، وتبدد الظلمات ٠٠ كانت بحق خير أمة أخرجت للناس ٠٠ تمكنت من استيعاب المعارف الانسانية التي وصلت اليها الامم من قبل ٠٠ ثم انطلقت في رحاب النور تخط للدنيا حروفاً مشرقة مضيئة ٠٠ تهدي بها السادرين في لجج الضلال ٠٠ وترشد التائهين الى ضفاف الأمان والسلام ٠

كانت أمتنا خالدة في كل ما قدمته للعالم ٠ لأنها تحمل ذهناً نقياً صافياً ، ونظراً صادقاً ٠ وحساً تجريبياً ، وميلاً فطرياً الى المؤالفة بين الفكر وبين التجريد والتطبيق ٠٠٠ ولقد تعرضت لغزوات والصنوف من القهر وأشكال من البغي والاستبداد ٠٠ وابتليت بالاحتلال ولكن هل ركعت وضاعت كما ضاعت أمم من قبلها ٠٠ كانت لها حضارة فهل بادت ؟.. كان لها مجد فهل صار مع الدارسين ؟ لقد أوقفتها المحن عن المسيرة الجادة في مضمار المعرفة والعلم ، ولكنها حين أفاقت في هذا العصر من غفوتها أقلقها أن وجدت نفسها وراء الركب الذي كانت تتقدمه ، وكان لا بد من النهوض، ولكل جواد كبوة ٠٠ ولكل سيف نبوة ٠٠ ان نظرة قصيرة الى ماضينا الناصع التليد، الحافل بنور العرفان تبدد فينا غياهب اليأس والقنوط، وتزيد الارادة صلابة وعزماً ٠٠ ولعمري هل ينطلق السهم من القوس ان لم نرجع الوتر ونشد به الى الوراء ٠٠

٠٠ اسمحوا لي أن أفتح أمامكم صفحة من ماضينا ، سطرها التاريخ بأحرف بارزة وضاءة ٠ نقرأ فيها بعض ما أسهم به الأولون النوابغ ، فكانوا أوائل من ألهموا العالم ٠٠

ورسموا معالم الحضارة الانسانية ·· اسمحوا لي أن أطلعكم على صفحة مشرقة من عصرنا الذهبي للطب العربي ···

إن أول طبيب عربي كان أحد أقرباء رسول الله (ﷺ) ·· وهو الحارث بن كلدة ·· درس الطب في جند يسابور، وكانت له مناظرة مع الملك الساساني (أنو شروان) في موضوع الصحة · ثم عاد الى مكة والطائف حيث وجّه اليه الرسول الكريم بعض المرضى لعلاجهم·· وتقول لنا المصادر التاريخية أن ابنه النضر بن الحارث كان طبيباً أيضاً · وعلى الرغم من هذا الاتصال المبكر بين المسلمين الأولين ومدارس الطب الأجنبية ، فان المسلمين لم يواصلوا التعلم في هذا الميدان ، ولم يقبلوا على الطب التقليدي الا بعد أن توطدت اللغة العربية في البلاد ، كلغة للطب ، وتغلغلت المعرفة الطبية في حياة العرب اليومية ·· وحينما فتح المسلمون (جند يسابور) و(الاسكندرية) · كان فيهما مدرستان تعملان كمركزين للتعليم الطبي ، وكانت الأولى بصورة خاصة في أوج نشاطها · ولكن لم تتم ترجمة آية رسالة طبية الى اللغة العربية قبل العصر الأموي ·

لقد امتد ملك الأمويين ما بين سمرقند شرقاً وأقاصي الأندلس غرباً ، وكانت دمشق منارة تشع بنورها على أرجاء واسعة من العالم · فقد احتلت اللغة العربية مركزاً لا مثيل له في التاريخ ، ان أول من أمر بنقل العلوم الى اللغة العربية هو مروان بن الحكم· وقد تم بعهده ترجمة كناش أهرن القس من السريانية الى العربية ، من قبل طبيب من البصرة يدعى ماسرجويه · وبقي هذا الكتاب المترجم محفوظاً في بيت مال المسلمين الى أن جاء الخليفة عمر بن عبدالعزيز الذي أمر بنسخه ونشره ·

لقد اتصل العرب بسكان سوريا وبلاد الرافدين قبل الفتح الاسلامي ، فاطلعوا على حضارات تلك الشعوب القديمة ، ووجدوا فيها ما يرضي رغبتهم الشديدة في المعرفة والعلم ، لذلك أكرموا علماء وأطباء السريان بعد الفتح ، وتركوا مدارسهم قائمة في أنطاكية وحرّان ، اكراماً للعلم والدين ، وحفظاً لأمهات الكتب العلمية · وقد أحب أولئك النصارى المسلمين الفاتحين ، لما تحلّوا به من التسامح الديني ، والمبالغة في اكرام العلماء ، وبادلوهم الاخلاص والولاء ·

لقد استعارت لغتنا العربية كثيراً من الألفاظ والمعاني والعبارات السريانية ، بعد أن صقلتها بما يلائم قواعدها · أوليست لفظة الفاروق ، أي المنقذ ، سريانية الأصل ؟ وقد أطلقوها على الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، الذي أنقذهم من اضطهاد الروم ·

لقد درج المؤرخون على تسمية المرحلة التي سبقت ازدهار العلوم عند العرب، بمرحلة النقل والترجمة · ولا بد من الاشارة الى اسهام السريان في تلك الحركة :

أما السريان فهم بقايا سكان سوريا وبلاد الرافدين القدماء · وكان من أعظم كتّابهم ومترجميهم قبل الاسلام « سرجيوس الرأسعيني »، المتوفى عام ٥٢٦ م · وقد نقل بعض مؤلفات جالينوس الطبية ، بعد أن أمضى زمناً في مدينة الاسكندرية ، أتقن خلالها اللغة اليونانية ودرس الكيمياء والطب في مدرستها · أما نشأته فكانت في مدينة رأس العين ، شمال سوريا · ولا تزال بعض ترجماته محفوظة حتى اليوم في المتحف البريطاني ·

كان الرسول العربي الأمي (ﷺ) أول من وجّـه الى تعلم اللغـة السريانية ، واقتباس العلوم منها· وقد جاء في الجزء الأول من كتاب صبح الأعشى ما يلي : « روى محمد بن عمر المدائني، في كتاب القلم والدواة ، قول الرسول لزيد بن ثابت : « أتُحسن السريانية ؟.. قال: لا .. قال : تعلمها .. فتعلمها زيـد ... » ·

لقد فتح العرب « الرها » في القرن السابع الهجري ، وهي مدينة سريانية عظيمة كانت مهداً للثقافة الأدبية والدينية ، وفيها مدرسة تخرَّج منها عدد كبير من الدارسين ، حتى أنهم سمَّوها « أثينا » سورية · وفي مدينة حرّان ،التي قيل انها أول مدينة بنيت بعد الطوفان ، كان فيها أيضاً مدرسة للعلوم الرياضية والفلك تخرَّج منها علماء مـن أشهرهم ثابت بن قرة وأولاده ، وأبو عبد الله البتّاني وغيره · وقدر بعض الباحثين عدد المدارس التي كانت فيما بين النهرين بنحو خمسين مدرسة ·

لقد استفاد الأمويون ، ومن بعدهم العباسيون ، من هذه المدارس ، فترجمت الكتب من السريانية الى العربيـة ، ولم يترك كتـاب في العلم أو الحكمة الا عرَّبوه · وقد أدى هـذا التماس بين العرب المسلمين والنصارى السريان الى تبادل الود والاحترام بينهم ، حتى ان بعض رجال الدين مـن السريان أفتى بتعليم أولاد المسلمين التعليم الراقي ، حيث كانت العلوم وقفاً لهم ، يورثه الآباء لمن يجدونه أهلاً من أبنائهـم ·

لقد بعث الاسلام قوة جديدة ونشاطاً باهراً في امكانات العرب الكامنة ، مما أدى الى تقدمهم في حقل العلوم، حتى انهم كانوا يقولون (لقد كان « اليوناني » أباً للعلم فجاء العربي المسلم فحلَّ محله في أبوة العلم) · ويقـول المستشـرق ولتر « ان حقائـق العلم والنـور جاءتنا ، نحن الأوربيين ، عن طريق العرب ، ولم تصلنا عـن طريق اللاتين ··· لقد كان باستطاعة القادمين مـن الصحراء ، بعقولهـم الزكيـة ، المولعة بالاطلاع والجرأة النادرة ، أن يفتحوا العـالم أجمـع لو بقـوا سائرين سيرتهم الأولى ·· » ·

واذا سألنا أنفسنا تُرى ما هي الأسباب التي جعلتنـا ، نحـن العرب ، متعطشين الى الاطلاع على علوم مـن سبقنا مـن الأمـم ،حُفَّاظاً لها ، ومبتكرين فيها ، وناشرين لها ؟ نقـول :

أولاً ــ القرآن الكريم والحديث الشريف ، فهما قـد حببا المسلمين بالعلم ورفعـا مكانته ، فأصبح في نظرهما أثمـن شيء بعـد الايمـان · واعتبر الاسلام العلمـاء ورثـة الأنبياء ، ورتبة العلم أعلى الرتب ·

ثانياً ــ طبيعـة العربي ، فقد خلق بحاثاً محباً للاطلاع ، فما أن جاء الاسلام ، ودان به أكثر العرب ، حتى رغبوا في اقتباس العلم ·

ثالثـاً ــ تشجيع الخلفاء والأمراء من المسلمين للناس على طلب العلم، فقد روي عن عليٍّ (كرم الله وجهه) ، أنه قال « العلم خير من المال ·· العلم يحرسك وأنت تحرس المال· العلم حاكم والمـال محكوم عليـه ، مات خازن الأموال وبقي خازن العلم » ·

ومما قاله خلفاء العرب عن العلماء «انهم صفوة الله في خلقه ، ونخبة من عباده ، صرفوا عنايتهم الى نيل فضائل النفس الناطقة، فكانوا مصابيح الدجى وسادة البشر ۰۰۰ » ۰

رابعاً ـ استعراب الأمم التي فتح الله قلبها للاسلام ، فآمنت به ، وأعجبت باعجاز القرآن وبلاغة الحديث ، فصدئت عن التآليف بلغتها ، وألفت العربية بعدما فتنت بها ۰۰

لقد اشتهر الخلفاء العباسيون بحبهم وتقديرهم للعلم وأهله ، فكان المنصور يتحف ملوك الروم بهداياه الثمينة من أجل أن يصلوه بما لديهم من كتب الحكماء ۰ وكان يخصص لها مهرة المترجمين ، ويبذل لهم العطاء ۰ فراجت سوق العلم في زمانه ، وقامت دولة الحكمة في عصره ، وكانت الترجمة عمل دولة لا عمل أفراد ۰ وفي عهد الرشيد ازداد نشاط العلماء والأطباء ، وامتلأت خزائن دار الحكمة بالمخطوطات وانتقل كبار الأطباء والتراجمة والباحثين عن العلم والعمل الى مدينة بغداد ، فكان عند الرشيد من يطببه على طريقة اليونان أو الهنود أو الفرس أو الكلدان ۰۰۰

وكان الخليفة المأمون ذا ولع بالطب ۰ ومن غريب ما يروى عنه أنه أولم لخاصته ووضع لهم أكثر من ثلاثمائة لون من ألوان الطعام ، وكلما وضع لون نظر اليه المأمون وقال : هذا يصلح لكذا ، وهذا ينفع لكذا ۰۰ ومن أحب الزيادة في لحمه فليأكل من هذا ، ومن كان قصده الغذاء فليقتصر على هذا ۰۰ وما زالت تلك حاله حتى رفعت الموائد ۰۰ فقال يحيى بن أكثم « يا أمير المؤمنين ان بحثت في الطب فأنت جالينوس ۰۰ وفي معرفة النجوم فأنت هرمس، وان ذكرنا السخاء فأنت حاتم » ۰

لقد اقتدى بالخلفاء العباسيين ووزرائهم عدد كبير من رجال عصرهم، فأصبحوا يتنافسون على اقتناء الكتب القديمة من يونانية أو سريانية أو فارسية ، كما سعوا لنقلها الى اللغة العربية ۰ ومن الأسر المشهورة بممارسة الطب وترجمة الكتب آل بختيشوع ۰ وهي أسرة نصرانية ـ نسطورية ، توارثت صناعة الطب ، وكان لأفرادها حظوة عند الخلفاء العباسيين، منذ زمن المنصور، فانتفعوا ونفعوا بطبهم ومؤلفاتهم ۰ وكانوا من أجمل أهل زمانهم ، لما لهم من شرف النفوس ونبل الهمم ۰ لذلك توارثوا رئاسة الأطباء في مدينة بغداد مدة لا تقل عن ثلاثة قرون ، ولكن مؤلفاتهم الطبية كانت موجزة وقليلة العدد ۰

كان جرجس بن بختيشوع (ت ـ ١٥٤ هـ) ، عميد هذه الأسرة ، رئيساً لبيمارستان ومدرسة جنديسابور ۰ وكان أول من جاء الى بغداد بناءً على طلب المنصور ۰ ثم تبعه عدد كبير من أطباء أسرته ومدرسته ، وكان منهم ولداه جبرائيل وبختيشوع ، وتلميذاه ماسويه الخوزي وابنه يوحنا ۰

عمل يوحنا في ادارة البيمارستان الذي أنشأه الرشيد في بغداد ، كما أشرف على المترجمين الذين كانوا يعملون في دار الحكمة ۰ وكان يعقد مجلساً مساء كل يوم يحضره جمع من تلامذته ، فيفحص أمامهم بعض المرضى ، ويشخص الأمراض ، ويصف الأدوية ۰ استمر عمله في خدمة الخلفاء العباسيين منذ عهد الرشيد حتى أيام المتوكل ، حيث توفي عام ٨٥٧ هـ ۰

قام يوحنا بوضع عدد كبير من المؤلفات الطبية والصيدلية ، اقتبس أكثرها من كتب اليونان ، وخاصة أبقراط وجالينوس ٠ لقد كان هنالك أسر وأفراد يعود اليهم الفضل أيضاً في جمع المخطوطات والسعي في ترجمتها ، نذكر منهم أسرة موسى بن شاكر ، وعلي بن يحيى المنجم ، ومحمد بن عبدالملك الزيات وغيرهم ٠٠٠

مما لا شك فيه أن حنين بن اسحق ، تلميذ يوحنا بن ماسويه ، كان أنبغ المترجمين ، فقد كان ضليعاً باللغة العربية الى جانب اتقانه اللغتين السريانية والاغريقية ٠ وقد لقبوه بحق شيخ المترجمين ، لأنه نقل أمهات كتب اليونان ، بينما اكتفى غيره بترجمة المؤلفات الموجزة لجالينوس ، وهو ما نطلق عليه اسم جوامع الاسكندرانيين ٠

لقد أغرم حنين بمؤلفات جالينوس فلم يترك كتاباً الا ترجمه ٠ يضاف الى ذلك أنه قام بتأليف عدة كتب طبية هامة منها كتاب العشر مقالات في العين وكتاب المسائل في الطب و ٠٠٠

استقرت العلوم في بغداد ، ونشأ جيل من العلماء المسلمين فهم هذه العلوم فهماً صحيحاً ، وكان على رأسهم أبو يعقوب الكندي الذي ألّف ما يزيد على واحد وعشرين كتاباً في الطب ٠ وكان للكندي اهتمام خاص بالصيدلة الى جانب اهتمامه بالطب وبالعلوم الطبيعية والهندسية بصورة خاصة ٠

تلك عجالة قصيرة عن مرحلة النقل والترجمة الأولى في عهد الأمويين والعباسيين ٠ ولكن اسمحوا لي أن أمر سريعاً الى حركة نقل العلوم الطبية في الأندلس لما لها من أهمية في اتمام هذا الموضوع :

لقد عُني الخلفاء والأمراء في الأندلس ، وعلماؤهم وذوو الوجاهة والثروة منهم ، بتشجيع انتقال كتب العلم ، المترجمة والمؤلفة ، في شرق العالم العربي الاسلامي الى خزائنهم ٠ كما سعوا لتفسير واصلاح ما تُرجم منها سابقاً ٠ فقد جاء في كتاب ابن جلجل (طبقات الأطباء والحكماء) أن كتاب ديسقوريدس في الأعشاب قد ترجم في بغداد أيام الخليفة جعفر المتوكل ، من اليونانية الى العربية ، على يد الطبيب اسطفان بن باسيل ٠ وقد وردت نسخة الى الأندلس ، من الترجمة المذكورة ، وفيها نقص كبير ، وذلك في عهد الخليفة الأموي عبدالرحمن الناصر ، الذي عُرف بين ملوك الدنيا برغبته في العلوم ٠ فكانوا يهدونه الكتب ٠ وقد أهداه (أرمانيوس) ملك القسطنطينية هدايا من بينها كتاب (ديوسقوريدس) ، مصورة فيه بالألوان بعض النباتات الطبية ٠ ولما لم يكن في ذلك الحين في قرطبة من يقرأ الخط اليوناني فقد طلب عبدالرحمن من أرمانيوس أن يبعث اليه برجل يحسن اليونانية واللاتينية ، ليقوم بشرح وتفسير ما غمض من أسماء ومصطلحات وردت في هذا الكتاب ٠ فأرسل اليه راهباً اسمه نقولا ، فاشترك مع عدد من أطباء الأندلس ، بينهم محمد المعروف بالشجار ، وأبو عثمان الجزار ، ومحمد بن سعيد الطبيب ، وعبدالرحمن بن اسحق ، وأبو عبدالله الصقلي ٠٠ فصحح هؤلاء ببحوثهم بعض أسماء العقاقير الواردة في ترجمة الكتاب ، كما صححوا النطق بأسمائها ٠

لقد نشأ في الأندلس مدرسة لترجمة العلوم من اللاتينية الى العربية ، فأنجبت عدداً من العلماء ، أغنى بعضهم ببحوثه علوم الطبيعة والطب والفلاحة وعلم النبات • فجمع الطبيب أحمد بن محمد الغافقي (ت ـ ٥٦٠ هـ) نباتات اسبانيا وافريقيا ، وسمى كلا منها بأسمائها العربية واللاتينية والبربرية ، وكذلك فعل معاصره الشريف الادريسي ••

مرحلة التدوين والتأليف ، وهي ما نعبر عنها بالعصر الذهبي للعلوم عند العرب :

لقد بلغ الطب العربي التقليدي ذروته في القرن العاشر للميلاد ، أي الثالث للهجرة • ويكون بذلك قد سبق الطب الغربي بنهضته بمئات السنين ، ففي البصرة والكوفة وبغداد والقاهرة ودمشق وقرطبة ظهرت بيمارستانات تضم مدارس للطب ، قصدها الراغبون في العلم من كل عرق ولون ودين •

ونحن سنكتفي بذكر ما له بالطب صلة وثيقة ، فقد تعمق المسلمون في دراسة علم وظائف الأعضاء ، وحفظ الصحة ، وعلم العقاقير والأدوية ، وما زال كثير من عقاقيرهم وأدويتهم يستعمل حتى الآن •

لقد عرف المسلمون التخدير بالاسفنجة ، وأقدموا على اجراء عمليات جراحية منوعة ومبتكرة ، فكان النجاح حليفهم في حسن نتائجها • وكانت الرسومات الطبية ، لبعض أعضاء وأجهزة الانسان تزيّن مؤلفاتهم أحياناً • واكتشف الكيميائيون من المسلمين مركبات كثيرة هامة أشهرها الكحول ، وأنواع الزاج ، وأزوتات الفضة ، والسليماني الأكال ، كما اكتشفوا عدة حوامض منها حامض الخل ، وحامض الكبريت وروح الملح بالاضافة الى عدد كبير من العطور والأملاح والأصبغة • وعرفوا استخراج السكر والنشاء وأنواع الزيوت •

ان أهم ما يميز العصر الذهبي للطب العربي هو انشاء البيمارستانات وتأليف الأقرباذنيات والموسوعات ، وتأسيس نظام الحسبة ، وسنكتفي بالكلام عن بعض ما ظهر من الموسوعات خلال هذا العصر •

أولا ـ كتاب فردوس الحكمة لعلي بن سهل رابن الطبري :

وهو أول كتاب منظم على شكل موسوعة يضم علوم الطب ، ظهر باللغة العربية ، وقد استفاد مؤلفه من المراجع السريانية والاغريقية والهندية ، دون الرجوع على ما يبدو الى ترجمات حنين • واشتمل عمله على أبواب في المبادىء العامة الكونية وفروع الطب • وأفرز قسماً خاصاً بالطب الهندي وبهذين العالمين الكندي والطبري بدأ عهد التأليف العربي المستقل •

في هذه الفترة ، كان أهم ما في التراث الطبي من العالم قد نقل الى لغتنا العربية • نعم •• في ذلك الوقت وعلى الأساس الذي أرساه الطبري من ناحية وحنين من الناحية الأخرى بدأ الطب الاسلامي في الازدهار وسرعان ما ظهر محمد بن زكريا الرازي الذي يعتبره الباحثون شيخ الأطباء المسلمين وخاصة من الناحيتين التجريبية والسريرية في الطب •

ولد الرازي في الري ، وبدأ تعليمه في هذه المدينة واتجه الى الكيمياء في مستهل حياته ، ولم يتحول الى الطب الا في فترة متأخرة • ثم جاء الى بغداد حيث كان على رأس المستشفى الرئيسي فيها ، وأخيراً عاد الى الري حيث مات سنة (٣١٣/٩٢٥ م) • ومن الصعب أن نتصور صورة تاريخية واضحة في هذه المرحلة من حياته •• ولكننا نقول : لقد كانت له تجربة سريرية واسعة ، وقد درب عدداً كبيراً من الطلاب وكتب كثيراً من المؤلفات وكان متفوقاً في شتى ميادين المعرفة من الفلسفة وعلم النفس الى الكيمياء والطب •

وكان ، اعجاب المؤرخ والعالم الفذ البيروني بكتابات الرازي كبيراً •• حتى انه قضى سنوات عديدة في جمع تلك المؤلفات ، وتسجيلها في فهرس خاص ، وقد بلغ مجموع هذه المؤلفات /١٨٤/ مؤلفاً تختص بالطب والموضوعات المتصلة به •• واهم هذه المؤلفات الموسوعة الضخمة (الحاوي) وهذا الكتاب الموسوعة ذاع صيته في الشرق والغرب وهو يقوم على ملاحظات الرازي اليومية في فحص مرضاه وعلاجهم •• ويعتبر ذخراً ثميناً من ناحية الملاحظة والتجربة أكثر من الطب النظري • ومن كتب الرازي الأخرى « كتاب المنصوري » وكتاب « تقسيم العلل » وكتاب « الفاخر » ولعل أكثر مؤلفاته ذيوعاً رسالته في « الجدري والحصبة » ، وقد ترجمت الى اللاتينية •

ان كتب الرازي تشمل كل فروع الطب • وهذا الرجل الذي كان يعتبر نفسه نداً لأفلاطون وأرسطو ، جمع بين التراث الطبي القديم ، وبين قدرته الشخصية على الملاحظة والاستنتاج للكشف عن العديد من الامراض ولابتداع وسائل حديثة في ميدان الطب التقليدي • فهو يمثل بحق قمة شامخة في الطب الاسلامي • وان أثره في العالم الاسلامي وفي الغرب في فروع الطب كافة ليفوق كل تقدير وشهرته منذ ألف سنة مضت لهي خير دليل على الأثر الذي تركه في تاريخ الطب الاسلامي بخاصة وفي الطب العالمي بعامة •

وقد خلف الرازي **أبو نصر الفارابي ذلك الفيلسوف الكبير** ، ولكن اهتمامه بالطب لم يبلغ درجة سلفه ، ومع ذلك فقد أبدى بعض الآراء في الطب •• وخاصة في طرقه ومبادئه ، بل روي أنه زاول الطب حين كان في حلب ودمشق •

وهنالك **علي بن عباس المجوسي** ، ألّف كتاب « كامل الصناعة الطبية » ، وكان يقول: ان العلم بصناعة الطب أفضل العلوم وأعظمها قدراً وأجلها خطراً ، وأكثرها منفعة لحاجة جميع الناس اليها • وكان علي هذا مديراً لمارستان عضد الدولة الشهير في بغداد ، وقد دل كتابه ذلك على معرفة واسعة ليست مكتسبة من قراءة الكتب وحسب ، بل هي نتيجة تجربة شخصية واسعة ••

ثم جاء ابن سينا الشيخ الرئيس : وهو من أذكياء العالم ، وكان يفضل الأطباء بأنه فيلسوف ، ويفضل الفلاسفة بأنه طبيب ممتاز •• وقد أنزله دانتي في منزلة بين أبقراط وجالينوس ، حفظ ابن سينا القرآن أولاً ، والأدب العربي ثانياً ، وتعلم الفلسفة اليونانية والعلوم الطبيعية • ثم تابع المطالعة حتى برع في الرياضيات ثم بالطب ، وهو ما يزال في سن السادسة عشرة من عمره • تقول المستشرقة (مدام جواشون) : انه حينما بلغ

ابن سينا السادسة عشرة كان طبيباً معروفاً وقد ملأ اسمه الآفاق مما جعل سلطان بخارى يستدعيه لمعالجته • وفعلاً فقد شفي السلطان على يديه•• فأكرمه بأن وضع مكتبته الضخمة بين يديه ، حيث أخذ يعب العلم من هذه المكتبة •

– بلغ عدد مؤلفاته أكثر من /١٦٠/ كتاباً ، فيها سبعة عشر كتاباً في موضوع الطب ومن أهمها **كتاب القانون** الذي ترجم الى اللاتينية، وأصبح مرجعاً هاماً للدراسات الطبية في أوروبا وقد كان يدرّس هذا الكتاب في جامعتي فيينا وفرانكفورت طوال القرن السادس عشر • كما بقي يدرّس في جامعتي مونبليه ولوفان حتى منتصف القرن السابع عشر • وقد ترجم الكتاب الى لغات مختلفة فتداوله الاسرائيليون المشتغلون بالطب بين أرجاء العالم بأسره • وقد تعددت طبعاته حتى قاربت الأربعين طبعة • في الوقت الذي كان فيه الطب خاضعا لسلطان السحر والشعوذة والتدجيل (في أوروبا) وكان ابن سينا يفصل به طبّه وفلسفته فصلاً علمياً دقيقاً في موضوعي الفحص والمعالجة اذ يحاول أن يصل مع مرضاه الى علاج نفسي ، فاذا لم يتمكن من ذلك حاول أن يستعين بالأدوية • ولقد قضى ابن سينا جلّ حياته في البحث العلمي • ووفّق الى ادخال التصحيحات على ما جاء في طب الأقدمين حول عوارض الفالج ، وامراض الكبد ، والصدر وعلاقة بعض الأمراض بغيرها • كما أنه اكتشف مرض التهاب السحايا ، وقد ذكر الدودة الشمسية (الأنكلوستوما) في مؤلفاته ووضع حدوداً لآلام الأعصاب بعد ملاحظتها ، واجراء تجارب عليها • ولقد توصل ابن سينا في ملاحظاته الى أن الحصبة أكثر ما تنتشر عدواها في الربيع والخريف • كما كان ابن سينا شاعراً ، وله قصيدة من أروع القصائد في وصف النفس :

هبطت اليك من المحل الأرفع ورقاء ذات تعزز وتمنع

محجوبة عن كل مقلة عارف وهي التي سفرت ولم تتبرقع

كان ابن سينا متعاظماً ، معتدّاً بنفسه، طموحاً متعالياً ، لذلك فكانت حياته سلسلة من الأحداث والاضطرابات، كان كتابه القانون موسوعة طبية جامعة ، لكل العلوم الطبية المدونة • وقد حوى هذا الكتاب على ما يقارب المليون كلمة ، ومما يقول في الأرجوزة :

وكل طعام يعجز السن مضغه فلا تبتغيه فهو شر المطاعم

ولا تتعرض للدواء وشربه مدى الدهر الا في احتمال العظائم

ولا تحبس الفضلات عند اقتضائها ولو كنت بين المرهفات الصوارم

وكن مستحماً كل يومين مرةً وحافظ على هذي الخلال وداوم

ذلك ابن سينا الذي سجل في الخالدين لقوله :

(لأجعلن الزمن أحب الى أهله من النسيم)• ونحن لو فكرنا ملياً في هذا القول الرائع لعرفنا مبلغ الدرجة الانسانية الرفيعة التي ارتقى اليها الطب الاسلامي • وأين هذه الكلمة من أولئك المشرعين الذين نادوا بقتل (المرضى المزمنين) باسم الانسانية • أين هذا

القول من أولئك الذين نادوا في برلمانات الغرب بأن تتخلص البشرية منهم !! باسم القتل الرحيم ٠

ولكنه النور الذي ملأ الأرجاء ، ولكنه الايمان الذي عمر القلوب ٠٠
وبعدئذ هل ننسى الطب في الأندلس ٠ هل ننسى العلوم في فردوسنا المفقود ٠٠

كان أول من **أنجبتهم قرطبة الزهراوي**٠٠ الذي يعتبر أعظم جراح في تاريخ الطب الاسلامي وقد كتب « كتاب التصريف » وهو موسوعة علمية ، كانت دليلاً للجراحين في أوربا حتى عصر النهضة ٠ اذ قدم وصفاً دقيقاً فيها عن أدوات الجراحة في الطب ، وقد ضم الكتاب ثلاثة أجزاء أولها في الكي ، كما يشيربه الطب النبوي ، ويقترحه الزهراوي لعلاج الصرع ، والثاني في العمليات التي تجري بالمشرط ، وعمليات العيون والفم ، والثالث : في أنواع العظام وخلعها ثم في التوليد ٠

وفي الأندلس أيضاً نبغ الطبيب العربي ابن زهر ٠

ذكر ابن خلكان في وفيات الأعيان : ان ابن زهر كان من أهل بيت كلهم علماء ورؤساء ووزراء ٠ نالوا المراتب العليا عند الملوك ، ونفذت أوامرهم ٠٠ كان يحفظ شعر ذي الرمة ، وهو ثلث لغة العرب ـ وقد أوصى أنه اذا مات تكتب على قبره هذه الأبيات وفيها اشارة الى طبّه ومعالجته للناس :

تأمل بحقك يا واقفا ولاحظ مكانا دفعنا اليه
تراب الضريح على وجنتي كأني لم أمش يوما عليه
اداوي الأنام حذار المنون وها أنا قد صرت رهنا لديه

أما المؤرخ المعاصر فؤاد أفرام البستاني فقد ذكره في دائرة معارفه فقال : ان شهرة ابن زهر تقوم اضافة الى طبّه في شعره ٠ ولاسيما في موشحاته المبتكرة التي كان فيها من المقدمين في هذا الفن الجديد ٠ وقد جمع الى ثقافته الطبية ثقافة لغوية أدبية ٠

ويقول الدكتور الأستاذ أحمد شوكت الشطي في كتابه « اللب في الاسلام والطب » : بنو زهر اسم يطلق على أفراد من أسرة من علماء الطب في الأندلس منهم : أبو مروان ابن زهر طبيب وفقيه ، وأبو العلاء بن زهر بن مروان طبيب اشتهر بحسن التشخيص ، ومنهم أبو مروان بن أبي العلاء ، ولد في اشبيلية ، اعتبره ابن رشد أعظم طبيب بعد جالينوس ، وله اختراعات في علم الجراحة ٠٠ ومنهم أبو بكر بن أبي العلاء ، برع في الطب وله كتاب في « طب العين » ٠

لقد كانت « قرطبة » منارة العلم والعرفان ٠٠ ذاع صيتها في الآفاق ، وقد بلغ من ارتفاع شأنها أن حكام ليون ونافار وبرشلونة كانوا يقصدون اليها ، كلما احتاجوا الى طبيب أو جراح أو مهندس ، وذلك ما حدث مع/طوطا/ ملكة نافار فقد أوفدت بولدها سانكا البدين لتعالجه من السمنة على أيدي أطباء قرطبة ٠٠ ثم هل ننسى جامعة قرطبة التي بلغ عدد المنتسبين اليها بضعة آلاف من الطلاب ٠ وأصبحت شهادتها سبيلاً الى الوصول الى

أسمى المراتب ، وأرفع المناصب • وكانت النساء شقائق الرجال في اقتحام الحقول العلمية، فاشتهر منهن في الأدب والطب عدد كبير • ثم هناك جامعة غرناطة التي أسسها يوسف أبو الحجاج (سابع سلاطين بني نصر ١٢٣٣ ـ ١٢٥٤) وقد وضعت في مداخل هذه الجامعة تماثيل أسود من الحجر كأنما تحرسها ، وكان لهذه الجامعة ، جامعة غرناطة ، فروع ومعاهد تدرس فيها علوم الطب والكيمياء والفلك والفقه والدين ، وهناك قول مألوف كان ينقش غالباً فوق أبواب هذه المعاهد وهو أن العالم يقوم على أربعة أمور :

ـ علم الحكماء ، وعدل العظماء ، ودعاء الصلحاء ، وشجاعة الشجعان •

أما قرطبة فقد تفردت بأنها كانت في مقدمة أسواق الكتب في الأندلس • وكان اقتناء الكتب آنذاك سبيل المنافسة بين الناس ، ولا بأس أن نورد هذه الحادثة للاستئناس : قال الحضرمي : أقمت بقرطبة ولازمت سوق كتبها مدة أترقب وقوع كتاب كان لي بطلبه اعتناء الى أن وقع وهو بخط جيد ، ففرحت به أشد الفرح فجعلت أزيد في ثمنه فيرجع اليَّ المنادي بالزيادة علي ، الى أن بلغ فوق حده ، فقلت له : يا هذا أرني من يزيد في هذا الكتاب حتى بلغ الى ما لا يساوي •••

قال : فأراني شخصاً عليه لباس رياسة فدنوت منه وقلت له : أعزَّ الله سيدنا ان كان لك غرض في هذا الكتاب تركته لك ، فقد بلغت به الزيادة بيننا فوق حده ، فقال لي : لا ادري ما فيه ولكن أقمت خزانة كتب واحتفلت فيها لأتجمل بها بين أعيان البلد ، وبقي فيها موضع يسع هذا الكتاب ، فلما رأيته حسن الخط جيد التجليد استحسنته ولم أبال بما أزيد فيه ، والحمد لله على ما أنعم به من الرزق فهو كثير •• (!!)

ذلك غيض من فيض •• أو قطرة من بحر ولو نقلنا اليكم ما قاله الأوربيون في تراثنا الطبي العربي الاسلامي لأطلنا ••ولكننا نريد أن نترك ذلك للدارسين والباحثين ••

ترى ماذا حلَّ بتلك المؤلفات جميعاً ؟؟ نعم لم يصلنا منها الا القليل القليل فلقد ارتكب أعداء الانسانية جرائمهم في كل مكان••وهل هناك أفظع مما ارتكبه التتار في بغداد ، حيث أحرقوا ما في بغداد من كتب وألقوا في نهر دجلة ما ألقوه •• وفي غرناطة أو لم يصادر « كسيمنس » كتبنا الخالدة ويرتكب بحقها وحق العلم والانسانية جريمة كبرى تحاكي جريمة التتار في بغداد • فقد جمعها في أكوام في ساحات غرناطة وأشعل فيها النار ••

لقد أفل نجم العرب حينئذ فبهت نور العلم ثم زال وعمَّ الدنيا الظلام •

واليوم ماذا يمكن أن نقول هل نعرف نحن العرب مكانة علمائنا•• هل نعرف قدرهم ومنزلتهم هل نهتم بهم مثلما يهتم بهم غيرنا على الأقل • ماذا فعلنا من أجلهم ، ان معاهدنا وجامعاتنا مقصرة في هذا المجال • ليس يكفي أن نذكرهم كلما مرت مناسبة ، أو انقضى من الأعوام ألف • ليس يكفي أن نكتب عنهم :وتقول أنظروا ماذا فعل أجدادنا وتأملوا حسن صنيعهم • فالبشرية كلها تعترف بجميلهم وتحيي مجدهم •

وعلماء المشرق والمغرب يقدرون ويحترمون، في الغابر والحاضر ، يقتدون ويترسمون خطواتهم في كل سبيل ..

اذاً نحن بحاجة الى اهتمام دائم بتراثنا، نحن بحاجة الى النظر فيه باستمرار ونشره وإحيائه .وأن تتسلمه أيد أمينة مخلصة ، أيدٍ مؤمنة صادقة تخاف الله وتؤمن به وتعمل في سبيله . أيدٍ نظيفة لم تلوّثها نزعات الهوى .ولا زيغ القلوب والضمائر، أيدٍ تعمل بصدق، وتكتب بصدق ، وتبحث بصدق ، وتسعى دائماً الى الصدق .

آخر ما قرأته لكم هذه النادرة التي تدل على مجدنا العلمي المبكر .. كان ذلك في نهاية القرن الثاني الهجري . فقد انصرف عبدالله بن غانم يوماً من الجامع الأعظم بالقيروان ، بعد صلاة الجمعة . فدخل عليه بعض أصحابه، فسأله ابن غانم ؟ هل حضرت الجامع ؟

قال : نعم .

قال ابن غانم : كيف رأيت ؟

قال : رأيت أصلحك الله ، سبعين قلنسوة تصلح للقضاء ، وثلاثمائة قلنسوة عالم ...
فتوجع ابن غانم وقال متأسفاً :

مات الناس يا أبا الحسن !؟

اسأل الباحثين اليوم .. هل زاروا جامعاتنا ؟ وكيف رأوا الناس هناك ؟.

نعم .. ان الجواب سيكون مؤسفاً لو عرف آباؤنا الأولون في رموسهم هذا لأنكروا ذلك ... فالى الله نضرع أن يفتح لنا في تاريخنا المعاصر صفحة جديدة مطرزة بالمجد والكرامة والعزة لعل أجيالنا تكمل رسالة العلم والحياة والحضارة في ربوع العالم .

وجدير بمن كان ماضيه حرياً بالاعجاب والتقدير أن يصل الحاضر بالماضي ليسير في الركب لأن ركب الحضارة يسير حثيثاً مستنداً الى أصالة نبيلة والى ماضٍ مجيد يزيده علماً وعملاً وطموحاً وأملا ...

* * *

الحرف العربي
بين الأصالة والحداثة

حسن عبّاس*

أولا ـ تمهيد وتوضيح :

لي دراسة لغوية موسعة أنجزتها ولمّا تنشر بعد تحمل عنوان « الحرف العربي والشخصية العربية » ، قد تناولت في هذا المقال بعضاً من مسائلها مما يدور حول أصالة الحرف وحداثته ٠

ولكن قبل أن أتحدث عن (الأصالة والحداثة) في الحرف العربي أرى أن ألقي أولا بعض الأضواء حول تعامل الناس معهما ، كيما أضع مفهوم كل منهما في اطاره (الثقافي ــ الاجتماعي) العام ٠

فالعلاقة بين (الأصالة والحداثة) قد تعرضت عندنا ولا تزال تتعرض للمزيد من النقاش والجدل على شتى الأصعدة وفي مختلف المجالات الثقافية والاجتماعية، سواء في الشعر أو اللغة أو العادات والمعتقدات والتقاليد٠٠٠

فما أكثر الأقلام والألسن الواعية وغير الواعية ، التي تصدت لهذه العلاقة بينهما باعتبارها مشكلة الانسان العربي المعاصر ٠ ومع التسليم بأنها كذلك ، فهي ليست وليدة عصرنا هذا وان كانت بالفعل من أهم قضايانا المصيرية وأخطرها ٠

فموقفنا نحن من الأصالة والحداثة انما هو كموقف شعوب العالم منهما على مر التاريخ ٠ فكل ظاهرة تطور في أي من المجالات الثقافية أو الاجتماعية أو العلمية ، كانت في كل مكان وزمان هي بالذات موضوع خلاف ومثار جدل بين أصحاب (الأصالة والحداثة) ، كما كانت أيضاً محرضاً على النزاع بينهما في شتى المجالات الأخرى ٠

* باحث لغوي من القطر السوري ٠

فالبعض يتمسك بالتراث الموروث باسم الأصالة لأسباب من قوة الاستمرار ، أو الألفة والقداسة أو تحجر الفكر ، أو الحفاظ على المواقع المكتسبة في ظله ، فيتنكر لكل حداثة وتجديد • والبعض الآخر يستعين بالمستجدات الحديثة لزحزحة التراثيين عن مواقعهم زحاماً على المكاسب والمغانم • اختلاف في المواقف كان من ضحاياه المستضعفون من أصحاب الحداثة والأصالة على حد سواء •

على أن البعض الثالث من المستنيرين الاحرار ، كان يصالح بين الأصالة والحداثة في معادلة ذكية تجمع بين محاسنهما وتستبعد شوائبهما سلماً أو حرباً • ومن معادلة الى أخرى أذكى وأشمل في شتى المعارف والعقائد والعلوم ، أوجدوا عصراً متطوراً مستنيراً أبعد عصر • وهكذا الأمر حتى انتهينا اليوم الى هذا الوعي المعاصر المتماسك اللامحدود ، محصلة محاولات موفقة لا حصر لها من التصالح والتآخي بينهما في شتى المجالات ، مما يشير الى وحدة الوعي في الوجود •

ولذلك فان أصحاب (الأصالة والحداثة) في أي مجال ، اذا لم يعتمدوا ما توصل اليه الوعي المعاصر في شتى القطاعات الاجتماعية والثقافية والعلمية ، تظل بحوثهم ومواقفهم قاصرة بمسافة ما يبتعدون عنه غفلة أو تغافلاً • وبالمقابل ، فانهم بمقدار ما يعتمدون هذا الوعي ، تتاح لهم الفرص المواتية كيما يكشفوا عن جذور (الأصالة) أعمق وأصدق ، ويلائموا بينها وبين (الحداثة) على الواقع الراهن بما هو أشمل وأحكم •

فالمآخذ التي تعرضت لها دراسات أصحاب (الأصالة والحداثة) في الحرف العربي مثلاً ، تعود الى عدم اعتمادهم ما استجد من العلوم التاريخية والأثرية والصوتية والجمالية والنفسية والفلكية والجيولوجية • وما أبرىء دراستي من هذا المطعن ذاته •

فبين الأصالة والحداثة حوار أبدي ، هو حصاد حيوية وعصارة جهد ومحرض تطور ومخاض ولادة ، لولاه لبهتت الحياة وتاهت : رتابة قديم لا جديد له ، وانفلات حديث بلا ضوابط •

فالأصالة فيما أرى ، ليست قديم أمسنا ولو كان من تراثنا العريق ، وانما هي ما قبل قبله نتخذ منه سلماً للعودة بنا الى أصول أصالته ، الى يوم استجاب الانسان العربي به عفو فطرته السوية للتحديات البيئية والانسانية التي اعترضته في مسيرته الحياتية ، مرحلة متطورة بعد مرحلة ، معتمدين في رحلتنا الطويلة هذه ما يتاح لنا من شتى المعارف والعلوم •

كما أن الحداثة ليست جديد يومنا مما يتعارض مع قديم أمسنا ، ولو اعتراه البلى • وانما هي وعي جديد للأصالة ، وصياغة مثلى لها في عملية ابداع تتلاءم مع واقع كل مرحلة متطورة من مراحلنا في شتى المجالات •

وهكذا فالحداثة ، هي وعي متطور من نسيج الأصالة نوظفه فيما يلائم واقعنا سداً لحاجاتنا ، تتصالح فيه متطلبات الحرية مع شروط الالتزام • فلا تجتث الحداثة جذورنا

التراثية ، فنضيّع هويتنا ونفقد مقومات شخصيتنا ، ونصبح ريشة باهتة في مهب الأعاصير • ولا يعيق التراث حركة تطورنا الانساني وتقدمنا الحضاري ، فيسحقنا تطور الآخرين وتقدمهم •

ولذلك لا بد أن نقيم حواراً هادئاً نزيهاً بين الأصالة والحداثة في شؤوننا (الثقافية والاجتماعية) تراعى فيه القيم الجمالية والانسانية ، فتتحرر الأصالة في ميادينه من شوائبها ، ومما انتابها في عصور انحطاطنا من الترهل والجمود • وبذلك تستعيد الأصالة نضارتها في قوام حضاري غض رشيق • كما أن الحداثة تزهو مع هذا الحوار وتزدهر في رعاية الأصالة، برصانة تحميها من الميوعة والانحلال ، وبضوابط تقيها من الانحراف والشطط •

ثانياً ـ واذن ماذا عن أصالة الحرف العربي وحداثته ؟

١ ـ حول أصالة الحرف العربي :

أخذاً بما عرضته آنفاً عن المفهوم العام للأصالة يمكنني تعريف أصالة الحرف العربي بما يلي :

تتجلى هذه الأصالة أولاً في الخصائص الفطرية التي اكتسبها الحرف العربي عبر مسيرته مع الانسان العربي منذ نشأتهما الاولى قبل التاريخ في الجزيرة العربية • فظلا يتفاعلان هناك مع بعضهما البعض ومع الطبيعة والمجتمع والحس والنفس مرحلة حياة متطورة بعد مرحلة ، الى أن استوفيا شروط نضجهما شعراً وبطولة في العصر الجاهلي ، وفصاحة وبلاغة وقيماً مثلى في القرآن الكريم •

كما تتجلى هذه الأصالة ثانياً ، في أن الخصائص الفطريه للحرف العربي لا تزال عالقة به حتى يومنا هذا ، فكان المعنى التراثي للكلمة العربية المعاصرة هو محصلة خصائص الأحرف التي تشارك في تركيبها •

وهكذا فان أصالة الكلمة العربية مرتبطة بأصالة الحرف العربي • هو الأصل وهي الفرع • فلولا أصالته لانعدمت فطرتها • ولكن لو لم تحافظ هي على فطرتها لضاعت أصالته ، كما وقع للكلمة وأحرفها في اللغات الأجنبية •

ولكن علماء العربية القدامى والمحدثين ممن قالوا بفطرية اللغة العربية قد تعاملوا جميعاً مع الحرف العربي بصورة مباشرة أو غير مباشرة على أنه هو الفرع والكلمة العربية هي الأصل • لا يجرح حكمي هذا أن قال بعضهم بأن الحرف العربي هو أصل العربية، مثل (العلايلي) وغيره • ولكن القول شيء والتعامل شيء آخر • فبدل أن يسعوا الى استخلاص معاني الكلمة العربية بالرجوع الى خصائص أحرفها ، حاول معظمهم استخلاص معاني الحرف العربي بالرجوع الى معاني بعض الكلمات التي يتصدرها ، وقليل من لجأ منهم الى التي يقع الحرف في آخرها • (محمد عنبر) ونظريته جدلية الحرف العربي(١) •

ولما كانت خصائص كل حرف تتغير وفقاً لطريقة النطق بصوته : مشدداً عليه ومفخماً في أول الكلمات أو مرققاً ومنغماً ومخففاً في نهايتها ، أو بين بين في وسطها ، فقد كان

لا بـد أن تغيب عنهـم جميعاً ، ليس معظـم الخصائص الفطرية للحروف العربية فحسب، وانما معظم معانيهـا أيضاً • فتعـذر عليهم بذلك الكشف عـن أصالة الحرف العـربي في خصائصه، ليتعذر عليهم أيضاً استخلاص معاني الكلمات العربية بالرجوع الى معاني حروفها. ولئن أصابوا جميعاً في بعض الأمثلة المختارة التي ضربوها ، فلقد أخطأوا جميعاً في بعضها الآخر • (كما سيأتي في مقال لاحق بشيء من التفصيـل) •

وهكذا فان اعتبار الكلمـة العربيـة هي الأصل والحرف فرعاً منها قد اخذ بمعظم علماء العربية القائلين بفطرتها الى البحث أولاً عن معانيـه ، وليس عـن خصائصه • فكان هذا الاعتبار هو العقبة الاولى في طريقهم الى أصالة الحرف العربي وحداثته • هـذا مـع الاشارة الى أن الكثير منهم لم يعنَ باستخلاص معاني الحروف العربية • كما أن بعضهم حاول استخلاص خصائص بعض الحروف بالرجوع الى صـدى صوت الحـرف في النفس ، مثـل (ابن جني والأرسوزي) • ولكنهم لم يلاحقوا تأثير خصائص الحرف في معاني جميع الكلمات التي يشارك في تراكيبها للكشف عن معانيه ، فغابت عنهم معظم خصائصه ومعظم معانيه •

ولكن قبـل أن يتشعب الحديث بنـا عن هذه العقبات ، أرى مـن المفيد أن أبدأ أولاً بتعريف حـداثة الحرف العربي •

٢ ـ فماذا عـن حـداثتـه ؟

تتجلى حداثة الحرف العربي في الأمور التاليـة :

أ ـ استخدام خصائصه الفطرية لتحديد المعنى الفطري للكلمة العربية التي يشارك في تركيبها ، وهو حسي في الأصل قد تفرع منـه المعنى المجرد لعلاقـة معنوية بينهما ، كما في : « الشرف من الشرفة ، والصلاة من الصلة ، والعقل مـن العقال •• » الى آلاف الأمثلة •

ب ـ الاحتكـام الى خصائص الحـروف العربية في كل خلاف وقع أو يقع حول معاني أي مفردة عربية وحول أصـول استعمالاتها ، سواء في المعـاجم اللغويـة ، أو في قطـاعات (حروف المعـاني والضمائر وأسماء الاشارة وما اليهـا) •

ج ـ ابداع ما نحتاجه من الكلمات للتعبير عن المعاني العصرية المستجدة في شتى المعارف والعلوم بمـا يتوافق مـع خصائص أحرفها حفاظاً على أصالتها ، مع أخذ دلالة موازين الكلمات بعين الاعتبار •

د ـ تصحيح الكلمة المصحفة باعادة الحرف الذي بدل منها بما يتوافق مع معناها الفطري •

وما أحسبني مبالغاً ولا مغالياً لو قلت ان خصائص الحروف العربية هي الحارس القوي الأمين الذي حمى ويحمي أصالة اللغة العربية من كل هجانة واصطلاح ، ومن كل غزو ثقافي مضاد • ولقد بلغ القرآن الكريم قمة البلاغة والفصاحة في تعامله مـع خصائص الحروف العربية الفطرية ، ليس تعبيراً عـن معانيـه فحسب ، وانما توضيحاً لقيمه أيضاً ، مما لم نجـد له مثيلاً في شعر أو نثر ، وما لم ينتبه اليـه أحـد حتى الآن • كمـا لحظت ذلك في

استعماله أحرف: النون في (نازع) والخاء في(خاصم) والغين في (غفر) والعين في (عفى) والشين في (شكر) والحاء في (حمد) ومشتقاتهابما يتوافق مع موحياتها الصوتية ·

ونظراً لأن خصائص الحروف العربية هي المحور الذي تدور حوله مسائل هذا المقال، لا بل وكل مسألة تتعلق بأصالة اللغة العربيةوفطرتها، أرى من المفيد أن أمهد للقارىء بالقاء بعض الأضواء عليها هنا قبل أن ندخل في متاهات العقبات التي وقفت في طريق علماء العربية الى أصالة الحرف العربي وحداثته ·

٣ ـ فماذا عن خصائص الحروف العربية:

ان الحروف العربية من حيث خصائصها، فيما خلصت اليه من دراستي عن (الحرف العربي والشخصية العربية) موزعة بين ثلاث فئات، هي: (الهيجانية والايمائية والايحائية). وهذه الخصائص هي أصول معاني الحروف العربية ·

ولكن كيما نستطيع اكتشاف كل حرف من كل فئة منها، لا بد من النطق بصوته مفخماً وبشيء من التأني، فتتضخم بذلك خصائصه الخفية، وتتوضح في سمع القارىء وفي نظره · وذلك على مثال ما نضع الأشياء الدقيقة تحت عدسة المجهر، فتتضح أجزاؤها التي يتعذر رؤيتها بالعين المجردة ·

لم أقتبس هذا التقسيم من أحد · فكان لاكتشافه قصة من نسيج المنطق والمعقولية على الواقع اللغوي بلا استشفافات ولا استشراقات، سأسوقها بشيء من التفصيل في موقعها من هذا المقال:

فماذا عن هذه الفئات؟

أ ـ الأحرف الهيجانية:

هي (الهمزة والألف اللينة والواو والياء) · قد ورثناها عن العهود الغابية التي مرت على الانسان العربي في الجزيرة العربية، وانتهت بنهاية العصر الجليدي الأخير حوالي الألف (١٢) ق.م ·

فالهمزة انفجار صوتي يثير انتباه السامع، فاستعملها العربي في مقدمة معظم أحرف النداء · كما يدل صوتها الانفجاري على الحضور والظهور والبروز، فتصدرت ضمائر المتكلم والمخاطب وما الى ذلك · والألف امتداد صوتي يشير الى فوق · والواو تدافع صوتي يشير الى الأمام والفعالية · والياء حفرة صوتية تشير الى تحت والنسبة ·

وقد استخدم العربي هذه الفئة من الحروف ببراعة فائقة في قطاعات (حروف المعاني والضمائر وأسماء الاشارة ··) بما يتوافق مع خصائصها الهيجانية · ولم الحظ أن أحداً قد أشار الى الخصائص الهيجانية في الحروف العربية سوى (الأرسوزي) · ولكنه أسندها الى أحرف « الخاء في آخ' والنون في أن' والهاء في آه' » ، ·وهي أحرف ايحائية لا هيجانية · أما

(الهمزة والألف) فقد أسند اليهما خاصية الحركة في ضمير المتكلم (أنا) : (المجلد الأول من مؤلفاته الكاملة(٢) ص ٣١١ + ١٥١ + ٢٣٦) • ولنا عودة الى هذا المثال عند الحديث عن الأرسوزي •

ب ـ الأحرف الايمائيـة :

هي (الميم ـ اللام ـ الفاء ـ الثـاء ـ الذال) • وقد ورثناها عـن المرحلة الزراعية التي تلت المرحلة الغابية وانتهت حوالي الألف(٩ ـ ٨) ق.م وكانت الزعامة في هذه المرحلة للمرأة الأم (الزراعة) • قد فرضت عبادتها على الرجل : ربـة للخصوبة تارة ، وربـة للزراعة تارة أخرى• فأبدعت الأصول الحركية لهـذه الأحرف خصيصاً للتعبير عـن حاجاتها الأسروية والمنزلية والمهنية في المرحلة الزراعية•

ولم يهتد أي من علماء العربية وفقهائها الى الخصائص الايمائيـة لهـذه الأحرف التي تتجلى في طريقة النطق بأصواتها • فلم يفيدوا من هذه الخصائص في تحديد معنى أو استعمال أي مفردة عربيـة •

فصوت (الميم) المفخم يبدأ تشكله بضم الشفة على الشفة بشيء مـن التـأني حبساً للنَّفس ، ثم يكتمل بانفراجهما عـن بعضهما البعض • وهاتان الحركتان الايمائيتان تمثلان أحداث (المص والرضاع والحلب والاستخراج من الأشياء المجوفة) • فكان لهذه المعاني (٣٣) مصدراً جذراً تبدأ بهـا عثرت عليها في المعجم الوسيط وهو مرجعي في كل احصاء • فأطلقوا على الأم المرضـع (ما ـ ما) ثم أطلقوها على كل (أم) أمرضعاً كانت أم غير مرضع • وقـد تسربت هذه اللفظة يقيناً الى اللغات الغربية ثم تحولت (ما) الزراعية الى (أم) الفصيحة في المرحلة الشعرية ، تخلصاً مـن (غوغائية) الأحرف الجوفية (ا ـ و ـ ي) (تهذيب المقدمة اللغوية للعلايلي(٣) ـ ص ٥٠ ـ ٥١) •

أما صوت (اللام) المفخم فيبدأ تشكله في المرحلة الأولى بالصاق اللسان بسقف الحنك ، بمـا يضاهي حالات الالتصاق والتماسـك •فكان لهذه المعاني (٨٢) مصدراً تبدأ بها • ثم يكتمل تشكل صوتها بانفراج اللسان عن سقف الحنك • وفي حال تكرار هاتين الحركتين ، فان تلاعب اللسان بصوت (اللام) يضاهي أحداث المضغ واللوك واللحس ومتعلقات الأطعمة • فكان لهذه المعاني (المطبخية) المتعلقة باختصاص المرأة أصلاً (٥٣) مصدراً تبدأ بها • وهـذه المعاني (المطبخية) الفطرية ، أعرق في الزمن مـن معاني التماسك والالصاق الحضارية •

وهكذا الأمر مـع (الفاء) لمعـاني الشق والحفـر والتوسع والانفراج • و (الثـاء) للخصائص الأنثويـة و (الـذال) للخصائص الذكوريـة •

ج ـ الأحرف الايحائيـة :

هي ما بقي من الحروف العربية • قـد ورثناها عـن مرحلة رعوية رائـدة بدأت في الجزيرة العربية منذ الألف (٩ ـ ٨) ق.م تحت زعامـة الرجـل •

تتجلى خصائص هذه الفئة من الحروف في صدى أصواتها في النفس تعبيراً عن معانيها. ولقد انتبه علماء العربية جميعاً ممن قالوا بفطرة اللغة العربية الى الخصائص الايحائية لبعض الحروف، ولكنهم عمموها اعتباطاً على سائر الحروف.

فمما قاله (ابن جني) في توضيح كيفية قيام العربي بابداع كلماته تعبيراً عن معانيه: (حذواً لمسموع الأصوات على محسوس الأحداث). كما قال أيضاً: «سوقاً للحروف على سمت المعنى المقصود والغرض المراد». بمعنى أن العربي كان يصور الأحداث بأصوات الحروف. فيضع الحرف الأول بما يضاهي أول الحدث، ويضع الحرف الثاني بما يضاهي وسطه، والثالث بما يضاهي نهايته. وضرب لذلك أمثلة موفقة في (بحث ـ قدر ـ قطر ـ قتر ـ شد ـ دش) (الخصائص(٤) ج ٢ ص ١٦٢ ـ ١٦٣).

ومما قاله الأرسوزي: ان معنى الحرف هو صدى صوته في الوجدان، (أي النفس).

على أن ما عرضناه آنفاً من تعامل القائلين بفطرة اللغة العربية مع خصائص الحروف الايحائية قد اقتصر على بعض خصائص بعضها في لمح ذكية لا ترقى الى النهج العلمي عمقاً وشمولاً. وذلك لأنهم اعتبروا الكلمة العربية هي الأصل، والحرف العربي فرعاً منها. فكان هذا الاعتبار هو أصل العقبات جميعاً الى (أصالة الحرف العربي وحداثته).

ثالثاً ـ فماذا عن العقبات الى أصالة الحرف العربي وحداثته؟

العقبة الأولى: تبعية الحرف العربي للكلمة العربية:

هي من أهم العقبات وأصلها جميعاً. تتجلى في اعتماد بعض علماء العربية (معاني) الكلمات لاستخلاص معنى الحرف الذي يقع في أولها أو في آخرها، ثم يعتمدونه في تحديد معانيها.

وذلك بدلاً من اعتماد (خصائص) الحروف التي تشارك في تراكيبها لتجديد معانيها بصورة مباشرة. فماذا اذن عن الفروق بين معاني الحرف العربي وخصائصه؟

سأقتصر في حديثي هنا على الخصائص (الصوتية) للحروف العربية التي اهتدى كثير من علماء العربية الى بعضها، تاركاً الحديث عما لم يفطنوا اليه من خصائصها (الهيجانية والأيمائية) الى مناسبة أخرى. ان الخصائص الصوتية لأي حرف هو: «صدى صوته في النفس» كما مرّ بنا. وهذا الصدى يوحي بمعنى معين لا بل وبعدد من المعاني. فصوت (الشين) يوحي بالتفشي والانتشار والجفاف وهكذا (الصاد) للصقل والصفاء والصلابة. و (الزاي) للحدة والاهتزاز والانزلاق و(النون) للرقة والأناقة. فكان لخصائص كل حرف نسبة مئوية ملحوظة من معاني المصادر التي يشارك في تراكيبها.

ولكن علماء العربية القدامى منهم والمحدثين ممن تعاملوا مع معاني الحروف كانوا غالباً ما يستعرضون معاني بعض الكلمات التي يتصدرها حرف معين، وليس كلها كما أسلفنا. فاذا وجدوا أن ثمة رابطة حسية أو معنوية ظاهرة تجمع بينها، اعتبروا هذه الرابطة هي معنى الحرف ذاته. ولكن دون أن يربطوا صراحة بين هذا المعنى وبين خصائصه الصوتية.

فمعظم علماء العربية القدامى والمحدثين، قد لاحظوا رابطة (الغؤور والخفاء الغيبوبة) في معاني الكلمات التي يتصدرها حرف (الغين)، كما في (غرق ـ غاص ـ غاض ـ غطس ـ غرب ـ غاب ـ غطش ـ غبش ـ غلّ ـ غمض ـ غام ـ غفل ـ غدر ـ غبى ٠٠) ٠ فقالوا عن هذه الرابطة من (الغؤور والخفاء والغيبوبة) هي معنى (الغين) ٠ ولكن أحداً منهم لم يسندها صراحة الى خاصية (الغمغمة) في صوتها بمن فيهم (الأرسوزي) ، الذي قال بأن (الغين) للغيبوبة والغموض (المجلد الأول من مؤلفاته الكاملة(٥) ص ٨٧ ـ ٨٨) ٠ فخاصية (الغمغمة) في صوتها توحي فعلاً بالغموض والخفاء ، وبما يتفرع عنهما من معاني الظلام والسواد والغيبوبة الحسية والمعنوية في (٧٦) مصدراً جذراً تبدأ بها لهذه المعاني ٠ ولكنهم لو اعتمدوا خصائصها الصوتية في تقصياتهم عن معانيها ، لعثروا أيضاً على (٢٢) مصدراً جذراً لمعاني (الاضطراب والبعثرة والتخليط) بما يتوافق مع خاصية (الاهتزاز وبعثرة النفس) في صوتها ٠

وهكذا الأمر مع الحروف الأخرى التي استخرجوا بعض معانيها ، من حيث عدم توضيح هذه الرابطة الفطرية بين الخصائص الصوتية للحروف وبين معانيها الا في بعض اللمح الذكية كما في قول (ابن جني) في خصائصه: « في الخاء رخاوة وفي القاف صلابة ٠ فقالوا خضم للرطب وقضم لليابس » (الخصائص(٦) ج ٢ ص ١٥٧) ٠

وعلى كل حال فمن الثابت أن علماء العربية لم يعتمدوا الخصائص الصوتية للحروف العربية (صدى أصواتها في النفس) في تقصياتهم عن معانيها بالرجوع الى معاني الكلمات التي تتصدرها جميعا ٠

وهكذا ، قد خفيت عنهم الرابطة الفطرية التي تجمع بين معاني الكلمات التي يتصدرها حرف معين وهي (حسية) في الغالب ، فلا يبحثون عن معناه في المصادر الأخرى التي يقع في آخرها ووسطها ٠ ويبقى مثل هذا الحرف لديهم وكأنه بلا معنى ، فيهملونه ٠ ما شذ عنهم سوى (العلايلي) الذي اتبع نهجاً خاصاً شديد التعقيد كان محفوفاً بالمزالق والمخاطر، بمعرض قيامه بتحديد معاني الحروف العربية جميعاً ولكن بالرجوع الى (النصوص المحفوظة)، وليس الى خصائصها الصوتية فأصاب حيناً وجانبته الدقة أحياناً ٠ وبذلك تبقى الكلمة العربية لدى (العلايلي) في التعامل كما لدى غيره ، هي الأصل والحرف العربي هو الفرع ٠

وهكذا ، فان انصراف علماء العربية وأساتذتها عن الخصائص الصوتية للحروف العربية يعود الى معالجتهم مسألة أصالة الحرف العربي في ظل الكلمة العربية ، باعتبارها هي الأصل ، وهو الفرع حتى الأرسوزي الذي ابتكر التعريف الفلسفي ـ النفسي لمعنى الحرف العربي بأنه : « هو صدى صوته في الوجدان » قال « الكلمة هي ملكوتي » (المجلد الأول ص٩) ٠ ولم يستطع هو ولا غيره الافلات من هذا الملكوت ٠ وهذا ما حال دون اهتدائهم الى خصائص الحروف العربية ومعانيها جميعا ٠

فكيف تجاوزت هذه العقبة ؟

لقد اعتبرت الحرف العربي هو الأصل والكلمة العربية هي الفرع • فهو الأقدم منها بآلاف الأعوام ، ان لم أقل بمئات ألوفها • كما اعتبرت خصائص الحرف العربي ، تبعاً لذلك هي الأصل ، وان معانيه المستفادة من معاني الكلمات التي يشارك في تراكيبها هي الفرع •

فكيف تعاملت مع خصائص الحروف العربية ومعانيها ؟

تبسيطاً للحديث ، سأظل هنا مع علماء العربية أيضاً في نطاق الخصائص (الصوتية) للحروف العربية بعيداً عن خصائصها (الهيجانية والايمائية) •

فلو أخذنا (الهاء) وفخمنا صوتها لوجدناه يوحي (بالاهتزاز والاضطراب) ، وهما من خصائصها الصوتية • ولو استعرضنا معاني الكلمات التي تتصدرها لوجدنا أن بعض معانيها قد توافق مع خصائص (الهاء) الصوتية الحسيه في الاهتزاز من (اهتراء وتخريب واهتزاز وقشر وهدم وتهشيم) في (٦٢) مصدراً جذراً لهذه المعاني • أما البعض الآخر منها فقد توافق مع خصائصها الصوتية في الاضطراب ،من « أمراض نفسية واضطرابات عقلية وعيوب أخلاقية وتشوهات جسدية » ، وما الى ذلك من الأصوات والمشاعر الانسانية الرديئة في (١٦٩) مصدراً جذراً تبدأ بها • فكانت (الهاء) بذلك هي (المصح) العقلي في اللغة العربية ، قد أفرد فيه جناح خاص بالتشوهات الجسدية وذلك على مثال ما كانت (الخاء) حاوية قمامة لرديء المعاني وبذيئها وقذرها وفاحشها •

وهكذا الأمر مع (الصاد) لموحيات (الصقل والصفاء والصلابة) كصدى صوت له في النفس • ومع (الراء) لموحيات (الحركة والتكرار والتمفصل) • ومع (القاف) للقوة والمقاومة • ومع (الشين) للتفشي والانتشار والجفاف ، ومع (الطاء) للطراوة والمطاوعة والضخامة •

ولقد قمت بتطبيق هذا النهج على باقي الحروف العربية ، في مسح شامل لها ولجميع المصادر التي تبدأ بكل واحد منها بحثاً عن معانيه الفطرية التي تتوافق مع خصائصه الصوتية وغير الصوتية • فاذا كانت نسبة تأثير خصائص الحرف في معاني الكلمات التي يتصدرها تراوح بين (٥٠ ــ ٩٠) في المئة ،اعتبرت هذه الخصائص هي من معانيه الفطرية الأصلية • وقد يكون له غيرها مما لم أهتد اليه •

ومهما تكن نسبة تأثير خصائص الحرف في معاني الكلمات التي يتصدرها ، فغالباً ما أعمد الى استعراض معاني الكلمات التي يقع في آخرها أو وسطها • وذلك بحثاً عن معانيه الأخرى التي تتوافق مع خصائصه (الصوتية وغير الصوتية) ، والتي لا تظهر الا في تلك المواقع ، كما سيأتي :

ولكن يستحسن بي أن أوضح منذ الآن ماذا أعنيه من مصطلحات : (المصدر الجذر ، أو المصدر ، أو الكلمة ، أو اللفظة) التي استعملها عادة بمعرض الحديث عن معانيها •

فأي مصطلح منها ، قد يكون اسماً أو فعلاً ، أو واحداً من مشتقاتها ، ولكن على أن لا يكـون : مولداً بعد عصـر التدوين ، ولادخيلاً ، ولا مما أقرته المجامع اللغويـة ، ولا عامياً ، ولا اسماً لجماد أو نبات أو حيوان غيرمشتق من فعل • وأن يعتمد من سائر معانيه واستعمالاته ما هو ألصق بالفطرة: حسياً أولاً ومعنوياً ثانياً ، وغالباً ما أكتفي بحسي واحد وذلك كلـه حرصاً شديداً مني على استخراج الخصائص الفطرية البكر للحروف العربيـة وفق ما اعتمدها العربي عنـد ابداع كلماته تعبيراً عن معانيه ، بلا شائبة لاحقة ولا شبهة •

ويطيب لي أن أنقل هنا للقارىء كشفاً عن النسب المئويـة لتاثـير خصائص الحروف العربية (الهيجانية والايمائية والايحائية) في معاني المصادر الجذور التي تبدأ بها أولاً ثم التي تنتهي بها ثانياً ومرجعنا في ذلك المعجم الوسيط •

الباء (٥٣) التاء (٣١ـ٢٣) • الثـاء (٥٤ـ٥٦) الجيـم (٥ر٦٥) الحاء (٥٣ـ٢٥) الخـاء (٨٥ـ٧٦) الدال (٥٨) الذال (٧٠) الـراء (٧٠ـ٦٢) الزاي (٧٣ـ٥٧) السين (٥٦ـ٣٥) الشين (٤٨ـ٨١) الصاد (٨٦ـ١٦) الضاد (٩١ـ٨٦) الطاء (٩٠) الظاء (٩٤ـ٩٥) العين (٨٨ـ٦١) الغين (٧٣ـ٤٢) الفاء (٧٣ـ١٧) القاف (٥٠ـ٦٣) الكاف (٥٠ـ٤٨) اللام (٦٥) الميم (٥١ـ٢٦) النون (٧٦ـ٦٠) الهاء (٩٠ـ٧٩) •

ولقد أمضيت في استخلاص هذه القبضة الصغيرة من الأرقام ثلاثة أعوام ونيف •

وأما (الهمزة والألف والواو والياء) ، وان لم ألحظ أي تأثـير يذكر لهـا في معاني المصادر التي تشارك في تراكيبها ، الا أنها قد فرضت خصائصها (الهيجانية) بصورة خاصة على (حروف المعاني وأسماء الاشارة والكناية والضمائر) ، بمـا منـح شخصياتهـا في هـذا القطاع (الصرفي ـ النحوي) قوة لا يضاهيها في ذلك أي حرف آخر •

وبهذا المسح الشامل لخصائص الحروف العربية ومعانيها قـد تبـين لي أن لكل حرف عدداً من المعاني بحسب مواقعه من المصادر • وذلك لأن خصائصه (الصوتية وغير الصوتية)، تتغير بحسب مواقعه منها •

ولا يضـر (شخصية) الحرف العـربي المتمثلة في خصائصه ، أن تتغير ملامحها بحسب مواقعه من الكلمة • فان ملامـح شخصية كل انسان تتغير أيضاً بحسب مواقعه في مقدمـة الصفوف مـن المجتمع ، أو في آخرهـا أو في الوسط •

وهكـذا فان التباس خصائص الحروف العربيـه بمعانيها تعود الى أن الفكر اللغوي القديم والجديد قد عالج مسألة أصالة الحرف العربي وحداثته في ظل الكلمة العربية الشاعرة المستوفية شروط نضجها باعتبارها هي الأصل وهو الفرع • فكان لا بـد لعلماء العربيـة وأساتذتها أن يتعاملوا مـع الحروف العربية ومعانيها بكثير من المزاجية الشخصية وقليل من الضوابط العلميـة •

أما أنا، فبلجوئي الى الاحصاء الرياضي، بمعرض استخراج معاني المصادر التي تقع الحروف العربية في أوائلها وأواخرها وأواسطها أحياناً ، وبتأمل خصائصها على ألف مهل

من التأني والتروي ، قد ابتعدت عن الخواطر الشاردة والمزاجية الشخصية ، فتجنبت بذلك الكثير من المزالق (السمعية والبصرية والشعورية) ٠

وسيرى القارىء أن هذه العقبة هي أصل العقبتين التاليتين ، لا بل وكل العقبات الثانوية التي حالت بين علماء العربية وأساتذتها ، وبين الاهتداء الى أصالة الحرف العربي (خصائص ومعاني) ومن ثم الى حداثته ٠

العقبة الثانية ــ ظاهرة الفوضى في تدوين اللغة العربية :

لقد ظلت الفصحى العربية بصيغ مفرداتها وقواعد صرفها ونحوها وما اليهما سماعية في معظمها يتداولها أبناؤها الخلّص على سجيتهم عفو الفطرة في بواديهم وحواضرهم على صفحات الذاكرة جيلاً مثقفاً منهم بعد جيل ، وبلا تدوين حتى ما بعد نزول القرآن الكريم ٠

وعندما بدأ اللحن يتسرب الى الفصحى العربية في المجتمع العربي الاسلامي الجديد بفعل الاحتكاك مع شعوب غير عربية ، قام في منتصف القرن الهجري الثاني لفيف من العلماء بتدوين (الحديث والفقه واللغة وقواعد الصرف والنحو) ٠ وذلك ضبطاً لقراءة القرآن الكريم وغيرة على الفصحى العربية من التلاشي والضياع ٠

ولما كان التدوين يتناول أصلاً ما هو غير مدون ، فلقد كان السماع بداهة هو المرجع الرئيس المعتمد في حركة التدوين ٠ ولكن علماء اللغة بصورة خاصة ، حرصاً منهم على سلامة مدوناتهم في شؤون اللغة والصرف والنحو من أي مطعن لحن أو شبهة هجانة ، قد أشترطوا فيمن يجوز السماع منه والأخذ عنه ثلاثة شروط رئيسة :

الشرط الأول :

أن ينتمي الى احدى القبائل التي ظلت مشردة في بواديها وصحاريها ، فلم تحتك بغير الاعراب على مدى تاريخها ٠ فأخذوا كثيراً عن (قيس وتميم وأسد) وقليلاً عن (هذيل وبعض كنانة وبعض الطائيين) فقط ٠

الشرط الثاني :

أن يكون خشناً في جلده جلفاً في مظهره ، لم يعرف حياة الترف ٠

الشرط الثالث :

أن يكون فصيحاً في لسانه ، رجلاً كان أو امرأة ٠ ولا يسمع من أحد ما لم يتوافر فيه الشرطان الأولان ٠ (البلغة في أصول اللغة(٧) ص ١٩٥ ــ ١٩٦) ٠

وكان أول من نهج من علماء العربية النهج (الرياضي) في جمع شتات كلمات اللغة العربية جميعاً من أفواه (أجلاف) الفصحاء ، هو العبقري صاحب الأوزان الشعرية : (الخليل بن أحمد الفراهيدي) في كتابه (معجم العين) ٠ فكان أول معجم عربي وأول معجم

من نوعه في تاريخ اللغات • ثم سار على هذا النهج (أبو بكر محمد بن الحسن الشافعي ٢٢٣ ـ ٣٢١ هـ) في كتابه (الجمهرة) (البلغة(٨) ص ١١٥) وهذا النهج يتلخص فيما يلي:

١ ـ لقد حصر الكلمات العربية بأربعة أوزان هي (الثنائي والثلاثي والرباعي والخماسي)•

٢ ـ ثم أخذ يركب الحروف الهجائية بعضها مع بعض : (مثنى وثلاث ورباع وخماس) • مستنفداً بذلك التراكيب النظرية الممكنة من الأوزان الأربعة • فقيل انها بلغت (١٢,٣٠٥,٤١٢) : (تكوين العقل العربي(٩) لمؤلفه د. أحمد عابد الجابري ص ٨٢)•

٣ ـ ثم راح هو وعلماء اللغة طوال قرن من الزمن يستفسرون من (أجلاف) الفصحاء عن الكلمات الممكنة التي ركبوها نظرياً فيما اذا كانت قد وردت فعلاً على ألسنة العرب، وما هي معاني ما ورد منها •

فمن أين تسربت الفوضى الى حركة التدوين ؟

المنفذ الأول : لقد التزم العلماء في تدوين اللغة العربية نهج (الفراهيدي) بالانطلاق من الامكان الذهني الى الواقعي • فكان تعاملهم مع الحروف الهجائية تعاملاً (رياضياً) بحتاً • وبذلك قد انقلبت عملية التدوين من جمع اللغة المتداولة فعلاً الى عملية (التماس سند واقعي لفرض نظري) من أفواه الفصحاء(الأجلاف) • (المرجع السابق(١٠) ص ٨٣) •

ولئن كانت لا شبهة تذكر حول الكلمات التي وردت في الشعر الجاهلي ، بصورة خاصة، الا أن هذه الشبهة تحوم حول كثير من غرائب الكلم ، مما لم يرد في الشعر • ومما يزيد في الشبهة حول ذلك ، أن فصحاء حضريين من غير (الأجلاف) قد تسربوا الى بوادي الفصحاء (الأجلاف) يتقشفون مثلهم ويخشوشنون كيما يؤخذ عنهم ، وذلك سعياً وراء الشهرة المعنوية أو المكافآت المادية السخية • (تكوين العقل العربي(١١) ص ٨٤) •

ومن هنا بدأ تسرب الفوضى الى لغتنا •

المنفذ الثاني: لقد شملت حركة التدوين أقطار (الحجاز واليمن والشام والعراق) وتمت على أيدي عشرات العلماء من متفرغين وغير متفرغين لهذه المهام نقلاً عن أفواه آلاف (الأجلاف) من الفصحاء طوال قرن كامل من الزمن في رحلات متلاحقة الى البوادي •

« فالكسائي مثلاً يمضي الى أهل البوادي ومعه (٢٥) قنينة حبر، وظل يكتب ما سمعه من أفواههم حتى نفد ما عنده • (رصف المباني في شرح حروف المعاني(١٢) للامام أحمد بن أحمد عبد النور المالقي ص ٥٦) •

وقد نتج عن ذلك أن يكون للكلمة الواحدة ومشتقاتها المزيد من المعاني والاستعمالات. فكان لفعل(حفّ) ومشتقاته في المعجم الوسيط(٤٩) معنى واستعمالاً ، بعضها يتعارض مع بعضها الآخر مما لم نجد له مسوغاً من خصائص حرفي (الحاء والفاء) ومعانيهما • وكان لكل من (لا ـ ما) في (مغني اللبيب للأنصاري) (١٣) أكثر من (٥٠) معنى واستعمالاً •

كما نتج عن ذلك أن يكون للمعنى الواحد المزيد من الكلمات . فكان للأسد (٤٧٠) اسماً وصفة وجاء في (البلغة(١٤) ص ٣١٧)أنها بلغت (٦٠٠) وكان للداهية (٣٥٤) ، وللسيف (٢٣٠) وهكذا الأمر مع كثير من المسميات وحروف المعاني . (قاموس احياء الألفاظ(١٥) لأسامة الطيبي) .

ولئن كان التدوين سماعاً من أفواه (الأجلاف) الفصحاء قد حفظ للغة العربية فطرتها، الا أن هذه الفطرة قد جاءت مبعثرة على مساحات واسعة من الكلمات والمعاني الحسية لا بل ومتوارية أيضاً خلف ستار من التشابيه والكنايات والتوريات والمعاني المجردة . كما كان للتصحيف البصري (الكتابي) والسمعي دورهما أيضاً في هذه الفوضى .

ومن هنا جاءت العقبة الثانية في طريق العلماء الى أصالة الحرف العربي وحداثته .

فلما كانوا اعتبروا الكلمة العربية هي الأصل والحرف العربي هو الفرع ، وحاولوا استخلاص معانيه بالرجوع الى معاني الكلمات التي يقع في أولها أو آخرها ، كما أسلفنا في (العقبة الأولى) .

فلقد كان من المحال عليهم أن يستخلصوا منها معانيه الفطرية جميعاً .

فأي الكلمات هي الجذر الأصل ، وأي معانيها هو الفطري ، وأي استعمالاتها هو الصحيح ، مما يجوز اعتماده في استخلاص المعنى الفطري للحرف العربي بحثاً عن أصالته؟

وانها لمن أعوص المشاكل .

فعلى الرغم من أن علماء العربية وأساتذتها قد لاحظوا العلاقة الفطرية بين معاني الكلمة العربية وبين الخصائص الصوتية لأحرفها منذ عصر التدوين ، الا أن أحداً منهم لم يقم حتى الآن باعتماد خصائص الحرف العربي للتثبت من معانيه الفطرية بالرجوع الى معاني الكلمات التي يتصدرها الا مصادفة أو في أضيق الحدود .

فحتى (الأرسوزي) الذي قال بأن (معنى الحرف العربي هو صدى صوته في النفس) ، وأسند الى (الباء) معاني (البيان والانبثاق والظهور) ، وهي صحيحة ، لتوافقها مع خاصية الانفجار في صوتها ، الا أنه لم يربط بين هذه المعاني وبين هذه الخاصية ، وثمة (٤٧) مصدراً جذراً تبدأ بالباء لهذه المعاني . ولو أنه ربط بينهما لكان بحث أيضاً عما توحيه في النفس خاصية الانفجار في صوتها من معاني (الحفر والبقر والشق والبعج . .) الى (٥٠) مصدراً جذراً آخر لهذه المعاني أيضاً ولكنه لم يفعل، لأنه لم يعتمد خاصية الانفجار في صوتها بمعرض البحث عن معانيها جميعاً .

فكيف تجاوزت هذه العقبة ؟

لئن كان المنهج الذي اتبعه علماء اللغة في عصر التدوين قد أربك المثقف العربي طوال ما بعده من العصور حتى يومنا هذا . وذلك بما ورثنا عنه من كثرة كثيرة في الكلمات للمعنى الواحد ، ومن كثرة كثيرة في المعاني للكلمة الواحدة ومشتقاتها، الا أن هذا المنهج العبقري

الصحيح قد حفظ للغة العربية أصالتهـا وفطرتها من الضياع على مدى التاريخ • كما حفظ أيضاً للشخصية العربية مقوماتها الأصيلة على مدى الثقافات الغازية وتقلبات العصور •

ولكن هذه (الفطرة والأصالة) في اللغة العربية قد أطلق عليها أحد المفكرين العرب المعاصرين مصطلح (لا تاريخية) اللغة العربية، كمأخذ ادانة بحقها ، وليس كميزة من فضيلة وامتياز •

فالدكتور (محمد عابد الجابري) من المغرب الشقيق ، ينعي على اللغة العربية وعلى العقل العربي في كتابه (تكوين العقل العربي)، هذه الأصالة والفطرة• فيقول بالحرف الواحد:

« ••• ان (لا تاريخية) اللغة العربية مثلها مثل طبيعتها الحسية ، ليست فضيلة فيها ولا مكمناً لفلسفة موهومة خاصة بها وبأهلها يجب استخراجها وابراز أصالتها •• كلا ان (لا تاريخية) اللغة العربية وطبيعتها الحسية معطى واقعي تاريخي يجب أن ننظر اليه بعين النقد ، وليس بعين الرضى والمدح ، ان العالم الذي نشأت فيه اللغة العربية ، أو على الأقل جمعت فيه •• (عالم حسي لا تاريخي) عالم البدو من العرب الذين كانوا يعيشون زمناً ممتداً كامتداد الصحراء • زمن التكرار والرتابة، ومكاناً، بل فضاء (طبيعياً وحضارياً وعقلياً) فارغاً هادئاً : (كل شيء فيه صورة حسية ـ بصرية ـ سمعية) • هذا العالم هو كل ما تنقله اللغة العربية الى أصحابها ، اليوم وقبل اليوم ، ويظل هو هو ما دامت هذه اللغة خاضعة لمقاييس عصر التدوين وقيوده(١٦)(ص ٨٦ ـ ٨٧) •

ولنسمعه يقول أيضاً :

« ان الاعرابي هو فعلاً صانع (العالم العربي) ، العالم الذي يعيشه العربي على مستوى الكلمة والعبارة والتصور والخيال • بل على مستوى العقل والقيم والوجدان • ان هذا العالم فقير ضحل جاف ـ حسي ـ طبيعي لا تاريخي ، يعكس ما قبل تاريخ العرب ـ العصر الجاهلي، عصر ماقبل الفتح وتأسيس الدولة (المرجع السابق(١٧) ص ٨٨) •

ان تحامل (الجابري) على أصالة اللغة العربية وفطرتها ، وما استتبع ذلك من تحامله على العقلية العربية والشخصية العربية ، يعود الى بقائه فوق سطح اللغة العربية (الحسي) ، لم ينفذ بوجدانه قيد أنملة واحدة الى أعماق باطنها (الفني الاخلاقي الشعري) أقوم مقومات (الشخصية العربية) • فكان من طبيعة الأمور أن لا يجد في العالم الذي نشأت فيه اللغة العربية الا فضاء (طبيعياً وحضارياً وعقلياً) فارغاً هادئاً كما زعم •• فمن يتعامل مع اللغة العربية بعقله صرفاً بلا وجدان يستشف به، لا يمكن أن يجد فيها سوى الفراغ (اللاتاريخي) مهما يبلغ من المعارف والعلوم العقلية •

وعلى الرغم من ذلك فقد أصاب (الجابري) في قسم من أقواله عن عالم البدو ولغتهم : كل شيء فيه صورة (حسية ـ بصرية ـ سمعية) •

فهذه الشهادة على صحة خصائص اللغة العربية (الحسية ـ البصرية ـ السمعية) من ناقد متحامل وان غابت عن ذهنه خصائصها (الفنية ـ الأخلاقية) ، تثبت أصالة اللغة

العربية وفطرتها وبداءتها وبداوتها · واذن فلا هي هجينة لغات كما يزعم بعض المغرضين، ولا كلماتها مصطلحات على معان كما يرى بعض الأبرياء غير الضليعين في خصائص اللغة العربية ·

فهذه الخصائص (الحسية ـ البصرية ـ السمعية) في اللغة العربية هي التي أعانتني على تجاوز هذه العقبة من ظاهرة الفوضى في التدوين بكثير من الثقة والاطمئنان ، وان تعددت وتنوعت مزالقها ومخاطرها فكيف كان ذلك ؟

اذا كانت معاني الكلمة العربية محصورة فعلاً في نطاق (الحسي ـ السمعي ـ البصري) كما لاحظ (الجابري) وغيره ، فان هذه المعاني تكون بالضرورة محصلة الخصائص (الحسية ـ البصرية ـ السمعية) لأصوات أحرفها · مع التذكير بأن لبعض الحروف العربية خصائص شعورية أخرى لم يفطن (الجابري) لها كما في أحرف (الحاء ـ العين ـ الهاء ـ الخاء) ·

واذن لا بد لنا بمعرض البحث عن المعاني الأصيلة للحرف العربي أن نبحث عن المعاني التي تتوافق مع خصائصه الفطرية في المصادر التي يشارك في تراكيبها ·

وهكذا لا نأبه لكثرة مشتقات الكلمة ، ولا لكثرة معانيها (الحسية والبصرية والسمعية) والشعورية أيضاً ما دمنا نعتمد خصائص الحرف العربي دليلاً يهدينا الى الكشف عن المعاني التي تتوافق مع هذه الخصائص في المصادر الجذور التي يشارك في تراكيبها ، لتكون بذلك هي من معانيه ·

فثمة فرق كبير في اليسر والدقة ، بين أن نبحث عن معنى الحرف الذي يتصدر كلمة معينة في غابة معتمة من معانيها ومعاني مشتقاتها ، وبين أن نتخذ من خصائص هذا الحرف قبساً ينير لنا طريقنا في تلك (الغابة) الى المعاني الفطرية التي تتوافق مع هذه الخصائص ·

وقد يتساءل البعض :

واذن ما هو موقفنا من أي مصدر جذر أو مشتق منه لا تتوافق معانيه مع خصائص الحرف الذي يتصدره ؟ فهل نعتبره دخيلاً أو معرباً ، أم ماذا ؟ فأجيب :

ان المعنى الفطري للكلمة العربية هو بالضرورة محصلة خصائص أحرفها ومعانيها + · فلكل حرف عربي من المعاني بعدد ما له من الخصائص · ولكن هذه الخصائص تتغير أيضاً بحسب موقع الحرف من الكلمة في أولها أو آخرها أو وسطها ، كما أسلفنا ·

ففي المصادر التي تبدأ بحرف (النون) مثلاً ، عثرت على (١٦٥) مصدراً جذراً لمعاني الانبثاق والنفاذ في الأشياء ، وعلى مصدرين (اثنين) فقط للاستكانة والاستقرار هما : (نام، أناخ) أما المصادر التي تنتهي بـ (النون) فقد عثرت على (٣٤) للاستكانة والاستقرار · ولم أعثر الا على اثنين للانبثاق هما (دنّ ـ عنّ) وواحد للنفاذ في الأشياء هو (طعن) ·

وهكذا لا يجوز أن نقول أن من معاني (النون) في بداية المصادر (الاستكانة والاستقرار) ولا من معانيها في نهاية المصادر (الانبثاق والنفاذ) ·

وفوق ذلك ، فان ثمة زحاماً حقيقياً بين خصائص الحروف العربية على معاني كل كلمة. فتارة تتغلب خصائص الحرف الأول كما (الباء) للحفر في أول المصادر من (بعج) · وتارة تتغلب خصائص الحرف الأخير منها كما (النون) للاستكانة والاستقرار في آخر المصادر من (سكن) · وكما (الصاد) في الوسط من (عصر) للصلابة والفعالية · ولكن قلّما تتغلب خصائص الحرف الوسط، وهذا بخلاف ما زعم (محمد عنبر) من أن الغلبة هي دائماً للحرف الآخير ، كما جاء في كتابه (مع نقدة جدلية الحرف العربي(١٨) ص٧) · وهو مطبوع على الآلة الكاتبة محفوظ في مكتبة الأسد ·

واذن ، عندما تنعدم الروابط بين معنى الكلمة العربية أو مشتقاتها ، وبين خصائص احرفها نكون أمام واحد من الممكنات الثلاثة :

١ ــ اما أن تكون الكلمة دخيلة غير عربية الأصل ·

٢ ــ واما أن يكون معناها مصطلحاً عليه غير فطري ·

٣ ــ واما أن تكون قد تعرضت أثناء التدوين الى تصحيف بصري أو سمعي ·

وهكذا تسنح الفرص الطيبة لعلماء اللغة وأساتذتها المعاصرين والآتين للتخليص لغتهم من الفوضى التي لحقت بها في عصر التدوين وما بعده ، وذلك باتباع ما يلي :

أ ــ أن يهملوا ما استطاعوا تداول أي كلمة وأي مشتق لها لا تتوافق معاني كل منهما مع خصائص أحرفه فيستعيضوا عنهما بالكلمة البديل المناسبة ·

ب ــ أن يهملوا تداول أي معنى لكل كلمة لا يتوافق مع خصائص أحرفها ·

جـ ــ أن يقوموا بتصحيح التصحيف البصري والسمعي في أي كلمة لا تتوافق معانيها مع خصائص أحرفها وذلك بالاستعاضة عن الحرف المصحف بالحرف النظير له كتابة بدون تنقيط أو صوتاً ، اذا توافقت خصائصه مع معنى الكلمة التي أصابها التصحيف ·

فما أكثر ما شكا علماء العربية من هذين النوعين من التصحيف كما قيل في كلمة (جرش) لصوت الطير ومعناها الأصلي قشر ،فهي مصحفة عن أصلها (جرس) · وذلك لأن (الشين) للتفشي والانتشار تناسب القشر ،ولأن (السين) الصفيرية تناسب صوت الطير · (مولد اللغة للعاملي(١٩) ص ٩٢ــ٩٦ ونشوء اللغة العربية(٢٠) للكرملي ص ٢٣) ·

د ــ أن يعيد أصحاب المعاجم تصنيف مشتقات المصادر الجذور ومعانيها ، فيضعوا في المقدمة ما هو حسي منهما ، لأنه هو الأصل، ثم المعنوي المجرد المتفرع من الحسي · وأما ما بقي من المشتقات التي لا تتوافق معانيها الحسية والمعنوية مع خصائص حروفها فتوضع في آخر الشروح · ولا يحذفونها حرصاً على تراثنا اللغوي ، ولاحتمال الافادة منها في الدراسات اللغوية المقارنة وغير ذلك ·· فعدم تقيد المعاجم، ولا سيما القديم منها بهذا النهج

في ترتيب معـاني المصادر قـد ساهم في حجب الخصائص الفطرية للحروف العربية عن أذهان وأنظار علماء العربية وأساتذتهـا ٠

فباستعراض معاني مادة (فار) في (لسان العرب لابن منظور) مثـلاً ، نجده قد بـدأ الشرح بقوله :

« الفار معروف ، وجمعه فئران وفئرة والأنثى فارة ، وقيل الفار للذكر والأنثى ٠ وبعد أن يستعرض بضعة عشر استعمالاً للفار ينتهي الى القول : « فار الرجل حَفَرَ حَفْرَ الفار ٠ وقيل فار بمعنى ، حفر ودفن » ٠

وهكذا قد جعل معنى الحفر متفرعاً مـن (الفارة) بينما العكس هـو الصحيح ٠ فمـن معاني (الفاء) الشق والحفر ٠

كما جاء فيه أيضاً حول مادة (فقر) ٠ « الفَقر والفُقر بفتح الفاء وكسرها » ضد الغنى ٠ وبعـد أن يستعرض استعمالات مادة (فقر) لمعـانيَ (ضد الغنى) ولمعـاني الفقرة (من العمود الفقري) ، في ١٢ عموداً من المعجم يخلص الى : « فقر الأرض ـ حفرها » ٠ وهذا هو المعنى الحسي الأصل لهـا ٠

فكيف يتسنى للباحث أن يلحظ مع هذه الفوضى في تصنيف المشتقات والمعاني خاصية الحفر والقطع في (الفاء) وان كان ثمة (٥٨) مصدراً تبدأ بها لهذه المعاني ؟

ولكن أن يلتزم أصحاب المعاجم بهـذا التصنيف المقترح : (الحسي أولاً ثم المعنوي المجرد) ٠ فتلك مهمة ولا أشق ، ولعلي مـن أخبر الناس بها ، ان لم أكن أخبرهم ٠

فمن (٢٩٣١) مصدراً جـذراً ومشتقاً تبدأ بحرف (النون مثلاً ومن آلاف المعاني ، قد وقع اختياري على (٣٨٦) ، واعتمدت لكل منها معنى أصلاً واحـداً حسياً أو معنوياً ، وقليلاً ما اعتمدت معنيين اثنين ٠ وقد اتبعت هذا النهج في تقصياتي عن معاني باقي الحروف في المصـادر التي تشـارك في تراكيبها ٠ مـع الاشارة الى أنني اعتمدت أحياناً قليلة بعض المشتقات كمصادر ٠

فمن (٤٩) مشتقاً ومعنى للمصدر الجذر (حفّ) مثلاً ، اخترت (الحفيف) ومعناه صوت مرور الريح في الشجر وهو مشتق ٠ وذلك لأن هذا المعنى هو الأكثر توافقاً مع خاصية الحفيف في صوتي (الحاء والفاء) ـ كما اخترت أيضاً معنى ثانياً له هو (حفّ الشيء حفافاً، استدار حوله وأحدق به وذلك لأنه الأكثر توافقاً مع احدى خصائص (الحاء) في الاحاطة والاحتواء ، كمـا في (حاط ـ حوى ـ حبس ـ حضن ـ حصر ـ حظر ـ حام ـ حدق ـ حمى ـ حفل ـ حجر ـ حاز ـ حرز ـ حاق ـ حجز) . الى (٥٣) مصدراً جذراً لهـذه المعاني ٠

مع الاشارة الى أنه كان ثمة معان أخرى لهذا المصدر الجذر ومشتقاته تتوافق أيضاً مع الخصائص الصوتية لحرفي (الحـاء والفاء) في (حفّ) ، ومـع معاني الاحتـواء والاحاطة في (الحاء) ٠ ولكن من المستغرب أن يكون مـن معـاني مشتقاته : « اليباس ـ الخشونـة ـ تشعث الشعر ـ القشر ـ التزيين ـ ضائقة العيش ـ النسج ـ الذم) ٠ الى كثير غير ذلك

مما لا يتوافق مع خصائص حرفي (الحاء والفاء) كان يجب تصنيفها في آخر المعاني وليس في أوائلها وأواسطها كما جاء في المعجم الوسيط.

وأعتقد أن انفاق ثلاثة أعوام ونيف لترويض هذه العقبة من فوضى التدوين لم يكن ثمناً باهظاً.

العقبة الثالثة : حول ضبابية نشاة اللغة العربيـة :

لم يستطع أي من علماء اللغة وسواهم من العلماء أن يكشف عن أصول النشأة البكر لأي لغة أو لهجة في : (التاريخ والطبيعة).

يقول العلامة (توفار) : « يبدو لنا من الناحية اللغوية وبعد أن أنعمنا النظر في آلاف السنين التي تشكل ما قبل التاريخ أن مشكلة أصول اللغة مستعصية على الحل ». وهذا ما دعا جمعية باريز اللغوية الى أن تقرر في أول نظام لها عام (١٨٦٦) عدم السماح بمناقشة أي بحث يتناول أصول اللغة. ولم يرفع هذا الحرمان وان تم خرقه فعلاً (تاريخ علم اللغة(٢١) لجورج مونين ص ١٦ـ١٧). وقد نحت الألسنية الحديثة هذا المنحى، فقالت بعدم جدوى البحث عن نشأة اللغات، وعدم وجود علاقة بين معنى الكلمة وأصوات حروفها، فهي مجرد مصطلح على معنى.

ولم يشذ علماء العربية عن هذا العجز بصدد نشأة العربيـة وان قالوا بفطريتها.

فمتى بدأت أصولها البكر ؟. وفي أي بيئة طبيعية وانسانية ترعرعت مرحلة حياة بعد مرحلة ؟. ثم كيف استوفت شروط نضجها ؟.

لقد تصدى الكثير من علماء العربية ودكاترتها لواحدة أو أكثر من هذه المسائل الثلاث ولكن بلا نتائج مرضية.

ولو أن واحداً منهم استطاع أن يجيب بدقة، على هذه التساؤلات الثلاثة في تقصياته اذن لكان اهتدى الى أصالة الحرف العربي في خصائصه الفطرية : (الهيجانية والايمائية والايحائية)، وذلك لتعليل طبيعة التواصل اللغوي في المراحل (الغابية والزراعية والرعوية) التي مر بها أبناء الجزيرة العربية عبر التاريخ، بما يتوافق مع مستوياتهم (المعيشية والاجتماعية والثقافية)، وبما يلبي حاجاتهم مرحلة حياة متطورة بعد مرحلة.

ولكن قدامى علماء العربية كانوا يفتقرون جميعاً الى علوم (التاريخ والجغرافيا والآثار والجيولوجيا والاجتماع) التي لا بد من الاستعانة بها للرجوع بالانسان العربي وحروفه الى ما قبل التاريخ في الجزيرة العربية. فيهبطون معهما من هنالك مرحلة حياة بعد مرحلة الى ان استوفيا مقوماتهما (الشخصية) بطولة وشعراً في الجاهلية، وقيماً مثلى وفصاحة وبلاغة في القرآن الكريم.

أما علماء العربية ودكاترتها المحدثون، وان حظي عصرهم الراهن بهذه العلوم جميعاً وما اليها من علوم (الطبيعة والفلك والنفس والبيولوجيا والأصوات والتشريح ووظائف

الأعضاء) وفي رعاية الحاسبات الالكترونية ،مما يتصل بعلم اللغة ، فانهم لم يستثمروا الا القليل من قليلها في تقصياتهم عن نشأةالعربيةوأصالة حروفهـا ، فجانبهم التوفيـق • وما أبرىء دراستي من التقصـير • فالبحث عـن(أصالة الحرف العربي وحداثتـه) ، انما هي مهمـة فريق متكامل مـن شتى الاختصاصاتالعلمية والثقافية طوال أعوام عديـدة ان لم أقـل عشرات الأعوام ، وليست مهمـة باحثبمفرده مهما يطل العمر به •

وبالمقابل لو أن علماء العربية المحدثـينودكاترتها تعاملوا مع الحرف العربي على أنه هو أصل الكلمـة لا فرع منهـا ، فاعتمـدواخصائصه في تحديد معانيها، اذن لكانوا اهتدوا الى فئات الحروف ذات الخصائص (الهيجانيةوالايمائية والايحائية)• ولكانوا صعدوا قسراً عنهم الى ما قبل التاريخ للكشف عن المراحلالحياتية التي تم فيها ابداع كل فئة منها بما يتناسب مع مستوياتها (المعيشية والاجتماعيةوالثقافية •••) كما أسلفت •

وعلى الرغم من هـذا التطابق المدهشبـين خصائص الحروف العربيـة (الهيجانيـة والايمائية والايحائية) وبين المراحل: (الغابيةوالزراعية والرعوية) التي مرَّ بهـا الانسان العربي في جزيرته : تخلفـاً لتخلف ، ورقيـاًلرقي ، فاننا نرى لدى (العلايلي) رأياً مخالفاً الى حـد ما • فهو يقول : « •• ومن ثم كانمـن الخطأ أن نفسر اللغـة بتاريخ العرب ، وانما نكونأكثر قصداً اذا فسرنا تاريخالعرب باللغة وستكشف الأيام عن هذا غير يسير » • (المقدمة اللغوية(٢٢) ص ١٦٤) •

وقد صدقت نبوءته • فها نحن نرى كيفتم تفسير (تاريخ) العرب باللغـة ، بكثير مـن الموضوعية كما قرر (العلايلي) ، ولكن قد تمتفسير اللغة بتاريخ العرب أيضاً خلافاً لما زعم•

فما حصيلة علمـاء العربية ودكاترتها من تلك المحاولات ؟

بعد تجوالي في ربوع عشرات المراجع اللغويـة التي عالجت مسألة نشأة العربيـة ، برصانة وجدية حيناً قليلاً ، فدرستها ومحصتهابرصانة وجـدية أيضاً ، وبسطحية ومزاجية أحياناً كثيرة ، فتصفحتها على عجل •

بعد تجوالي ذلك ، يحزنني أن أقول انأياً منهـم لم يتوصل الى شيء علمي موثـوق بصددهـا •

فلئن عادوا جميعاً بالعربية الى ما قبلالتاريخ ، الا أن أياً منهم لم يعرج على المراحل الحياتية التي عاشتها في الجزيرة العربيـة ،فغابت عنهم بذلك خصائص حروفها الثلاث ، وعزَّ عليهم بصورة عامة تحديد معانيالكلمات بدقة حتى التي اختاروها هم أنفسهم في الأمثلة التي ضربوها •

كما أن أياً منهم لم يحاول اعادة معانيواستعمالات أي من (حروف المعاني والضمائر وأسماء الاشـارة والكنايـة وما اليهـا) الىخصائص الحروف التي تشارك في تراكيبها • ما شذَّ عنهم سوى (عبدالحقفاضل) مع ضمائرالعربية في كتابه (مغامرات لغوية(٢٣) فأصاب قليلاً وجانبه التوفيق كثيراً • (ص ٢٤٧ـ٢٦٥) •

ولما كان عرض آراء من تصدى لنشأة العربية من قداماهم ومحدثيم ، بكثير من الموضوعية والانصاف ، وعلى شيء ما من العمق والشمول ، سيقتضيني العديد من الصفحات ، ان لم أقل العشرات مما لا متسع له في هذا المقال ، فاني سأرجيء الحديث عنها الى مقال لاحق اذا ما اتسع له صدر مجلتنا التراثية الموقرة • وقد اخترت لمشروع هذا المقال مسبقاً عنوان « الحرف العربي على موائد علماء العربية » ، وربما يصبح عنوان كتيب مستقل •

ولئن لم يتسع المجال للحديث عن (ضبابية نشأة العربية) لدى علمائها ، فانه لا بد من الحديث هنا عن كيفية تجاوزي هذه العقبة الأخيرة استكمالاً للحديث عن تجاوزي العقبتين السابقتين • وذلك كيما أروي للقارىء قصة اهتدائي الى خصائص الحروف العربية وفاء للوعد الذي قطعته له •

فكيف تجاوزت هذه العقبة ؟

لئن كانت تبعية الحرف العربي للكلمة العربية ، هي أصل العقبات جميعاً الى أصالة الحرف العربي وحداثته ، الا أن (ضبابية نشأة العربية) كانت الأعصى على الترويض •

فما قصتي مع هذه العقبة الحروف ؟

لقد عرضت في (العقبة الأولى) أنني اعتبرت **الحرف العربي هو الأصل والكلمة العربية هي الفرع** • وانطلاقاً من هذا المبدأ ، قد اعتمدت الخصائص الصوتية لكل حرف عربي في البحث عن مدى تأثيرها في معاني المصادر الجذور التي تشارك في تراكيبها • فيكون من معانيه ما يتوافق من خصائصه الصوتية مع معاني تلك المصادر بنسب مئوية مقبولة ، كما أسلفت بشيء من التفصيل في (الغين) •

ولكن بعد أن أمضيت قرابة السنتين في استخراج معاني الحروف العربية باعتماد خصائصها الصوتية فحسب ، ولدى مراجعتها في احدى المرات ، لفت انتباهي أن خصائص الرقة والضعف والوهن في صوت (الفاء) كما يقول عنها (ابن جني) في خصائصه ، لم يؤثر الا في (٢١) مصدراً جذراً تبدأ بها من أصل (٢٢١) ، بما نسبته أقل من (١٠٪) • فتساءلت :

لماذا شذ هذا الحرف عن غيره من الحروف العربية ، وقد راوحت نسب تأثير خصائصها الصوتية في معاني المصادر التي تقع في أولها وآخرها بين (٥٠-٩٠) في المئة ، باستثناء قلة من الحروف كما أسلفت ؟

وباعادة تدقيق المعاني الحسية الأصل لهذه المصادر جميعاً ، لاحظت أن ثمة (٥٨) منها لمعاني (الشق والفصل والحفر) ، يتطلب احداثها من القوة والشدة ما يتعارض مع صدى صوت (الفاء) الواهي في النفس •

كما عثرت أيضاً على (٤٨) مصدراً لمعاني (الانفراج والتباعد والتوسع) ، وعلى (١٤) لمعاني (البعثرة والتشتت والانتشار) مما لا يتوافق أيضاً مع صدى صوت (الفاء) في النفس •

وبعد تكرار النطق بصوت (الفاء) مفخما ، وتأمل طريقة النطق به على فترات متقطعة من الأيام وربما الأسابيع (لم أعد أذكر) ، تبين لي أخيراً أن هذه المعاني تتوافق مع الحركات (الايمائية التمثيلية) التي ترافق مراحل اصدار صوتها، مما لا علاقة له بصداه في النفس • وكانت مفاجأة مذهلة •

فالنطق بصوت (الفاء) مشبعاً مفخماً ، كما كان يلفظ في المراحل اللغوية البكر ، يتم على ثلاثة مراحل :

المرحلة الأولى :

تبدأ بضرب الأسنان العليا خفيفاً على الشفة السفلى حبساً للنفَس ، مما يضاهي ضربة بعظم حيواني أبيض على أرض طرية • فكان لهذه المرحلة (٥٨) مصدراً لمعاني (الحفر والشق والفصل والقطع) كما في : (فأس ـ فأى ـ فار ـ فقر ـ فلع ـ فشغ ـ فدغ ـ فلق ـ فرخ ـ فطم ـ فلح ••) •

المرحلة الثانية :

تبدأ بانفراج الأسنان العليا ، وانفتاح الفم واسعاً ، مما يضاهي الأحداث التي يتم فيها : (الانفراج والتوسع والتباعد) • فكان لهذه المرحلة (٤٨) مصدراً ، كما في « فتح ـ فسح ـ فجا ـ فلك ـ فسق ـ فرشخ ـ فق ـ فقص ـ فرغ ـ فغر ـ الفم •••) •

المرحلة الثالثة :

تنتهي بصدور صوتها مع النَّفَس المبعثر خارج الفم ، مما يضاهي الأحداث التي تتم فيها (البعثرة والتشتت والانتشار) ، كما في :« فرش ـ فشغ ـ فشل لحيته ـ فشى ـ فاح ـ فاع ـ فاج •• » الى (١٤) مصدراً •

وما أكثر ما اضطررت الى التنويه بهذا الاكتشاف المدهش في متن الدراسة •

وهكذا ، لما كانت نسبة المصادر التي تأثرت معانيها بخصائص حرف (الفاء) في الضعف والوهن أقل من (١٠٪) ، وكان تأثير طريقة النطق بصوتها ايماءً وتمثيلاً قد بلغ (٥٤٪)، فقد أطلقت على هذا الحرف مصطلح(الايمائي ـ التمثيلي) •

وباعادة دراسة الحروف العربية جميعاً للكشف عن خصائصها الأخرى غير (الصوتية)، تبين لي أن ثمة أحرفاً أخرى غير (الفاء) قد استمدت معظم معانيها من طريقة النطق بأصواتها (ايماءً وتمثيلاً) هي : (الميم واللام والثاء والذال) • وان بعضها الآخر قد استمد نسبة قليلة من معانيه من طريقة النطق بصوته مثل (الباء) • فكان ثمة /٣٩/ مصدراً (للاتساع والامتلاء والعلو) وفقاً لانفتاح الفم واسعاً عند خروج صوتها المفخم •

كما تبين لي أيضاً أن ثمة أحرفاً أخرى تستمد معانيها (الصرفية ـ النحوية) ، وليس (المعجمية) من خصائص أصواتها (الهيجانية)، وهي (الهمزة والألف اللينة والواو والياء) كما أسلفته •

ولقد تراءى لي أن الأحرف (الهيجانية) آنفة الذكر ، هي من مستحاثاتنا اللغوية التي ورثناها عن مرحلة لغوية مغرقة في القدم ، كان الانسان العربي خلالها كغيره ممن ينتمون الى المراحل الغابية البكر يعتمد الأصوات الهيجانية والحركات الجسمية (اللاارادية) • وهذا يثبت صحة (النظرية الغريزية) في نشأة اللغات التي رفضها الدكتور (وافي) لأن القائلين بها لم لم يحظوا بمثل هذه الشواهد من مستحاثاتنا اللغوية الفطرية (علم اللغة(٢٤) ص ١٠٠ ـ ١٠٢) • فنحن لا نزال حتى الآن نوظف الخصائص (الهيجانية) لهذه الأحرف للتعبير عن بعض المعاني التي كان يتداولها الانسان العربي الفجر في المرحلة الغابية • وذلك كما في (الهمزة) التي كان يفيد من خاصية الانفجار في صوتها للفت الانتباه الى خطر ما أو منفعة أو التعبير عن حالة نفسية ، فأصبح يفيد من خاصية الانفجار هذه بلفت انتباه السامع (للنداء والاستفهام) ، وغير ذلك من المعاني في (حروف المعاني والضمائر وأسماء الاشارة ...) •

لقد أطلقت مصطلح (الهيجاني) على (الهمزة) للطابع الانفجاري في صوتها • كما أطلقته على أحرف (ا ـ و ـ ي) للطابع الغوغائي في أصواتها • ولهذا السبب أطلق علماء اللغة عليها مصطلح (الصائتة) تارة و (الجوفية) تارة أخرى • وذلك لقلة تدخل جهاز النطق في اصدار أصواتها ، مما يثبت انتماءها الى المرحلة اللغوية الفريزية الغابية •

كما أن الأحرف (الايمائية التمثيلية) هي أيضاً من مستحاثاتنا اللغوية قد ورثناها عن مرحلة حياتية أقل غوراً في التاريخ وأكثر تطوراً من مرحلة الأحرف (الهيجانية) الغابية • كان أبناء الجزيرة العربية خلال هذه المرحلة يعتمدون في تواصلهم اللغوي بصورة (ارادية) حركات جهاز النطق : (شفة ـ لسان ـ فم ـ فك علوي ـ فك سفلي ـ رأس) وما اليها من الحركات الجسمية الارادية الأخرى مترافقة بالضرورة مع الأصوات المساعدة • وبتقصياتي الأثرية والتاريخية الجيولوجية والدينية والاجتماعية ، قدرت أن هذه المرحلة تتوافق مع الحياة الزراعية التي تزعمتها المرأة العربية في الجزيرة العربية بعد الألف (١٢) ق.م • فتعبدها الرجل ربة للخصب تارة وربة للزراعة والجمال تارات أخرى ، ثم انتقلت عبادتها مع الموجات البشرية التي طردها جفاف ما بعد العصر الجليدي الأخير من الجزيرة العربية منذ الألف (٩) ق.م الى المناطق الزراعية المجاورة ألف عام بعد ألف • فكان لهذه العبادة طقوسها في الأساطير السومرية والبابلية والكنعانية والفرعونية ، ثم اليونانية وما اليها • وذلك ارثاً أنثوياً عن المرحلة الزراعية العربية •

أما ما تبقى من الحروف العربية التي تستمد معظم معانيها من خصائصها الصوتية فقد أطلقت عليها مصطلح الحروف (الايحائية) • وهذه الحروف تنتمي الى أرقى مراحل تطور اللغة العربية التي تتوافق مع طبيعة الحياة الرعوية في الجزيرة العربية التي بدأت تقديراً أيضاً منذ الألف (٩) ق.م • ففي هذه المرحلة اعتمد العربي الراعي الخصائص الصوتية للحروف العربية صرفاً بلا حركات جسمية الا ما يقتضيه النطق بها ، وذلك لعدم جدواها عبر المسافات الطويلة وهو يرعى القطيع نهاراً ، ولا عبر الظلام وهو يحرسه ليلاً •

وقد استعاد الرجل المحارب مالك القطيعمن المرأة زعامة المجتمع • فكان لألوهيته المقام الأول في الأساطير الآنفة الذكر ، ارثاً ذكورياعن المرحلة الرعوية ، وكان للمرأة فيها المقام الثـانـي •

وهكذا ، بانطلاقي من خصائص الحرفالعربي الأصل ، بمعرض البحث عـن معانيه الفطرية في الكلمـة العربية (الفرع) ، قـداضطررت الى الصعود مـع اللغـة العربية ، قسراً عني ، الى ما قبـل التاريخ ، في رحلـةطويلة وشاقة لا تخلو من المخاطر، للكشف عن خصائص ومعاني الحروف العربية (الهيجانيةوالايمائية والايحائية) على واقـع المعاجـم اللغوية دامت ثلاثة أعوام ونيف •

ولكن آين نشأت اللغـة العربية وكيف تطورت عبر (التاريـخ والطبيعـة والمجتمـع والنفس) ، حـتى استوفت شروط نضجهـا فيالشعر الجاهلي والقران الكريم ؟.

فكان لا بد لي من الهبوط مما قبل التاريخ مع الانسان العربي واللغة العربية ، مرحلة حياة بعـد مرحلة حتى الاسلام فاقتضاني ذلكجهود قبضة ونصف من الأعوام •

ولقد تبين لي من الدراسة الأصل : « الحرف العربي والشخصية العربية » أن الحرف العربي هو أعرق الجذور الثقافيـة في بنيـةشخصيـة الانسان العربي وأنقـاها أصـالة وأحواها لقيمه الجمالية والانسانية وأوعاهالأحكامه العقلية وأحفظها لتقاليده الاجتماعية الصحيحة وأكشفها بالتالي عن سمات : « الشخصيـة العربيـة » • فكـان الحرف العـربي بخصائصه (الهيجانية والايمائية والايحائيـة)هو (تاريخ) العربي •

□ **وختـامـا :**

لعل القارىء الكريم قد انتبه الى بعضما عانيته من المشقة في هذ المقال عن (أصالة الحرف العربي وحداثته) • ولقد كان بحكمتشعب جوانبـه وتنوع مسائله كثير المخاطر والمزالـق •

وانه ليسعدني ، لا بل ، و (ألتمس) منذوي الاختصـاص أن يتفضلوا مشـكوريـن بتصويب وتصحيح أي خطأ يعثرون عليه فيهذا المقال• وذلك ليس خدمة جلىً لي فحسب (وقـد استحقها) ، وانما قبـل ذلك ، خدمةللعربية • فحصانتها وحمايتها ورعايتها ، انما هي مسؤولية ذوي الغـيرة والاختصاص مـنأبنائهـا ، وليست مسؤولية واحـد متحمس مغامر بمفرده •

« وفـوق كل ذي علـم عليـم » •

★ ★ ★

□ المراجع :

١ ـ جدلية الحرف العربي وفيزيائية الفكر والمادة محمد عنبر ط ١ ـ ١٩٨٧ .

٢ ـ المجلد الأول من المؤلفات الكاملة ـ لزكي الأرسوزي ط ٢ ـ ١٩٨٧ .

٣ ـ تهذيب المقدمة اللغوية ـ عبد الله العلايلي ـ تحقيق د. أسعد علي ط ـ ١٩٦٨ .

٤ ـ الخصائص ـ أبو فتح عثمان بن جني ج ٢ ط ٢ القاهرة ـ ١٩٥٥ .

٥ ـ المجلد الأول للارسوزي .

٦ ـ الخصائص ـ لابن جني .

٧ ـ البلغة في أصول اللغة ـ محمد صديق حسن خان ـ تحقيق محمد نزير مكتبي بيروت ـ ١٩٨٨ .

٨ ـ البلغة .

٩ ـ تكوين العقل العربي د. أحمد عابد الجابري ط ١ ـ ١٩٨٤ .

١٠ـ تكوين العقل العربي .

١١ـ تكوين العقل العربي .

١٢ـ رصف المباني في شرح حروف المعاني ـ أحمد عبد النور المالقي ـ تحقيق أحمد الخراط دمشق ـ ١٩٨٥ .

١٣ـ مغني اللبيب عن كتب الأعاريب . عبدالله بن هشام الأنصاري ـ القاهرة .

١٤ـ البلغة .

١٥ـ قاموس احياء الألفاظ ـ أسامة الطيبي ج ١ ـ ١٩٦٧ .

١٦ـ تكوين العقل العربي ـ للجابري .

١٧ـ تكوين العقل العربي ـ للجابري .

١٨ـ مع نقدة جدلية الحرف العربي ـ محمد عنبر ـ طباعة على الآلة الكاتبة ١٩٨٩ .

١٩ـ مولد اللغة احمد رضى العاملي ـ تعليق نزار رضى ـ بيروت ـ ١٩٦٨ .

٢٠ـ تاريخ علم اللغة ـ جورج مونين ، ترجمة بدر الدين قاسم ط ـ ١٩٨١ .

٢١ـ نشوء اللغة العربية واكتمالها ـ اكتهالها ـ انستاس ماري كرملي . ط ١ ـ القاهرة ـ ١٨٣٨ .

٢٢ـ المقدمة اللغوية للعلايلي .

٢٣ـ مغامرات لغوية . د. عبد الحق فاضل .

٢٤ـ تاريخ علم اللغة ـ جورج مونين . ترجمة بدر الدين قاسم ط ١ ـ ١٩٨١ .

★ ★ ★

سيّد قريش

رواية بين الواقع التاريخي والواقع الفني

عبد اللطيف أرناؤوط

من العجب أن تطوى صفحة رواية (سيد قريش) من أذهان الأجيال العربية اليوم أو تكاد ، مع زوال المرحلة الأدبية التي مثلتها ، فما ان غاب طيف الأدب الرومانسي في أدبنا حتى غاب معه اسم (معروف الأرناؤوط)(*) أو كاد من ضمير المثقف العربي ، والناس يألفون كل جديد ويتعلقون بأهداب الحاضر وكأنهم يلتفتون الى الماضي باللمح العابر ،ويفتحون عيونهم للحاضر بكل جوارحهم ، وقد فاتهم أن الحاضر ليس الا حلقة من حلقات متواصلة أسهمت في بنائه قيم الماضي وتطلعات كل جيل ، وما من شك في أن معروف الأرناؤوط بأدبه الروائي قد أسهم في تفجير الوعي الوطني والقومي في جماهير الأمة العربية في فترة كانت تواجه فيها الاستعمار الغربي بشتى صنوفه وأشكاله ، واضطلعت روايته / سيد قريش / بالعبء الأكبر من تلك الرسالة ، اذ كتبها مؤلفها في فترة النضال الوطني في عام١٩٢٩ وأهداها [الى فتيان الشام والعراق والجزيرة ، الذين مشى آباؤهم تحت ظلال قريش الى نواحي العالم لتهذيبه وتعليمه] .

وقد فطن الأديب الدكتور منير العجلاني الذي قدّم للرواية الى الغايات القومية من وراء تأليفها فهو يقول : (وأظن أننا في حاجة الى إثارة النضال بين القديم

(*) ولد معروف الارناؤوط في مدينة بيروت عام ١٨٩٢ هاجر والده أحمد الارناؤوط من ألبانيا الى لبنان أيام الحكم العثماني ..

اهتم (معروف) بالأدب العربي والتاريخ الاسلامي ..انتقل الى مدينة دمشق .. وعمل في الصحافة .. أصدر جريدة (الاستقلال العربي) .. وانشأ مجلة (العلم العربي) ثم أصدر جريدة (فتى العرب) انتخب عضواً في المجمع العلمي العربي .. توفي في دمشق في ٣٠ كانون الثاني عام ١٩٤٨ .

كتب الرواية التاريخية الاسلامية ـ وترجم العديد من الآثار الأدبية .

والحديث ، حتى ولو لم يكن يفهم الكثيرون ، ما هو القديم وما هو الحديث ، لأن النضال يهز الحياة الساكنة الخاملة ، وحسبنا هذا من النضال) ٠

وأحسن اذ أشار الى التزام كاتبها برسالة التوجيه والتوعية ، يقول :

[أيها الأدباء ، هذه رواية سيد قريش بين يديكم ، فيها عطر وموسيقى ، وفيها عنصر من الشعر كتبها صاحبها لا ليلعب ولا ليبذر منحة الكتابة التي أعطيها ، ولكنه كتبها كما أتنفس أنا وأنت بسائق القيام بالواجب ، وليس بسائق البذخ] ٠

تشكل رواية (سيد قريش) مَعْلَماً بارزاً من معالم النتاج الأدبي في الوطن العربي ، فهي حتى يومنا هذا أطول رواية تاريخية صدرت في الأدب العربي ، اذ بلغت صفحاتها (٨٠٧) صفحات حوت عالماً غنياً باللمحات والصور ، وتحليلاً تاريخياً ماتعاً ، وعرضاً لعدد وافر من الشخصيات التاريخية الحقيقية والمتخيلة حتى ليمكن مقارنتها برواية (الحرب والسلام) لتولستوي من حيث ضخامة الحجم ، واتساع الأفق التاريخي ، ولا تكاد الروايات التاريخية التي صدرت بالعربية قبلها أو بعدها تدانيها من حيث الضخامة والغنى ٠

وضع معروف الأرناؤوط نصب عينيه خمسة حوافز أساسية تشكل بمجملها الدافع لكتابة روايته ، فقد أراد أولاً أن يعرّف الأجيال الصفحات المشرقة من تاريخ الأمة الاسلامية ، ويحرك في النفوس المشاعر القومية التي أيقظت الأجداد لبناء مجد الأمة ووحدتها ، وجمع كلمتهافي مواجهة الأعداء، لكنه لم يشأ أن يعرض التاريخ ويرده الى عوامله الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ٠ بل آثر أن يكتب التاريخ بروح غنائية غنية بالألوان ، وبنفس ملحمي شاعري يثير الوجدان ويحرك الهمم ٠

والحافز الثاني هو ما دفعه الى كتابة هذه الرواية التاريخية ٠ أن الكاتب قرأ رواية (فلورينده البيزنطية) للكاتب الفرنسي : (رينيه دي سيكونزاك) عن تاريخ العرب في الأندلس ٠ فلمس فيها تشويهاً مريعاً ومسخاً للأحداث التاريخية.

وأما الحافز الثالث فيتجلى في اختياره حقبة من تاريخ الأمة الاسلامية تشبه الى حد بعيد الحقبة التي عاش فيها هو « معروف » فقبل الاسلام بعقود كان العرب يعانون من التجزئة والتشتت ويخضعون لدويلات عربية تدين بالولاء للفرس والروم ، وقد مزقتهم التجزئة وأذلّهم الجهل والولاء للأجنبي ، ثم شاعت

الأقدار بأن يتوحد شملهم ويتحرك وجدانهم القومي بعد دخول الأحباش الغرباء جزيرة العرب ، واكتساح الفرس سورية،والفرس الذين سموا بالأبناء في اليمن . فكانت هذه الأحداث تمهيداً لظهور الاسلام وجمع كلمة العرب تحت راية التوحيد ، وكان المجتمع العربي في فترة صدور الرواية يعيش في ظروف مماثلة للظروف التي مرت بها الأمة قبيل الاسلام فهو يعاني من التجزئة والتشرذم ، وتخضع أجزاؤه للاستعمار الفرنسي والانكليزي والايطالي ، وقد ضرب المستعمر طوقاً حديدياً على الأدباء ، فما كانوا قادرين على النقد والتصريح ، بل كانوا يؤخذون حتى بالكلمة العابرة أو التلميح ، وكان مصير أكثرهم النفي والسجن ، فوجد معروف الأرناؤوط في التاريخ ضالته المنشودة ورأى أن إسقاط أحداث الماضي على الحاضر من شأنه أن يبعث النفوس ويحرك الثورة في الرؤوس دون أن يتعرض للملاحقة .

أما الحافز الرابع فيتجلى في تركيز الكاتب على الجيل المهيأ لمقارعة الاستعمار، فهو في (سيد قريش) يفصّل في تصوير الصراع بين جيلين ، جيل متمسك بالقديم مستسلم لواقعه يتمثل بزعماء قريش التقليديين وأصحاب الأموال من تجارها ، وجيل جديد من الشباب المؤمن بالتغيير والثورة يتمثل بشخصية الرسول الكريم وأنصاره من أبناء الشعب ، ولا سيما الفقراء والمساكين ، فلم تكن دعوة الاسلام عند مؤلف الرواية دعوة دينية فحسب ، بل إنها دعوة قومية وحركة نضالية ذات أهداف اجتماعية وسياسية من أبرزها توحيد العرب وتحرير أرضهم وتجديد قيمهم الاجتماعية والانسانية نهض بها جيل الشباب .

ومما يدخل في هذا الهدف عناية المؤلف بالمرأة وحرصه على إبراز دورها في النضال والثورة ، فليلى الكندية وهند بنت امرىء القيس ومارية الغسانية وفاطمة بنت الخطاب وأخريات ممن صوّر الكاتب أدوارهن في الدعوة والتحرير ، يمثلن ما يجب أن تضطلع به المرأة العربية اليوم من أعباء المشاركة في التبعات الوطنية ، وقد جعلهن الكاتب قدوة تحتذيها فتياتنا في عصرنا الحاضر .

وأما الحافز الخامس فهو لغوي وتربوي حرص فيه الكاتب أن يقدم للأجيال نصاً أدبياً حافلاً بالجمال الأدبي والاحساس المهذب الرفيع الذي يسمو بعواطف الجيل ، ويرقى بنفوس أبنائه الى آفاق من الجمال والتهذيب ، ويكون حافزاً للناشئة لتقدير لغتهم والتعلق بها ،وتمكينهم من استخدامها بكفاية في مواقف

التعبير عن عواطفهم ومشاعرهم ، وهو هدف أصاب فيه الكاتب التوفيق ، فمن يقرأ رواية (سيد قريش) يغتني عن قراءة دواوين الشعر ، ويجد فيها من ألوان الصياغات والتعابير اللغوية الفنية ما يغنيه عن الاستعانة بكثير من كتب اللغة ومعجماتها ..

قسَّم الكاتب روايته الى ثلاثة أجزاء متوازنة الطول ، يقع الجزء الأول من ص ٣ الى ص ٢٠٦ ، ويتناول واقع العرب المتجزىء في فترة حكم المناذرة والغساسنة ، ومعاناة العرب من تلك التجزئة في الأرض والمعتقد والفكر ، دون أن يتجاوز أو يتغاضى عن المقومات القومية التي كانت من عوامل الوحدة ومنها وحدة اللغة والدم والمشاعر . وهو يفضح المحاولات الأجنبية في تفكيك عرى هذه الوحدة باصطناع العملاء واقامة دول تدين بالتبعية للفرس أو للروم ، وما أصاب العرب من ويلات بسبب هذا التشرذم .

ويتناول الجزء الثاني من الرواية الذي يقع ما بين صفحة ٢٠٩ الى الصفحة ٤٣٣ الظروف التاريخية والاجتماعية والسياسية التي أدت الى تقارب وتوحيد عربي فرضه دخول الأحباش مكة ، وطردهم منها على يد البطل سيف بن ذي يزن والتفاف العرب حول عرش المناذرة بعد سجن الفرس ملك الحيرة النعمان بن المنذر ، واجتياحهم الشام وتصفيتهم ملك الغساسنة وتدميرهم قصورهم ومنشآتهم في بلاد الشام ، ودور الشعراء المتنقلين بين البلاطات في التأليف بين الأطراف المتنازعة ، وأثر الشعر في توحيد المشاعر وجمع الكلمة من خلال الأسواق الأدبية التي كانت تقام في عكاظ وغيرها . والارهاصات التي مهدت لظهور الدعوة ، وانتظار العرب جميعاً قيام سيد قريش محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم بدعوته التي ستجمع كلمة العرب وتوحّد شملهم .

وفي الجزء الثالث من الرواية (من الصفحة ٤٣٥ الى الصفحة ٨٠٦) يتابع المؤلف مراحل الدعوة معتمداً على كتب السيرة النبوية وغيرها من المصادر ، فيعيد كتابة هذه السيرة بنَفَسٍ روائي شاعري محللاً شخصية الرسول الكريم (ص) وطلائع المؤمنين بالاسلام ممن نصروه والتفوا حوله مستعرضاً هجرة أنصاره الى الحبشة ومواجهة المشركين من قريش في (أُحد) رابطاً الأحداث المتباعدة التي وقعت قبل الدعوة وبعدها في الشام والعراق والجزيرة ، والظروف التي مرت

بامبراطوريتي الروم والفرس بروح المؤرخ الواعي ، وقلم الأديب البليغ ملتزماً الأمانة التاريخية فيما يعرض من الوقائع ٠

وقد تزود المؤلف بقراءات مستفيضة عن تاريخ الروم والفرس والغساسنة والمناذرة وحياة العرب في الجاهلية ، وماقدمته كتب السيرة والحديث النبوي من معلومات عن تلك الفترة ٠ ومن أبرز المصادر التي اعتمدها ؛ الطبقات الكبرى لابن سعد ـ كتاب الأصنام لابن الكلبي ـ العقد الفريد لابن عبد ربه ـ والطبري ـ دلائل النبوة للبيهقي ـ والأغاني للأصبهاني ـ وشعراء الجاهلية والكامل لابن الأثير وسيرة عمر بن الخطاب ، وتاريخ عمر بن الخطاب وتاريخ أبي الفداء ـ سيرة الخلفاء أمراء المؤمنين للسيوطي ـ بلوغ الأرب للألوسي ٠ ومن المصادر الأجنبية التي اعتمدها عن تاريخ الروم والغساسنة والفرس ، تاريخ العرب لسيديو ، وأمراء آل جفنه الغسانيين لنولوكي ، وتاريخ العرب قبل الاسلام لكوش دي برسفال ، وملوك لخم لكليرمون غانو ، وتاريخ العرب للكونت دي ساسي، وتاريخ الامبراطورية العثمانية لغانتيه ، وتاريخ فارس القديمة لكليمان هيار ٠ ومن المصادر الحديثة : فجر الاسلام وضحى الاسلام لأحمد أمين ٠

وقد تغلغلت الوقائع التاريخية مع الوقائع المتخيلة في الرواية حتى طغت عليها، فأكثر شخصيات الرواية لها وجود تاريخي حقيقي بل ان كثيراً من تحركاتها وأحداث حياتها مستمدة من التاريخ ، كزيارات الشعراء حسان بن ثابت والنابغة الذبياني لدمشق والحيرة ، وزيارة أمرىء القيس للقسطنطينية ٠ أما الأحداث التي أبدعها الكاتب والشخصيات التي اخترعها فمحدودة جداً لا تتجاوز ليلى الكندية الشخصية النسائية البارزة في الرواية ٠ ومارية بنة امرىء القيس من سيلفيا ابنة الامبراطور جوستينيان ٠ والكاتب شديد الحرص على الأمانة التاريخية، فهو يثبت المصدر الذي استقى منه الواقعة لتاريخية في هامش الرواية ، ولا يتجاوز الوقائع الا حين يعمد الى تحليلها من وجهة نظره ، وكثيراً ما يمنح شخصيات الرواية وعياً وسلوكاً قومياً أو اجتماعياً يتجاوز ثقافة العصر الذي يكتب عنه ، فليلى الكندية البطلة القومية التي نهضت بدور في تصفية الوجود الرومي في بلاد العرب تشارك أيضاً في معركة ذي قار ، وتخطب في الكعبة مبشرة وداعية لسيد قريش الذي سيوحد شمل العرب بدعوته ٠ وهي كثيراً ما تتحدث بلغة عصرنا الحالي

ومفاهيمه التي لم تكن قد برزت الى الوجود ، وهي تجترح المعجزات والخوارق فتقود الكتائب في (ذي قار) الى مكة فالحيرة فدمشق ، ولم تكن هند بنت امرىء القيس أقلّ منها وعياً قومياً ، فهي تتابع هدفها في الثأر لأبيها باصرار وتتحدث عن وحدة العرب وواقعهم المجزأ • على أن هذه المخالفة التاريخية مقصودة بحد ذاتها ذلك أن معروف الأرناؤوط كان يهدف من وراء تصوير شخصياته التاريخية رسم المثل الأعلى للأجيال العربية ، وإلباس الشخصيات ثوب العصر الذي يعيش فيه، لتكون أقرب الى نفوس قرائه •

وقد أجاد المؤلف في تصميم حبكة الرواية حين ربط التاريخ العربي الجاهلي منه والاسلامي وأحداثه التي وقعت في دمشق والحجاز والعراق في وحدة متماسكة تحقق هدفه ، كما ساعدته المصادر في الربط بين الأحداث المتباعدة في الزمان والمكان ، فشخصيات الرواية يرتبطون بالساحة العربية بأكثر من رابط مكاني وزماني ، ليلى الكندية ترتبط ببلاد العرب برابطة النسب والولاء ، وببلاد الروم برابطة العيش والاستقرار ، وهند تنتسب الى ملوك كندة في اليمن ، وتعيش في دمشق ، وصلتها بالعاصمة الرومية وثيقة بسبب وجود عمتها ليلى فيها،وكونها زوج عمرو بن الحارث الغساني ، والمطالبة بدروع أبيها ودمه المهدور من الروم ، وأبو سفيان قرشي يزور دمشق لتجارته ، وأمية بن أبي الصلت حجازي المولد والنسب يرتبط بالشام بديانته النصرانية ، وملوك الحيرة تربطهم بدمشق صلة الخصومة مع الغساسنة وبالحجاز رابطة النسب •

وفي الرواية حقائق تجاوز فيها المؤلف الشائع التاريخي المشهور والمألوف ، فهو يجعل جبلة بن الأيهم يقتل في مواجهة المناذرة حين اكتسحوا بلاد الشام ، ومع أن المصادر التاريخية تشير الى أنه شهد اليرموك وزار الحجاز وأسلم وارتدّ عن الاسلام ، في حين يذهب المؤلف الى أن ملك الغساسنة في تلك الفترة كان شرحبيل ابن عمرو الغساني بعد جبلة ، ولم يذكر المصدر الذي اعتمد عليه في تقرير واقعة موت جبلة قبل الفتوح ، وبالرغم من طغيان الحقائق التاريخية على الرواية ، وإسهاب المؤلف في تفصيلات تاريخية وردت على لسان الشخصيات تتجاوز المقتضيات الفنية ، وتسيء اليها الا أنه نجح في خلق الحبكة التي أبدعها للرواية ، فتساوق الجانب المتخيل مع الواقع التاريخي ، وانسجما في خلق التأثير النفسي

والوجداني ، وساعد اختيار الشخصيات النسائية الكثيرة في الرواية على منحها جواً من الرقة والنعومة تعزز ما امتاز به أسلوب الكاتب من نعومة وموسيقا ٠

تمتد البيئة الزمانية للرواية من أواخر القرن السادس للميلاد الى ما بعد هجرة الرسول الكريم بقليل ، وتجري أحداثها في بيئات متعددة منها دمشق ومناطق الغساسنة والحيرة عاصمة المناذرة والبلقاء ومكة والمدينة والطائف وغيرها من المدن العربية كبصرى ٠ وقد مكنت الصلات القومية بين هذه البيئات مؤلف الرواية من أن ينتقل بشخوصها عبر المكان بيسر مستنداً الى المرويات التاريخية التي تحتل حيّزاً كبيراً من حياة الشخصيات ، وكانت هذه الأحداث تتجلى في سلوك أبطال القصة وتحركاتهم ، أو ترد على ألسنتهم من خلال الحوار وكثيراً ما يتحول الحوار الى سرد تاريخي مسهب يسيء الى فن الرواية ٠

وعمد المؤلف الى رسم الوقائع التاريخية التي تمت في زمن واحد بالمعارضة بينها في فصول متعاقبة يتبدل فيها المكان والحدث دون أن يتبدل الزمان ، ويلجأ أحياناً الى طريقة الخطف خلفاً فيرجع بالتاريخ الى الوراء محللاً خلفيات الأحداث ومكوناتها البعيدة فيطول كلام الشخصيات بصورة مسهبة تتجاوز الشروط الفنية لكن القارىء لا يملّ ذلك الاسهاب لغنى المعلومات التاريخية التي تقدمها الشخصيات ، حتى ليمكن أن تعد الرواية مرجعاً مفصلاً للتاريخ العربي في تلك الفترة يتضمن معلومات لا تتوافر في الكتب الأخرى ٠

ويتنامى الحدث الروائي من فصل الى فصل ببطء بسبب تعدد البيئات والشخصيات ، وان كان يتطور من خلال شخصية سيد قريش بطل الرواية الذي رسم الكاتب حياته منذ طفولته حتى هجرته ٠

وأما عنصر التشويق فيبرز أكثر مايبرز في الواقع الموهوم أو المتخيل الذي ابتدعه الكاتب ، وحشد فيه المفاجآت التي تشد القارىء وترجىء الحل ، ومع صعوبة تلخيص الرواية ، سأحاول ايجاز أجزائها الثلاثة في العرض الآتي :

- ١ -

يفد الشاعر حسان بن ثابت الى دمشق لزيارة الغساسنة من طريق الغوطة ، فيصادف غلاماً يسأله عن الطريق الى دمشق ، فيرشده الغلام ويسأله عن هويته ، أهو من رجال قيصر أو من بطاركة دمشق ، فيبتسم حسان بن ثابت ويُعلمه أنه شاعر الغساسنة ، وأنه زار

دمشق من قبل في مُلك الحارث بن جبلة الراحل والد الملك الغساني الحالي المنذر ، ويتابع الشاعر سيره حتى بدت له دمشق في ضوء القمر، وبرزت له جناتها ونهرها العذب ، فدنا من بيعة منارة ، ومنعه خجله أن يطرق الباب في هزيع الليل المتأخر ، ثم خرج من البيعة شيخ يدب على العصا وقد لفت انتباهه تردد حسان، فسأله عن حاجته ودعاه للنزول وفتح له باب المعبد ، وعاد الراهب الى حسان يسأله عن اسمه فانبأه به ، فابتسم الراهب لأن شهرة حسان شاعراً كانت قد بلغت دمشق وحفظ الناس شعره حتى هؤلاء الذين اشتملت عليهم الصوامع ·

لم يكن حسان وحده في زيارة دمشق ، بل رافقه في رحلته الى الغساسنة الشاعر النصراني أمية بن أبي الصلت ، وعرّجا معاً في طريقهما الى دمشق على بصرى ، وباتا فيها ليلة في / دير بحيرا / ·

وشاءت المصادفة أن يلتقي حسان في دمشق زعيم قريش في الجاهلية أبا سفيان ابن حرب فيسلم عليه ، ويبدي أبو سفيان اعجابه بشعره ، ثم يلحظ حسان في عيني أبي سفيان شجواً فيسأله عن سر وجومه ، فيبدي أبو سفيان أساه ، اذ يرى دمشق تخضع للأجنبي ، وملوكها يخدمون قيصر ، فيعلمه حسان أنه زار الراهب بحيرا مع أمية بن أبي الصلت ، فأنبأهما بظهور نبي عربي كريم يقود الأمة الى نصر أبدي ، وأن تيجان الغرباء والحلفاء ستتحطم قريباً حين يكتب للعرب التحرر من ربقة الأجنبي ، فيطرب حسان لما يسمع وتستبد بروحه نشوة من الحرية ، ويذكر أن أمية كان يود أن يكون هو ذلك النبي الموعود ، وتبعث فكرة النبي المبعوث المنتظر في حسان أفقاً جديداً يتصور فيه أنه سيكون شاعراً لهذا النبي الموعود ، فيعلن ايمانه بالنبي المبشر قبل بعثه ·

لم تكن الزيارة هي الأولى أو الأخيرة التي يقوم بها أمية بن أبي الصلت لبلاد الشام ، فقد كان دائب السفر الى الشام ، وثيق الصلة بالرهبان والأديرة · وفي كل مرة كان يحدثه عن اقتراب ظهور النبي الموعود ، فقرر هذه المرة أن يزور الراهب في طريقه الى دمشق ليتثبت منه عن حقيقته ، فلما بلغ بصرى تحول الى ديرها فدلف اليه بحيرا وكان شيخاً يدب على العصا ، فسأله أمية :

ــ ما تحدثني هذه المرة عن النبي المبشر ·· ؟؟

فالتفت بحيرا من نافذة الدير حيث الصحراء ، وأشار الى قافلة تقترب وقال :

« حدق طويلا في هذا الرمل المنبسط ، فاذا نظرت الى رجال هذه القافلة بدا لك في ذلك الصبي المجيد ذلك الناموس الذي لاح لموسى وعيسى ، لقد ولد النبي · وكان مولده في أشرف القبائل ·· »

وبدت على أمية علائم الدهشة ، فقال له بحيرا :

ـ فيمَ اجفالك هذا ؟؟ أيرمضك أن ينبت في الحجاز هذا النبت المتأرج ؟ يا عجباً لكم معاشر العرب ، تعيشون في الصحراء المرمضة ، وتتركون مدنكم للغريب يحصد ما زرعته أيديكم ، ويبني حصونه وقصوره فوق أرضكم ، وأنتم في صحراء قاحلة لا تدر لبناً ولا تنبت حباً · ؟؟ فليكن شعرك بعد الآن نغمات عذبة تشيد بروائع الفجر الجديد الذي سيظلل نوره عالماً جديداً تفيئون اليه ·

وراح أمية يقص ما سمعه من نبأ النبي ﷺ على أبي سفيان في طريق عودتهما مع القافلة الى الحجاز ، فيتمنى أبو سفيان لو يرى بحيرا في بصرى ، ليسمع منه ما سمعه أمية ، فيبكر في صباح اليوم التالي وقد بلغا بصرى ، ويسأل الراهب عن حقيقة الأمر ، فيعيد على مسامعه ما كان قد أنبأ به أمية ، ويرجوه ألا يتفوه أمام الروم بما سمع ، وقبل أن يودعه أبو سفيان · يقول له الراهب :

« سيخرج من أبنائك ملوك يزيلون الروم عن هذه البلاد ، وسيكون أبناؤك جنداً لهذا النبي العظيم ، ينصرونه اذا قعد الناس عن نصرته ·· »

وأنست طبيعة دمشق الساحرة أبا سفيان وحسان وأمية ما فاه بحيرا عن النبي الجديد ، وقد اقتربوا من شاطىء بردى ، فاذا هم يسمعون صوت استغاثة يصدر عن امرأة عربية تعرضت لعدوان علج من الروم ، فامتشق الثلاثة سيوفهم وكان الصوت صادراً من أحد القصور المطلة على بردى ، فعثروا على فتاة عربية من كندة تستنجد وقد دهمها القائد الرومي هيباس وجنوده قبل أن تلج القصر ، يراودها عن شرفها ، فلما سمع وقع حوافر الفرسان العرب الثلاثة ، هرب موليا الأدبار ، ثم يتبين لهم أنها هند بنة امرىء القيس خلّفها أبوها وهو في طريقه الى القسطنطينية في حماية دمشق ، لتتوسط الغساسنة في استرداد دروع أبيها التي أودعها قبل موته عند السموأل بن عاديا ، ثم أخذها الروم منه ، ويظهر للقوم أن هند بنة امرى القيس على علم بخبر النبي الجديد · فتطلب منهم أن ينطلقوا الى سطيح الكاهن ليعلمهم بنبئه · ويعرض عليها الثلاثة أن ترافقهم الى بصرى فتعتذر لأنها تريد أن تنتقم من هيباس فتشكوه الى عامل قيصر ، فان لم ينتصف لها ستلجأ الى هانىء بن مسعود سيد بني شيبان ·

وفي تلك الليلة ذاتها كان الفتى عمرو بن الحارث الغساني الذي بهر جماله العذارى يطارح حبيبته مارية الغرام في قصره المطل على بردى فشغله ذلك عن سماع صوت استغاثة هند ، وكانت مارية جارية أهداها قيصر الروم الى عامله المنذر فأحبها وأخوه عمرو وساح معها أكثر من مرة في بلاد الروم ، وعاشت مارية في قصر البريص ، وفيما هما يتناجيان في تلك الليلة ، سمعت مارية جلبة ، فأضاء حراس القصر المشاعل فعثروا على أبي سفيان وصحبه ، وأطل عمرو فدعاهم للدخول الى قصر الغساسنة ، وأكرم وفادتهم ولا سيما أن من بينهم شاعر الغساسنة حسان بن ثابت ، ووقعت عينه على هند فقدّر أنها من قريبات هؤلاء الحجازيين ·

وتقص هند على عمرو بن الحارث نبأ النبي المبعوث وما أخبرها به الكاهن سطيح ، فيقول عمرو : ان سطيحاً لجدير بكل ثقة وإنه لا يكذب ، وسالت دموع أمية حين تيقن أنه لن يكون النبي الموعود، ولم يلحظ أحد حسرته • ويعمر المجلس بحديث الشعر وأخبار امرىء القيس ، وترفع هند ظلامتها لعمرو بن الحارث وتخبره بما لحقها من هيباس فيطمئنها أن الحارث بن جبلة سيغسل هذه الاهانة ولن يطلع صبح الغد على هيباس وهو حي، وأنه سيشكوه الى قيصر ،فان لم يعاقبه انتصف لها منه بنفسه • وتدخل مارية فيذهل القوم للشبه بينها وبين هند،وتقص هند على الملك المنذر بن الحارث قصة دروع أبيها ، فيعرض عليها أن تمكث مع مارية في القصر ريثما يسافر الى القسطنطينية ، ويعرض الأمر على قيصر ، فتشكره وترجوه أن ينسى نذالة هيباس وألا يلوّث يده بدمه الفاسد •

ويعود الثلاثة الى دير ايلياء قرب دمشق حيث وفد اليه بحيرا من بصرى ، فيحسن وفادتهم ويدور حديث طويل عن شعراء الحجاز ومنهم النابغة وعنترة وربيعة بن مكدم ، ويطل الراهب من النافذة فيعلمهم أن النبي ظهر وهو يقترب من بصرى في احدى القوافل ، ويسألونه ان كان يؤمن به ، فيجيب : « آمنت به •• وهو لا يبرح جنيناً في أحشاء أمه •• » •

ويزيل شكوكهم ، فيعلمهم أن سطيحاً يعرف من أمره اليقين وهو مقيم الآن قرب البلقاء •

وكان هيباس يترصد أبا سفيان وصحبه بعد تدخلهم تلك الليلة وانقاذهم هنداً من مخالبه ، فلما رآهم يدخلون الدير ، دهمهم وصحبه ، فكانت معركة سقط فيها عدد من جنود هيباس ثم بارز أبو سفيان هيباس فطعنه ، وفرّ الرومي هارباً فألقى بجسمه في ماء النهر ولفظ أنفاسه ،ويتابع الثلاثة طريقهم الى بصرى قبل انبلاج الصباح •

وبينما كانت قوافل أبي سفيان تدخل بصرى ، كان المنذر الملك الغساني يدخل موكبه دمشق عائداً من القسطنطينية، وقد كان لمصرع هيباس صدى مزعج في نفوس الروم ، ومبعث فرح لهند ، لأنها أخذت بثأرها منه بسواعد أبناء أمتها العرب • وتمرض مارية ، فيقرر عمرو أن يرتحل معها الى موطنها القسطنطينية

التي زارها أبوها ومات في طريقه اليها • وتقرر مارية أنها ستجمع بين عمرو وهند وعمتها وليلى تلك المرأة العربية التي كانامرؤ القيس يتردد اليها في عاصمة الروم؛ وهي سيدة عربية فرضت احترامها ومكانتها على قيصر وأعيان العاصمة • ويدخل ملك الغساسنة فجأة فيعرف هنداً لأنها كانت قد راجعته من قبل في قصة الدروع ، ويسأل عن حسان فيعلم أنه سافر الى الحجاز في غيابه ، ويخبره عمرو بقصة الاعتداء على هند ، فيغضب ويخشى شماتة النعمان بن المنذر ملك المناذرة لأنه لم يحم عرض فتاة استجارت به •

لم يغادر حسان دمشق الا بعد أن اجتمع بصديقه جبلة بن الأيهم الذي جمعه بدوره بعلقمة الفحل والنابغة ، فكان لقاء بين عمالقة الشعر تبادلوا فيه القصيد في بلاط الغساسنة ، وانصرف كل منهم الى سبيله •

ويقرر المنذر ملك الغساسنة أن يخرج لقتال النعمان بن المنذر اللخمي ملك الحيرة ، فاتجه جيشه الى العراق بطريق تدمر ، والتقى الجيشان ، فكانت معركة عنيفة خسر فيها المنذر الغساني ثلث جيشه ، لكنه استطاع أن يأسر قابوساً ابن ملك المناذرة ، فلما مثل بين يديه ، قال له الملك الأسير : إن الملوك لا تجز نواصيها فرجاه المنذر أن تطوى الثارات ، ويصفوالدم العربي المراق ، وأطلق سراحه آملا أن يقبل أبوه بهدنة طويلة بين الخصمين •

وتنتهي المعركة في الخامس عشر منحزيران عام ٥٨٠ م • وتثب دمشق كلها لاستقبال المنذر المنتصر ، ويمر في مقدمة جيشه يبرق تاجه تحت سماء صافية ، وتنهمر عليه الرياحين والأزهار من الناس المنتشين ، لكن الملك كان حزيناً ، لأنه لم يكن راضياً في أعماقه عما ارتكبه جنوده من قتل ونهب في مضارب أهله وقومه وأبناء عمومته المناذرة ، فكان ضميره يثقله ، وماإن اجتمع بأولاده حتى انهمرت دموعه ألماً ، ثم آوى الى فراشه وقد هدّه التعب • لكنه لم يستطع أن ينام تلك الليلة ، وأحسّ جبلة بقلق المنذر فدخل الى مخدعه وسأله عن سبب أرقه ، فصارحه الملك بأنه حزين لما جرى ، وانه غير آمن على نفسه من قيصر الروم جوستنيان، ولا سيما أنه طلب منه أن يزور القسطنطينية ، ويصحب معه ولده •

وفي صباح اليوم التالي يتوجه موكب الملك الغساني الى القسطنطينية ومعه عمرو ومارية وهند سالكاً طريق حمص فحلب •

ويمر حسان بن ثابت في طريق عودته بالبلقاء ، ويحاول أن يزور الكاهن سطيحاً ومعه أمية ، فلا يجدانه في كهفه ، بل يجدان عجوزاً شمطاء تسخر من أمية وادعائه النبوة ، وتعرف أنه المتنبّىء الكذاب من قروح في وجهه ، ويعلمان منها أن سطيحاً في البتراء ، فيتابعان طريقهما اليها ويقفان أمام معالمها العربية الأصيلة، وقد كانت مدينة عظيمة نافست روما ، ويلتقيان فيها قافلة أبي سفيان عائدة من دمشق ، وبعد قليل خرج من المغارة سطيح ومعه شق بن أنمار بن نزار ، وكان ذا يد واحدة ورجل واحدة وعين واحدة ، وكان سطيح يدرج في ثوب ولا عظم له الا الجمجمة ، وقد بعث منظرهما الرعب في نفوس الوافدين ، وكانت لهما مكانة عظيمة في النفوس لمعرفتهما الغيب ودورهما في التحكيم بين الناس والقبائل، ويتكلم سطيح فيبشر هؤلاء الرعاة من العرب بفجر جديد ونهضة عظيمة ، يقود لواءها نبي عربي عظيم من ولد غالب بن فهر ،فيبكي أمية لأنه لن يكون ذلك النبي ، ويطلب حسان من سطيح أن يقرأ له طالعه فينبئه أنه سينال حظوة لدى النبي الجديد ، وسيسعد هو وأولاده بصحبته ٠ويعود الركب في طريقهم الى الحجاز وأمية يردد :

ـ قتلني سطيح ٠٠!!

وتعرّس قوافل أبي طالب في رحلة أخرى في (بلاس) قرب دمشق ، وقد اجتمع النصارى في دير الحارث لسماع صلاة بحيرا الراهب الذي يعتكف بعد الصلاة في (بلاس) ٠ فيذهب أبو طالب لمقابلته ويدعوه بحيرا وصحبه لتناول الغداء، ويتخلّف عن الركب طفل في العاشرة من عمره ، طفل يتيم ماتت أمه فكفله جده عبد المطلب ، فلما مات جده كفله أبو طالب وأحبّه ٠ وكان يرافق القافلة الى بصرى ، فيطلب بحيرا إحضاره ، ويسأل عن اسمه ،فيعرف أنه يدعى محمداً ٠ ويتملّى بحيرا طويلا بقسمات الطفل الهادىء الوادع ، ثم يستبد به ذهول ٠٠ فيقول لأبي طالب :

ـ ان لابن أخيك هذا لشانا ، وانه نبي موعود سيدعو الى ديانة مهذّبة تصقل العقل ، وتمحو الوثنية ٠٠ !! وأنه سيعيش مضطهداًيتيما كما عاش عيسى وموسى ، لكن سيدين له العرب ٠ ويملك الروم والعجم ٠

ويُقبل أبو طالب على ابن أخيه ، فيسأله :

ـ أسمعت ما قاله بحيرا ..

فيجيب الطفل العظيم : لا تنكر يا عم أن لله قدرته .

فيحتضنه أبو طالب ، ويصرخ أنه آمن برسالته قبل بعثه .

ويودع أبو طالب بحيرا ، فيعلمه الراهب أنه يشعر باقتراب أجله ، ويرجوه إن لم يجده في رحلته القادمة أن يُصغي الى نصائح راهب آخر هو (نسطورا) فهو يؤمن برسالة الصبي وسيعضده .

- ٢ -

جلا الأحباش عن اليمن بعد سنتين من ولادة الرسول ، وأقبلت وفود العرب على سيف بن ذي يزن تهنئه بالنصر . وفيها وفود قريش ، وخطب عبد المطلب خطبته المشهورة ، ثم خلا بسيف بن ذي يزن ، فأخبره سيف أنه سيولد بتهامة غلام بين كتفيه شامة ، وتكون له الامامة والزعامة الى يوم القيامة . فيفرح عبدالمطلب لهذه البشارة ويعلمه أن حفيده محمداً ﷺ فيه كل ما ذكر من علامات ، فيفرح سيف ويرجو عبد المطلب أن يحذر على الصبي من اليهود ، وأنه يجد في الكتاب المناطق والعلم السابق أن يثرب ستكون دارهجرته وبيت نصرته ، وأنه سيتابع رسالته في تحرير العرب من الدخلاء ، بعدأن تهيأت للجزيرة العربية ظروف مؤاتية .

ومرت أربعة أشهر على رجوع أبي سفيان من الشام الى مكة ، وقد أخذت مكة تستقبل وفودالقبائل استعداداً لسوق عكاظ ، وتبارى الشعراء الذين تنبهت مشاعرهم القومية بعد هزيمة الأحباش في عرض قصائدهم في سوق عكاظ ، وأهدى سيف بن ذي يزن الى الكعبة كسوة فاخرة حملها عبدالمطلب في زيارته ، فكان من شأن هذا التلاقي أن يوحد كلمة العرب ، ويصفي الأحقاد ، ويقرب بين القبائل . وأهدى النعمان ملك الحيرة مجموعة نفيسة من التحف ، وفي غمرة هذا الحشد العامر من الناس يبرز ورقة بن نوفل وهوفي السبعين من عمره ، فشكر الله الذي منع البيت وطهره من الرجس وترحم على عبدالمطلب الذي غيبه الموت ، وهنأ العرب بالنصر ، وخطب أبو طالب فمدح ملوك الغساسنة والحيرة ، وأظهر دور قريش في حماية البيت وسدانته ، والسهر على أمن الحجيج اليه ، وانقضى الموسم فتوجه

ورقة الى سـفح الجبل القائم بين مكـةوعكاظ ، فأشـرف على مكـة وطافت في نفسه الخواطر فانثنى يقول :

ـ ان هذا الهواء الذي ينبعث ندياً سائغا، يحمـل الى نفسي عبق ذلـك النبي العظيم الذي سيجيء بعثه منحة من أبهر منحك أيها الاله القدير ، وان في قدرتك يا رب أن تطبع هذه هذه الصحراء المتبرمة بعزلتها عن العالم جلال الديانة ، وعظمة النبيين الذين يحملون الى الانسان الغريق الخلاص ٠

واتجهت الجموع من مكة الى عكاظ، وكانت أسماء الشـعراء المشاركين في الموسم مكتوبـة بالذهب ، ويقبل عنتـرةوقيس بن زهير وعلقمة بن عبدة وزهير وحسان وعروة والخنساء ، ويجلس شرفاء الوفود من قريش وغسان ولخم وحمير في أماكنهم ، ثم يقبل النابغة حزيناً يتعثرفي مشيته ، ويسأل الناس عنترة عن سـر وجومه فيخبرهم بقصة زيارة النابغة لملك الحيرة ، ورؤيته زوجته المتجردة ، وما قاله فيها من وصف رائع ، وغضب ملك الحيرةلصراحته في وصف زوجته ٠ ويلقي عنترة والنابغة أجمل شعرهما في عكاظ فتطرب النفوس وتهيـج ، وكـان الشعر ديانـة العرب الوحيدة في الجاهلية التي تهـذب النفس وتصقلهـا ٠

وبعد هذا الموسم أخذت قريش تسترد مكانتها ، وقد انتصرت على الأحباش ، وكانت قريش تحتل مركزاً تجارياً بارزاً في الجزيرة ، الى جانب مكانتها الاجتماعية والدينيـة ، ولبثت مكـة حرماً مقدسـاًلا يقتحمه عدو مغير ٠

وفي العقد الأخير من عـام ٥٨٠ م ٠اجتمع سادة قريـش في دار عبـدالله بن جدعان لدراسة قرار الروم بمنع قوافـل العرب من الدخول الى الشام بعد أن ثار أبناء المنذر الغساني على الروم بسبب حجز أبيهـم في القسطنطينية واستغـلال المناذرة هذا الخلاف بين الروم والغساسنة وتوغلهم في بلاد الشام ، ودرس المجتمعون الكوارث التي تحيق بالعرب بسبب اقفال حدود الشام ، فيطلب اليهم ورقة بن نوفل أن يخلـدوا للسكينـة ، وتكلم أبو سفيان الذي أصيبت تجارته ، فأبدى مناصرته للغساسنة ضد الروم ، وقرر المجتمعـون أن يرسلوا وفداً لملك الحيرة لوقف الغزو على بلاد الشام ٠

ويقصد أبو طالب منزله بعد حضور النـدوة ، فيضم اليتيم الى صدره وقـد بلغ الثانية عشرة من عمره ، وينظر اليه وهو يضحك ويتفحصه ويركز بصره على

كتفه الذي يحمل خاتم النبـوة ، ويذكرطفولته وهو يرعى الغنم . فيتذكر طفولة موسى وعيسى ثم يخرج من تأملاته وهوأكثر ايماناً بحديث بحيرا ، ويسأله الطفل: ان كـان يـؤمـن بالأصنـام ، فيبهـتأبو طالب للسؤال ، وتزداد دهشته حـين يقول له الطفل اليتيم : أما أنا فمـازلتأمقتها وأجفوها .

وتطول غيبة النعمان ملك الغساسنةفي عاصمـة الروم ، ويحاول قيصـر أن يتزلف اليه ، فيخلع عليه في أول زيارتهتاج الملك ورتبة بطريق ، ويتوج بحفـل رسمي في كنيسة آيا صوفيا ، مثلما صانعالروم أباه قبله . وتحضر ليلى العجوز حفل التتويج ، فتسخر من أساليب الروموسذاجة ملوك الغساسنة الذين يقدمـون خدماتهم للأجنبي مقابل عروش من ورق ،فاذا خالفوا مشيئتهم ، كان قتلهـم أسهل من قتل ذبابة ، وتنطلق ليلى العجوز الىالكنيسة الى شـواطىء آسية الجميـلة ، وتلتقي هنداً علىالشاطىء وكانت تعرفهامنذ طفولتها في القسطنطينية ، ثم تتحول الى ساحة ايبودروم المقفرة ، ويجـوس نظرها بتماثيل القياصـرة ، وتستعرض ماضيهم المثقـل باللصوصيـة والجـرائمفتهافتت على تمثـال جوستنيان تضربـه بعصاها وتذكر صاحبه بجرائمه ومباذله،ثم تركع أمام تمثال امرىء القيس الذي نحتـه المثـال روزاس فتؤكدله أن ساعـةالانتقام آزفـة ، ثم تتحول الى شـوارع العاصمة تبيع عقاقيرها وعطورها ، وتدبرمغامـرات الحب للعاشـقين ، وتمـارس سحرها المقبول بين الناس .

وتتحول باحثة عن هند ومارية في غابة القصر . وكانتا تتحدثان عن حبهمـا لدمشـق وحنينهمـا الى بلاد العـرب ،وتفضيلهما وطنهما والحياة فيه ، وتحدثها مارية عن ماضيها المجهول ، فقـد حملتالى قصر ايرين ، وقدمت هدية لقيصـر وهي ابنة سبع سنوات ، ولما بلغ عمرهاعشر سنوات أهداهـا قيصر لعمـرو بن الحارث ، وهي لا تعلم عـن ماضيها شيئاً، ثم تصيبها اغمـاءة اثر دخول عمـرو فتطلب بالحاح من عمرو وهند أن يرداهاالى أبيهـا وأمها ، فيـدرك عمرو أنهـا مشرفة على المـوت ، ثم تلتمس هنـد منعمرو أن يقودهـا الى لـيـلى الساحـرة لتسمع حكاية أبيها امرىء القيس ، فيصلان الى منزلها ، وتصارح ليلى مارية أنهـا ابنة امـرىء القيس مـن سيلفيا ابنـةالقيصـر جوستينيان فقـد أحبها امـرؤ القيس ، وكانت مارية ثمرة حبهما وهي بالتالي أخت هند وان دروعامرىء القيس

ما زالت عند ليلى تحتفظ بها • فتتعانق الأختان هند ومارية ، وتكون مفاجأة لا تتوقعانها •• !! فمارية ابنة ملك عظيم وأميرة رومية نبيلة ، وقد شعر جوستينيان بعلاقة امرىء القيس بابنته فدبّرت لـه زوجة قيصر مقتله بالسم في طريق عودته من بلاد الروم ، وخشي قيصر أن تنشأ الفتاة مارية على حب الانتقام فأوكل الى ليلى تربيتها ، ثم أهداها الى ملك الغساسنة ليبعدها عن عاله ، أما ابنته سيليفيا فلم تطق فراق طفلتها ومقتل حبيبها امرىء القيس فدنفت حتى ماتت •

وتودع ليلى عمرواً وهنداً ومارية وتخبرهم بالخطر الذي يتهدد المنذر لأن قيصر قرر احتجازه بسبب تهاونه مع المناذرة ، وتذكر لهم أن مأساة امرىء القيس ستتكرر في شخص المنذر •

وفي قصر جوستينيان كان المنذر يجادل قيصر ملك الروم وقد أخذ ملك الروم يلوم المنذر على تقاعسه في محاربة المناذرة والفرس ، ويذكره بأغلاط آبائه ، ويتهمه بالتواطؤ في قتل القائد هيباس ولم يضعف المنذر أمامه بل ذكره أيضاً بغدر قياصرة الروم وقلة وفائهم بمبادىء الحلف ، واستغلالهم الصداقة لمصلحتهم ، وفي تلك الفترة تلج ليلى القصر وقد تطور الجدال الى مشادّة ، شعر قيصر بعدها بالتوعك ، وأطفئت أنوار القصر بغتة بتدبير من ليلى فلجأ قيصر الى سريره ، وقد استطاعت ليلى أن تسكر حرسه ، وتطلب ليلى من المنذر أن ينجو بجلده لأن قيصر بيّت له الشر ، فيخرج ومعه هند وعمرو ومارية التي كانت في النزع الأخير ، ويمتطي وصحبه زورقاً هاربين من العاصمة ، وتقترب ليلى من سرير قيصر ، وتزعم أنها جلبت له دواء مسكناً يهدىء قلقه ، فتدس له السم من مستحضر جلبته من كهف الحياة ، فيصيبه مس من الجنون ، وامتطت ليلى زورقاً الى قصر تيودوس لايقاظ حرس غسان النيام ، فيفرون بدورهم عن طريق الخليج •

واستفاق الناس صبيحة اليوم الثاني ليسمعوا بجنون سيدهم قيصر دون أن يعرفوا له سبباً ، وتسود الفوضى في الجيش والكنيسة والدولة ، ويصبح البطريرك طيباريوس وصياً على العرش ، وكان مكروهاً من الناس ، وأما المنذر فيستقر على الحدود حيث يتلقى نبأ وفاة مارية ويواسي عمرواً ويخبره بما فعلت ليلى ، ثم يتم دفن جثة مارية ، ويودع الملك الغساني وصحبه البيت المنعزل ، ويمضون في طريقهم الى الشام وقد بلغت مسامعهم بعثة النبي •

واجتمع مجلس الشيوخ الروماني ،فنادى بطيباريوس قيصراً جديداً ، وأمر باعتقال البطريرك ملاتيوس وكان محبوباً من الرعية ، وبعد قليل أعلن قصر الامبراطورة ايرين نبأ موت جوستنيان الثاني ، وكانت هذه الأحداث المتلاحقة نقطة البداية في تصدع امبراطورية روما٠

قضى المنذر أول ليلة من سفره في/ ايبنون / في سورية ، ثم توجه الى الشام والفرح يعم الأرجاء بعودته سالماً ،ويمر بسكّاء حيث دفن آباؤه في غوطة دمشق ، وقد هدّه عناء السفر وعجز الشيخوخة والمرض ٠ وفي شدة مرضه يقرر عقد زواج أخيه عمرو من هند بنة امرىء القيس ، ويبارك لهما ٠ وأما ليلى فتقرر السفر الى الحجاز للبحث عن« سيد قريش » هذا النبي العظيم الذي ملأت أخباره الآفاق ٠ وما كاد القوم يغادرون المنذر حتى ثقل عليه المرض فأسلم الروح في نهاية عام ٥٨٠ م ٠ وكان وفد قريش في طريقه الى الحيرة يلتمس من ملكها عقد سلم طويل مع غسان ،فارتضى النعمان ذلك ، وفرح الناس لهذا التقارب والتآلف في حياة شعب واحدأخذ يحس بحاجته الى تضامن وثيق يدفع عنه أذى الروم والفرس ٠

* * *

- ٣ -

اجتمع مشركو قريش في دار الندوة ، لينظروا بأمر محمد ﷺ بعد أن ظهرت دعوته ، وكانوا قد قدموا الى أبي طالب عمه فقالوا له : ان ابن أخيك قد عاب ديننا ، وسفّه أحلامنا ، وضلل آباءنا ، فانهه عنا ، أو خلّ بيننا وبينه ٠

فلم يفعل ، وتأخر عن الدعوة ورقة بن نوفل ، ثم أقبل على القوم فندد بموقفهم ، وتدخل ليلى الكندية على القوم ، فتسأل عن سيد قريش ، وتنكر على القوم معارضتهم دعوة النبي ﷺ وفيها حرية العرب وسيادتهم ، ويتحول القوم الى دار أبي طالب ، فيشكون اليه ذهاب هيبتهم بعد أن تجرأ الفقراء الذين آمنوا بدعوة الرسول على أشراف قريش ودينهم ، ويرفض أبو طالب التخلي عن ابن أخيه ، فيصيحون به : لقد زهدك ابن أخيك في دين آبائك ، وانصرفوا عنه حانقين ٠

وتدرك خديجة أن محمداً ﷺ نبي هذه الأمة ، وقد أكد لها ورقة بن نوفل وميسرة ما يثبت هذه النبوة ، ولمحت علاماتها البينة في ملامح الرسول، فأرسلت جاريتها نفيسة بنت علية تعرض عليه الزواج ، فخطبها الرسول الكريم ، وشهد على ذلك صناديد قريش ..

ورفض أبو طالب أن يسلم محمداً (ﷺ) لمعارضي دعوته من القرشيين والتمس منه أن يتحول عن دعوته ، فقال له : يا عم ، والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه .

وكان سيد قريش يعتزل الناس في غار حراء كل سنة شهراً ، ثم يعود الى بيته ، فيطوف حول الكعبة سبعاً ، ثم يفد على المساكين فيطعمهم ، غير أنه منذ صيف ٦١٠ م صدف عن مخالطة العالم ، واعتزل أسابيع عديدة قضاها في الصوم والعبادة حتى ظهر له جبريل ، فقص على زوجته ما رآه ، ثم ظهر له ثانية في بيته ، وفي المرة الثالثة تراءى له في السابع عشر من رمضان « ١٣ شباط ٦١٠ » في غار حراء ، وأمره أن يقرأ وكان يجهل القراءة ، فضمه ضمة شديدة .. وقال له :

[ـ اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الانسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذي علم بالقلم ، علّم الانسان ما لم يعلم .]

ويستفيق الرسول ﷺ من غيبوبته ويترامى النبأ الى ورقة بن نوفل . ثم يتوالى الوحي على محمد ﷺ فتؤمن خديجة برسالته ، ثم يؤمن علي بن أبي طالب فزيد بن حارثة . وطافت ليلى الكندية حتى بلغت الكعبة ، فخطبت بالناس ، ونددت باستيلاء الفرس على الحيرة ، ومطاردتهم الغساسنة ، وزحفهم الى أراضي غسان ، وأهابت بالعرب أن تجتمع كلمتهم لنصرة الدين الجديد الذي ينقذ بلادهم من ربقة الأجنبي . وتفعل كلماتها في نفوسهم فعل السحر ، فيلتمسون من ورقة أن يدلهم على بيت سيد قريش ، ليذهبوا اليه ، ويؤمن أبو بكر ، فتتعزز بايمانه الدعوة ، ثم يؤمن عثمان بن عفان والزبير بن العوام وعبدالرحمن بن عوف وطلحة بن عبيدالله وصهيب الرومي وعمار بن ياسر وأبو ذر الغفاري وسعيد بن زيد العدوي وزوجه فاطمة بنت الخطاب وأبو سلمه ابن عبدالله المخزومي .

ويلبث الرسول ﷺ ثلاث سنوات يدعو للدين الجديد سراً في بيوت الفقراء

والمساكين حتى التحق بالدعوة خلق كثير ،ويعقد القرشيون صلات مع الفرس لتوثيق تجارتهم بعد اكتساحهم الشام وانتصارهم على الروم، ويأسى المسلمون لانتصار الفرس ، وتتسع الدعوة فتتجاوزمكة ، ويقرر الرسول ﷺ أن يدعو بني عبدالمطلب عشيرته الأقربين الى الدين الجديد ، فيتحولوا عن عبادة الأصنام ٠ وبسبب ضغط الفرس على بلاد الشام ،اضطر قيصر روما فوكاسي أن يصالح الغساسنة ، وأقام عمرو بن الحارث ملكاًعلى البلقاء وبصرى وفلسطين ، ولكن الفرس اجتاحوا سورية وطردوا أمراء الغساسنة ، وقتلوا عمراً وجبلة بن الأيهم. وكانت أنباء الدعوة الجديدة قد بلغت دمشق ، ولم يكن أهلها أقل تعاطفاً مع الدعوة بسبب ما عانوه من آلام ومحن بسبب صراع الروم والفرس ٠ كذلك لم يكن أهل العراق أقل حماسة لها بعد أنزحزح الفرس النعمان عن الحيرة ، وعينوا عليهم عميلا لهم يدعى اياس بن قبيصة ٠

ودعا الرسول ﷺ بني عبدالمطلب الى طعام في بيته ، وبعد أن شبعوا خطب فيهم قائلا :

[يا بني عبد المطلب ، اني ما أعلم شاباً في العرب جاءكم بأفضل مما جئتكم به ، قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة ، وقد أمرني الله أن أدعوكم اليه، فأيكم يؤازرني على هذا الأمر يكون أخي وصاحبي] ٠

ولم ترقهم لهجته ، فضحكوا منه ،فما ثناه ضحكهم ٠

وسار حتى بلغ الصفا على جبل أبي قبيس ، ورأى الفرصة سانحة ، فاستند الى عصاه ، وصاح بقريش ،فاجتمعت كلها ، ودعا قومه للايمان فأنكر عليه أبو لهب دعوته ، وجابهه والشر يقطر في عينيه فحماه عمه أبو طالب ، وأبدى اصراره على نصرته ٠

وتجتمع قريش كلها في دار أبي طالب ، ويقول أبو طالب لسيد قريش : أي ابن أخي ٠٠ هؤلاء مشيخة قومك ٠٠ وقدسألوك أن تكف عن شتم آلهتهم ، ويدعوك والهك ٠٠

فيقول السيد : أي عم ٠٠ أولا ادعوهم الى ما هو خير لهم منها ٠ كلمة يقولونها تدين لهم العرب بها ، ويملكون رقاب العجم ٠

قال أبو جهل : ما هي ٠٠!,

قال : تقولون لا اله الا الله ٠

فنفروا وقالوا : سلنا غير هذه ٠

فقال : لو جئتموني بالشمس حتى تضعوها في يدي ما سالتكم غيرها ٠

وخرج القوم مغضبين ، وراحوا يتآمرون على سيد العالم ، ورأوا قبل أن يصارحوه بعدائهم أن يوفدوا له وفداً مؤلفاً من كبارهم ٠ لكن الوفد اصطدم بورقة بن نوفل الذي ردهم الى منازلهم ٠

ويمر ورقة بن نوفل بعمار بن ياسر مشدوداً الى صخرة مقيداً بأمراس ، فيسأله عمن فعل به هذا ٠٠ !! فيعلمه أن جماعة المشركين من قريش قتلت أباه وأمه وقيدته تحت حر الشمس ، ثم يبدو لورقة وليلى الكندية أن بعض القرشيين يسوقون جماعة من المؤمنين الفقراء وقد أثخنتهم الجراح ، وبينهم بلال الحبشي فينزعون عن بلال لباسه ، وينهالون عليه بالضرب الموجع ، ويقيدونه بصخرة فوق صدره ٠٠ وهم يرددون : هكذا تموت أو تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزى .. وهو أشد ما يكون صبراً وجلداً ، فيحرره ويسأل عمار عن الرسول ، فيقول له ورقة :

— انه يرسم بدماء الشهداء حدود العالم الجديد الذي سيخرج اليه عما قريب ٠

ويخطب الوليد بن المغيرة في الكعبة ، فيطلب من مشركي قريش أن يجمعوا أمرهم ، ويوحدوا موقفهم من الرسول (ص) ٠٠ فيتهمه أبو جهل بالخروج عن دين آبائه بعد أن وصف لهم ما سمعه من الرسول (ص) :

(اني سمعت قولاً ما سمعت مثله ، والله ما هو بالشعر ولا السحر ولا بالكهانة) ٠

ويمر عمر بن الخطاب ، فيطلب منه أبو جهل أن ينطلق الى بيت أخته التي أسلمت مع زوجها ، وتركت دين الآباء ، فيتجهم وجه عمر ويصمم على الذهاب الى منزلها بعد أن شاع أمر اسلامها ٠ ويلج منزلها ، فيدلف منه صغارها بعد أن سمع ترتيلهم القرآن من الخارج ، ويسأل صغيرهم عمن علمه النشيد فيخبره أنها

أمه وأنها علمته أموراً كثيرة : منها الدعاء الى الله له بالتوفيق ، وفيما هو يبتسم للصغار يدخل زوج أخته سعيد بن زيد العدوي ، فيوبخه على التحول عن دينه ٠ ويدخلان معاً الى فاطمة بنت الخطاب وقد انتبذت ناحية من حجرتها تقرأ سورة طه بصوت رقيق ، فأشجى عمر صوتها ، وأخذته بلاغة ما سمع ، وأرهبها مقدمه ، وراح يلومها على ما سمع من الناس عن اسلامها ، ثم انتزع الكتاب منها فطلبت منه أن يتوضأ قبل أن يمسه ، وتوضأ عمر وراح يقرأ سورة وما أن أتمها حتى طلب منها أن تدله على محمد ﷺ ليسلم على يديه ، ثم يلج دار ورقة ابن نوفل وقد ثقل عليه المرض ، فيقص على ورقة قصة اسلامه ، فيشرق جبين ورقة بضياء الفرح ويقول :

ــ كان سيد العالم يقول : « اللهم أعزّ الاسلام بأحب الرجلين اليك ، عمر بن الخطاب وعمرو بن هشام » ٠

ويتكلم ورقة ، فيأمل أن تكون الفتوح على يد عمر وتحت راية سيد قريش ، ثم يلفظ ورقة روحه بعد ماضٍ مشرق بالايمان ، فيحزن الناس لوفاته ، ويشيعون جثمانه من الكعبة ٠

وخرج الرسول الكريم ﷺ من عزلته بعد اسلام عمر ٠ فقاد عمر وحمزة جموع المؤمنين الى الكعبة ، فطافوا بالأصنام والتماثيل فعبثا بها ٠ فلما رأى غطاريف قريش ما فعلوا ، مضوا الى أبي طالب يطالبونه بتسليم ابن أخيه ، وتآمر المشركون على قتل محمد ﷺ ، ولكنهم تراجعوا بعد أن هددهم أبو طالب فتفرقوا ٠

وثار أناس من قريش بمن آمن من قبائلهم فعذبوهم وسحبوهم وفتنوهم عن دينهم ، فدعا الرسول ﷺ صحبه وقال لهم : تفرقوا في الأرض ٠٠

فقالوا : أين نذهب ٠٠

فقال : ها هنا ٠٠ وأشار بيده الى أرض الحبشة ، وكانت أحب البلاد الى نفسه ، فخرج أصحابه منسلين ، وكانوا أحد عشر رجلا وأربع نسوة ، فركبوا سفينتين للتجار أقلتهما الى الحبشة حيث الأمن والسلام ٠

ويموت أبو طالب بعد شهور ، فيأسى لموته سيد قريش ، وتموت خديجة بنت خويلد بعد موته بثلاثة أيام ، وتنمّر المشركون ، فخرج الرسول من مكة حتى لا تلحق به خيل قريش ، ثم تحوّل الى الطائف ، وأقام في عكاظ خلال الموسم يدعو الناس الى رسالته ، وفيما كان يخطب في الناس مرة أغري به السفهاء والعبيد فراحوا يسبونه ويرمونه بالحجارة حتى اختضبت نعلاه بالدماء ، وزيد بن حارثة يدفع عنه وهو يردد :اللهم اليك أشكو ضعفي وقلة حيلتي وهواني على الناس ··

فينتصر له شيخان من شيوخ قريش هما عتبة وشيبه ابنا ربيعة · ولم يمنعه شيء من متابعة رسالته السامية فانطلق مهاجراً الى يثرب ، وبلغ المؤمنين من يثرب نبأ خروجه من مكة والطائف ،فعافوا بيوتهم ونزلوا في الحرة ينتظرون أن يوافيهم فيها ، واعترضه الأنصار كل يدعوه الى داره ، ويمسك بزمام ناقته ، فيسألهم أن يخلوا سبيلها فانها مأمورة ،وتبرك الناقة حيال دار مالك بن النجار فنزل الرسول عنها ·· وقال : هذا المنزل ان شاء الله ·· وأثارت هجرته الى المدينة ذكريات الماضي في نفسه ، فذكر أبويه وذرف الدمع ·

وفي دمشق ، كانت هند بنت امرىء القيس قد تحولت الى العبادة بعد مصرع زوجها عمرو في المعارك التي اقتحم فيها الفرس سورية ، وقد انعزلت في قصر مارية في ضواحي /منين/ بغوطة دمشق ،وكانت تتألم لانهيار الغساسنة وحرق الفرس قصورهم وآثارهم في سورية ،ويبلغ مسامعها ظهور النبي وانتشار الدعوة ، فتفرح اذ حان اليوم الذي ستثأر فيه لأبيها وزوجها وأهلها من الفرس والروم ، وتتعرف وهي في غمرة فرحها بشرحبيل بن عمرو الغساني الذي قاد كتائب الغساسنة وطرد الفرس من سورية متعاوناً مع الروم ، ولم يسعدها النصر لأنها كانت تؤثر أن يكون نصراً عربياً خالصاً ·

ويغادر أمية بن أبي الصلت الجزيرة الى دمشق ، ويأوي الى منسك /دارس/ معزولا عن العالم ، وقد خاب أمله في أن يكون نبي العرب ·

وتجتاز ليلى الكندية الصحراء ،فتصل الى دمشق وقد هدّها الضعف والعجز فكانت كالشبح ، وتستقبل جموع المصلين في عيد الفصح ، لكنها كانت تصلي

في أعماقها لسيد قريش ، ثم تتحول الى قبور أحبائها فتناجي قبر عمرو بن الحارث الغساني ٠ وتقول : سيرى الذين يمرون بي في هذه اللحظة أنني لم أحمل الى دمشق بقايا العالم المتهدم ، بل سيرون أنني جئت اليهم بالعالم الجديد ، عالم سيد قريش ٠ !!

وفي قصر شرحبيل بن عمرو الغساني، كان النابغة الذبياني وحسان وأبو سفيان يزورون القصر ، وقد أخبرتهم هند أن عمتها ليلى اشتركت في معركة ذي قار ، وأن أخبارها انقطعت منذ زمن بعيد ،

ويتحدث أبو سفيان عن الرسول ﷺ ودخوله مكة وتحطيمه الأصنام وارساله الرسل الى ملوك الروم والفرس يدعوهم الى الايمان ، فتفرح هند باخبار سيد قريش ، ثم يدخل حنظله القائد الغساني الذي شارك في معارك ذي قار ، فيعلم هنداً أن فارساً ينتظرها ، وما أعظم دهشتها حين رأت عمتها ليلى .. !! وتتحدث العمة طويلا عن نصر العرب في ذي قار ثم يتبين أنها قادت كتائب كنده في هذه المعركة الظافرة ، فتسعد هند ببطولات عمتها وتبكي فرحاً ٠ وتعانق تلك المرأة العظيمة التي ناضلت من أجل مجد العرب وعزة كنده ٠٠

وتخرج المرأتان الى روابي جبل / سنير / فتشرفان على دمشق الخالدة ، وتلتفت ليلى الى ناحية الصحراء ، ثم تقول :

[ـ أترين الى هذه الرمال الوردية التي تتراءى من الأفق البعيد ؟٠ من هذه الرمال سيخرج الشعب العربي الى نواحي العالم ، ليبني المدن والصروح والمعابد تحت راية سيد قريش ٠٠!!]

* * *

هذه خلاصة موجزة عن الرواية ،ولا يخفى أن الايجاز لا يعكس جمال صياغة الكاتب ، وتحليله المسهب لشخصياتها ، ونقله أحاسيس كل شخصية ومشاعرها بحرارة وصدق حتى ليمكن أن تُعدّ /سيد قريش/ قطعة غنائية ، كتبت بنثر يقترب كثيراً من الشعر ، ومما زادها جمالا اهتمام الكاتب بوصف الطبيعة والبيئات ٠٠ مثل المقطع التالي الذي يصف فيه الطبيعة في ضواحي دمشق ٠٠ يقول :

[•• كانت الشمس في تلك الغداة تستريح في أحضان الشفق من تعب وسام ، وقد أشفت على الموت ، وأخذت أنوارها تخبو وتذوب في روعة الجبال الهاجعة الوسنانة ، كان عروس السماء تستجيب هذا النزع الذي يصاحبها العشية بين ذراعي الطبيعة •]

على أن رومانسية معروف الأرناؤوط وعواطفه الدافقة واحساسه المرهف وغنائيته البارزة في التعبير ، ونزعته الى تمجيد الألم شأن شعراء الرومانسية ، كانت اطاراً ناجحاً شديد الانسجام مع أحداث الرواية المأساوية ، فكل شخصية من شخصياتها البارزة يغتسل بالألم ،وتتغذى روحه من ينبوعه الدافق •

عمرو بن الحارث الغائب في حبه الأول بعد موت مارية ، وهند بنت عمرو الفتاة اليتيمة التي أجهدها طلب الثار لأبيها ، وليلى الكندية التي عانت وتشردت وشقيت لتصل الى طموحها القومي ، ومارية بنت امرىء القيس التي كانت ثمرة علاقة غير شرعية ، وقد دفعت حياتها ثمناً لآلامها وتغرّبها • وأمية بن أبي الصلت الذي جاهد من أجل أن يكون نبياً فما قدرت الأقدار لأحلامه أن تتحقق ، وسيد قريش الذي كانت حياته وحياة طلائع المؤمنين به سلسلة من العذاب المتواصل لبلوغ الهدف •

هذه الآلام الفردية تتساوق كلها لتخلق جواً درامياً في الرواية ، ما يلبث أن تخفف من حدته الانتصارات الفردية التي ينالها كل من هذه الشخصيات • غير أن الآلام والأفراح الفردية في الرواية تلتقي معاً ، لتصب كلها في ألم واحد هو معاناة الشعب العربي ، ثم تتحول الى فرح جماعي واحد بانتصار الدعوة واسترداد الشعب حريته وكرامته تحت قيادة النبي محمد بن عبد الله ﷺ •

فالرواية دراما تنتهي نهاية مفرحة يطمئن لها القارىء ، ومن ذلك يتبين أن ابداعية معروف الأرناؤوط لم تكن ابداعية تفرد وعزلة وألم وتشاؤم • انها ابداعية ايجابية متفتحة على الجماعة تسعى للبناء ، وتلتقي في أبعادها مع الشعر الابداعي الحديث في فترة التحرر الوطني والقومي ، وهو شعر رسم فيه الشعراء آلامهم الفردية لكنهم لم يتخلوا عن التعبير عن آلام أمتهم وقضاياها التحررية •

دمشق : عبداللطيف أرناؤوط

طائر سليمان عليه السلام

الهُدهُد

نادية الغزي

من صوت الهدهد الرتيب : هو ــ پو ــ پوپ HOU - POU - POUP .
انطلقت تسمية الهـدهـد في اللغات العالمية :
الاسم في اللغـة اللاتينية : UPUPA EPOPS
الاسم في اللغـة الفرنسية : HUPPE - FASCIE .
الاسم في اللغـة الانكليزية : HOOPOO أو HOOPOE .
كذلك استعملت اللغة العربية نفس المخارج الصوتية في التسمية : الهُـدْهُـد .

* * *

ورد ذكر الهُـدهُـد في القرآن الكريم في سورة النمـل .
بسم الله الرحمن الرحيم :
« وتفقّد الطير فقال ما لي لا أرى الهُدهُـد أم كان مـن الغائبـين » .
(صدق الله العظيم)
بسم الله الرحمن الرحيم :
« اذهب بكتابي هـذا فالقـه اليهم ثم تولَّ عنهم فانظـرْ ماذا يرجعون » .
(صدق الله العظيم)
بسم الله الرحمن الرحيم :
« يا أيها الناس عُلِّمنا منطق الطير واوتينا من كل شيء إن هذا لهو الفضل المبـين » .
(صدق الله العظيم)

* * *

هو طائر سليمان عليه السلام ·· النبي الذي علّم منطق الطير !

هو طائر سليمان ·· هو الغائب الذي تفقده النبي الحكيم وسأل عنه ! وتوعّده ان لم يأته بذكر سلطان مبين ·

هو الهُدهُد ؛ الذي جاء من سبأ مملكة بلقيس ، بنبأ يقين ، وهو الذي كلّم سليمان عليه السلام كذلك كلّمه النبي الذي يفهم منطق الطير ·

★ ★ ★

هو طائر الهُدهُد المخطط الموشّى ·

طائر الحكمة ·· وطائر الصوفية ··

الطائر ذو الأطوار الغريبة ·

وصف الهُدهُد :

– طائر طوله بين ٢٥ – ٢٦ سم ، ووزنه بين ٥٠ – ٨٠ غ ·

– طائر رائع المظهر ·

– أما الريش فمتماثل بين الأنثى والذكر ، كذلك ريش الفرخ مماثل لريش أبويه ·

– لكن الأنثى أرشق ·· وألوانها أقل بهجة من ألوان الذكر ·

– وفوق رأس الهُدهُد (غرّة) تسميها العرب (قنزعة) ذات ألوان برتقالية تتدرج حتى تصبح سوداء في نهايتها ·

– أما الريش فمزهّر مخلوط مع ريش رمادي واسود ·

– والريش الأسود يتحول في فصل الخريف الى لون بني داكن ·

– والهُدهُد ، طائر مبهر ·· وهذا الابهار ينتج عن جمال ريشه الأسود المقلم بالأبيض في الجناحين وفي الذيل ·

حركة الهُدهُد وطيرانه :

يلجأ طائر الهُدهُد الى حركات غريبة أثناء الطيران ·· وله أطوار أغرب أثناء هذا التحويم · وهذا ما جعل الناس في القرون الوسطى في أوربا ، ينسبون الى الهُدهُد أعمال السحر ·

الهُدهُد في الحضارات القديمة :

يملك الهُدهُد هيكلاً أنيقاً طريفاً لا مثيل له ·· ولقد أذهل هذا الهيكل الانسان منذ قدم الانسانية ··

– فقد شوهدت أشكال الهداهد محفورة على جدران المعابد في مصر واليونان .

– كذلك حفر الفراعنة على توابيتهم أشكال هذا الطائر الجميل .

– وتعتبر الهداهد من المحرمات في الوصايا العشر .

– والهدهد كان يعتبر نجساً بالنسبة للعبرانيين .

لتصرفات :

مما لا شك فيه أن تصرفات الهدهد غريبة وشاذة .. ولم يعرف السبب في هذا الاضطراب وهذا الشذوذ الى يومنا هذا .

فتلون الريش :

يجعل الطائر يمر دون أن يلحظه الكثير من الطيور والحيوان ..

يمر وهذه الخفة في المرور والاختفاء سببها السعي لمحافظة الهدهد على سلامته .

والطيران الغريب :

الذي يكون على شكل عتبات ، مثير للدهشة فعلاً .

فالهدهد لا يرفع جناحيه أثناء الطيران أكثر من الوضعية الأفقية ، ليبقى الهدهد سراً ولا يتحول الى طائر مرفرف .

وبشكل فجائي ، يتبدل طيران الهدهد (القفزي) نحو اتجاه آخر وبشكل آخر !!..

ويحدث كل شيء بسرعة وبديهية مما يجعل الهدهد بجناحيه الأفقيين يبدو أقرب الى الأسطورة ..

القنزعة أثناء الوقوف والطيران :

الوقوف: عندما يقف الهدهد ، تعود القنزعة فتنتصب على رأسه بعد أن كانت مائلة ، ثم ترجع الى وضعية الاسترخاء .

الطيران : تميل القنزعة نحو الخلف .. لكنها تنتصب أحياناً عند الطيران .. فتجعل من الهدهد طائراً محيراً سحرياً .

الراحة : أما اذا كانت الهداهد مستريحة فانها تطوي (قنزعتها) التي ترتكز فوق رأسها .

النوم : وأثناء النوم .. تحتفظ بها كما هي مطوية على راسها .. ويبدو آخرها متدلياً فوق المنقار ..

الذنب : يبدو ذنب الهدهد المنفرج طويلاً .. لكنه أثناء الطيران ، يبدو قصيراً بالمقارنة مع الجناحين الطويلين الفارعين .

المنقـــار : فاذا وقف الطائر الموشّى رأينا له منقـاراً طويلاً مقوسـاً ·· يضفي على هيئته الكثير من السحر والغرابة ··

الهبــوط : فاذا حط الهُدهُد على الأرض ، فبهـدوء · وقبـل أن يستقر تماماً فـوق الأرض ، يتأرجح قليلاً في الهواء ثم يقف ؛ فيغلق ريش جناحيـه ، ويطوي قنزعته ·· ويصبح أصغر بكثير مما كان يبدو أثناء الطيران · ويظهر هـذا التغيّر فجائياً ، مما يذهل الناظر اليـه ··

التجــول : فاذا تجول للبحث عن غذائه ، فبتثاقل طوباوي محيِّر ·· ثم يمضي بشكـل غير مرئي مما يثير العجب ··

وكأنه لا يخـاف ··

كأنـه لا يُخـدع ·

الخـدعـة : بلى ·· يخدع الطائر أثناء طيرانه فقط ··

أي أثناء التوجه والحركة والانطلاق وقلة التركيز ··

الغـــذاء :

- يحب الهدهد الحشرات الكبيرة ، والهوام مـن أمثـال العقارب والحرادين الصغـيرة ·
- وأثناء بحثها عن اليساريع ، تبدو الهداهد وهي تحفر الأرض بمنقارها الذي يساعدها · كما تساعدها جمجمتها القوية العظام ·

كذلك فكاها القويان ، القـادران على التغلب وعلى طحن بعض الأحجار في الأرض لتحصل في النهـاية على (البرقانة) أي (اليسـروع) الذي يشـكل الغـذاء الرئيسي بالنسبة اليهـا ·

طريقة أخرى في التقاط الطعام :

يلجأ الهُدهُد الساحر الى رفع فريسته في الهـواء ·· ثم يتلقفها بمنقاره ، والظاهر أن الطائر مضطر الى اللجوء الى هذا التصرف لأن لسانه قصير جداً ··

وقديماً ·· لم يكونوا يعرفون آلية هذا الالتقاط وسببه ، لـذا كانوا يعتبرون هـذه التصرفات حركات استعراضية مدروسة يقوم الهُدهُد بها ليسحر غيره ··

والمحظوظ من الناس ·· من شاهد هدهـداً يقوم بألعابه واستعراضاته أثناء تقديم واهداء الغذاء لأنثاه وأفراخه ··

وما أجمله حاملاً اليساريع ·· والعنكبوت ·· والبزاق الى صغاره ·

صـوت الـهُدهُـد :

هو صوت ناعـم ورتيب .

ليس رخيماً .. لكنه يسمع من بعيد ..

هو صوت فسّره سليمان عليه السلام ، سمعه وفهمه مـن هُدهُده وهو ينبئـه بأمر مملكة سبأ ، وبملكة المملكـة ..

★ ★ ★

ولقد أجمع الواصفون .. أن الهُدهُد طائر رائع غـير قابل للوصف لشدة جماله .

★ ★ ★

– قيـل : الهُدهُد طائر نتن !!

فهـل الهُدهُد طائر قـذر فعـلاً ؟؟

قال العلامة زكريا القزويني في كتابه « عجـائب المخلوقات وغرائب الموجـودات » **عـن الهُـدهُـد :**

– الهُدهُد طائر نتن الرائحـة .

– وهو يلطـّـخ عشه برجيـع الانسان ، فيحتمل أن يكون نتنـه منـه !

– وتراه في الربيع « فاتحـاً فـاه » يخرج الذباب مـن حلقـه ويطـير .

– وكل مكان به الهُدهُد لا يوجد به حشرة « الأرضـة » .

– فاذا مرض الهُدهُد **ياكل العقارب الجبليـة** يزول مرضـه .

– وتعتقد العرب .. أن قنزعته تعلق على مَن به وجع في رأسه فيبرأ .

قال الجاحظ في كتاب الحيوان :

العرب والأعراب كانوا يزعمون أن القنزعة التي على رأس الهُدهُـد ، ثواب من الله تعالى على ما كان من برّه لأمّه لمّا ماتت .. جعل قبرها على رأسه فهذه القنزعة عوض عن تلك الوهـدة .

والهُدهُد طائر نتن الريح والبدن مـنجوهره وذاته .. فرب شيء يكون منتناً مـن نفسه مـن غـير عرض يعرض له ، كالتيوس والحيّات وغير ذلك من أجناس الحيوان .. أما العرب فتجعل النتن شيئاً خامر الهُدهُـدلسبب تلك « الجيفة » التي كانت مدفونة في رأسه .

ويزعمون أن الهُدهُد هو الذي كان يدلسليمان عليه السلام على مواضع الماء في قعور الأرضين اذا أراد استنباط شيء منها .

ويروون عن نجدة الحروري ، ونافع بن الأزرق أنهما قالا عن ابن عباس : انك تقول عن الهُدهُد اذا نقر الأرض ، عرف مسافةما بينه وبين الماء !! والهُدهُد لا يبصر الفخ دوين التراب حتى اذا نقر الثمرة ، انضمَّ عليه الفخ !!

فقالَ لهما ابن عباس : اذا جاء القدر ·· عمي البصر ·

وقد عنى ابن عباس هُدهُد سليمان عليه السلام بعينه ، فان القول فيه ، خلاف القول في سائر الهداهد ·

وقال الجاحظ أيضاً :

الهُدهُد يطلب الزبل لعشه ·· حتى اذا وجد منه نقله كما تنقل الأرضة من التراب ·· وبنى بيتاً كما تبني الأرضة وفيه غائط ·

فاذا طال مكوثه في هذا البيت ، وفيه أيضاً ولد ·· وفي مثله تربى ، وبدنه ينمو بتلك الرائحة ·· وأخلق به أن يورث ابنه النتن الذي علقه ، لذلك يكون منتناً !!·

★ ★ ★

وفي الحيوان :

ليس من المستحب قتل الهُدهُد «لا تقتلوا الهُدهُد فانه كان دليل سليمان عليه السلام الى قرب الماء وبعده ·· وأحبَّ أن يعبد الله ولا يُشْرِكَ به شيئاً في أقطار الأرض ··

★ ★ ★

طائر الصوفية :

عمد الفلاسفة المسلمون الصوفيون الى الاسقاطات الرمزية الفلسفية والروحية للنفس والروح وما وراء الطبيعة ، فاستعاروا لها أحوال الطير ·· وانطلاقاته ·· وتوجهاته ، بل ربما اختفاءه في الأفق المجهول أيضاً ·

ومن أشهر المؤلفات في التصوف ، والذي أدرجت فيه الاسقاطات الرمزية على الطيور كتاب : « منطق الطير » لفريد الدين النيسابوري العطّار ··

وأعلام التصوف الفارسي ثلاثة على التوالي :

سنائي الغزنوي ــ فريدالدين العطّار ــ جلال الدين الرومي ·

والعطّار اسمه : محمد ، ولقبه : فريدالدين ، وينسب : الى نيسابور ، وكنيته : العطّار : توفي عن ثمانين عاماً في الفترة بين ٥٩٠ ــ ٦٠٥ هجرية ، وتاريخ وفاته غير محدد تماماً ·

★ ★ ★

يتحدث العطّار عن الفناء التام ورؤية الخالق بعين الزوال .

والفناء الصوفي ، هو الذي تتوارى فيه الارادة والشخصية والشعور بالذات .. وكل ما سوى الخالق .

والفناء الصوفي يعني الفناء السلبي والبقاء الايجابي [كالفناء عن المعاصي] . ومن يعشق عالم الغيب ، فهذا هو العشق الحق .. الخلي من كل عيب ..

★ ★ ★

يرد الهُدهُد على البلبل وهو يتباهى بعشق الوردة فيقول :

« يا من تعلقتَ بالصورة .. لا تتباه أكثر من ذلك بعشق الجميل ، فعشق الجميل شيء مآله الزوال .. يصيب العاقل بالضجر والملل » .

ويرد الهُدهُد على الحجلة وهي تتيه غروراً بتعلقها بالجواهر :

« فاذا زالت الألوان عن الجوهر عاد حجراً لا قيمة له » .

ويعبِّر **العطّار** بواسطة الهُدهُد عن تفضيل الآخرة على الحياة الدنيا .

★ ★ ★

أما الطائر الرئيس ، فهو طائر غير معروف في تسميات الطيور العادية .. رمز اليه بكلمة (سيُمرغ) وتعني رقم « الثلاثين » في اللغة الفارسية .

والطير الباقية ، تتجمع بأسمائها العادية ، ذات الرموز ، في طريق الصوفية ، لتتجه نحو « السيمرغ » التي نعتها البعض بلفظة « العنقاء » المستحيلة .

وأشهر طيور الصوفية هو :

الهُدهُد : هو الدليل وهادي الطريق .. ومرشد كل واد .. وصاحب أسرار سليمان والحافظ لها ، والمُكَبِّل الشيطان .. الزاجّ به في السجن [والشيطان رمز الشر الموجود في النفس] ..

ويرمز بالهُدهُد الى ارادة الخير .

حديث الهُدهُد مع الطيور في طلب السيمرغ(١) :

اجتمعت طيور الدنيا جميعها ، ما كان منها معروفاً وما هو غير معروف وقالوا جميعاً: في هذا العصر وذاك الأوان ، لا تخلو مدينة قط من سلطان ، فكيف يخلو اقليمنا من ملك ، وأنّى لنا أن نقطع طريقنا أكثر من هذا بلا ملك ؟ ربما لو يساعد بعضنا البعض ، لتمكنا من السعي ..

---

(١) كتاب « منطق الطير » للعطار .

سارع الكل الى الاجتماع والبحث عن ملك أو عن سلطان .. فأقبل الهُدهُد مضطرباً لكثرة الانتظار .. أقبل بين الجمع لا يقرّ لهقرار .. جاء مرتدياً على صدره « حلّة الطريقة » ، جاء وقد علا مفرقه تاج الحقيقة .. جاء وقد خبر الطريق .. جاء بعد أن اطّلع على ماضيه من قبيح ورشيق قال :

أيتها الطير اني بلا ريب مريد الحضرةورسول الغيب .. جئت مزوداً من الحضرة بالمعرفة .. جئت وقد فطرت أن أكون صاحبأسرار ، ومن نقش اسم الله على منقاره ليس ببعيد أن يدرك المزيد من الأسرار . اني أعيش نهب همومه زمناً طويلاً ، ولا صلة لي بأي انسان .. اذ .. عندما أكون مشغولاً بآلام الملك ، لا يمكن أن يصبني من الجند أي ألم .

انني تحدثت مع سليمان كثيراً .. فلا جرم أن أكون مقدماً على خيله ، فان غبت عنه لحظة .. أرسل من يطلبني في كل مكان ..وهو لا يصبر عني برهة .. فحسب الهُدهُد الى الأبد هذه المنزلة .. الخ ..

« انثروا الأرواح وسيروا في الطريق .. وامضوا قدماً نحو تلك الأعتاب » .

★ ★ ★

تصرفات الهُدهُد وطباعه :

مشت الهَداهِد غير مرئية مما أثار العجب .

مرّت بحيث لا يلحظها أحد من حيوان أو طير أو بشر ..

ثم طارت .. غريبة الأطوار طارت .. بهيكلها الوشيّ وجناحها الكبير المقلّم ..

فبدت .. فراشات .. كبيرة .. هائلة .

انطلقت تطير بقفزات وعتبات في السماءالزرقاء .. وبدت تدور في دورات متماوجة .

لتقطع هذه الدورات بهبوط مفاجيء .. غير متوقع .

بين حين وحين .

هبوط عمودي .. لا يستطيع أحد تكهنه ..

ولا يفسره سوى هوى الهُدهُد .

★ ★ ★

فاذا حطّت الهَداهِد على الأرض وتأرجحت ..

واذا رمت فرائسها في الهواء والتقطت .

واذا غيرت طبائعها بين فترة وأخرى ..

ولربما غيرت طبعها حسب طباع المحيطين بها .

فهي مرةً حذرة .. ومرةً طيِّعة ..

وهي (أحياناً) تثق بالانسان فتتركه يقترب منهـا .

ولكن .. الى مدى مقبول .. فالهـداهـد لا تُخدع ..

الا أثناء طيرانهـا الشاعري المجبـول بالغرابـة .

اذا حطت الهَداهِـد وطارت .. فهو السـحر .. والجمـال ، والانبهـار .

★ ★ ★

والعلم الحديث ... يعتبر أن تصرفات الهدهد دون شك غريبة وشاذة .. لا تفسير لهـا ولا لمزاج الطائر الجميل .

فاذا دقَّ ناقـوس الخطـر :

فان ذلك يجعل الهُدهُد يتخـذ وضعية معينـة !.

يتسمَّر بلا حراك وهو على الأرض . ويطوي الذيل والجناحين .

يريـد الهُدهُد بذلك أن يقلِّص حجمه ..

ورأسه يصبح مرميـاً نحو الخلف ..

والمنقار يصبح مرفوعاً الى الأعلى .. حمـاية وتحفـزاً ،

حتى .. يزول الخطر.

التهيـؤات :

والغريب . أن الخطر قد يكون أحياناً [متخيلاً] تابعاً لمزاج الهُدهُد !!

فهـل للهُدهُد تهيؤات ؟. هـل يهلوس الهُدهـُـد !!

أم أنه يرى ما لا ترى الطيور ؟!!.

يسمع أصوات الماضي والحضارات .. ولعـلَّ .. يسمع صوت سليمان هائماً منـذ السحيق في الأجـواء !!..

★ ★ ★

الطـائـر الانفـرادي :

وحيـداً .. فريداً من نوعه .. يطير الهُـدهـُـد ، ويبـدو وحيـداً

ولا يشاهد بشكل رفوف أو قطعان الا في الصيف ..

حين تشكل الهَداهِد عائلات صغيرة .. وتنطلق مع أفراخها في السماء .

فاذا وقفت العشيرة الهُدهُدية على الأرض سارت الهداهد وهي تحج برأسها كالحمام

واذا طارت .. طارت بصمت .. ودون انتظام .

والهُدهُد الوحيد .. طار أيضاً وذهب بصمت .

ومضى يتلاعب في طبقات الهواء حسب هواه .

على قمم الأشجار :

وفي الأماسي الحلوة .. يتمركز طائر سليمان على قمم الأشجار .

يراقب .؟ يشاهد ؟. يحلم ؟.. يستنتج ؟.

لا أحد يعلم !.

ويصغّر حجمه بعد وقوفه بعد أن يغلق جناحيه وينغلق على (ذاته)

مؤكداً لا أهميته أمام الذات الكبرى ..

والأشجار تقول مرحباً .. بطائر الصوفية !.

* * *

المقارنة بين ما ذكره القزويني والجاحظ وبين المعلومات الموسوعية الحديثة :

هل الهُدهُد طائر نتن قذر ؟؟

ورد في موسوعة اللاروس المعجمية :

عش الهُدهُد قذر جداً ..

تختلط فيه رائحة هذه الطيور مع رائحة الرجيع والزبل .

والعش يكون في حفرة أو صخرة دون شيء من الزخرفة والتزويق الفني

لكنه من الممكن أيضاً أن تبيض الأنثى مباشرة على الأرض أو الخشب .

في هذا العش تبيض الأنثى من ٥ ــ ٨ بيضات تكون مدهونة بالغائط طيلة المدة ، من قبل الأم .

وقد يعشش الهُدهُد في أعشاش غيره شرط أن لا يكون العش أعلى من ٣ــ٤ أمتار.

والبيض طويل غير لامع .. مخضر قليلاً أو مسمرّ ..

وفيه نقاط بيضاء في بعض الأحيان ..

حضـن البيض :

ويهتم الذكر بالأنثى ٠٠ فهو **يحضن** في البداية لأن الأنثى تكون (متعبة) من التبييض ثم تتمركز الأنثى وتحضن وحدها ٠٠ ويكون الذكر مشغولاً طيلة الوقت في احضار الغذاء ، فيذهب من ثماني الى عشر مرات ليحضر اليساريع ٠

وفي كل مرة يصل فيها الى العش ٠٠ يمـد رأسه نحـو أليفتـه ويضرب منقارها بمنقاره ٠٠ قبـل أن يعطيها الغذاء ٠٠

هي تحيـة الهُـدهُـد !!..

★ ★ ★

نعود لنتساءل عن قول القزويني قبـل ثمانمئة عام: في أن الهُدهُد طائر قذر نتن!!.

القـول الفصـل :

لا يعتبر الهُدهُد طائراً قذراً بحد ذاته وعلى الدوام !..

لكن الأم تطلي بيوضها فعلاً بالغائط ٠

وتكـوّم منـه في العش تكويماً ؟.

وبعد التفقيس ، تبقى الأفراخ شهراً كامـلاً في العش ٠٠ حـتى تكتسي أجسامهـا بالريش المشابه لريش أبويها ٠٠ وأثناء هذا الشهر تكون بين القاذورات والرجيع ؛ لكن أجسامها تتخلص تدريجياً مـن نَتَن ، له رائحـة خاصـة تذكّر باللحـم المتفسّخ [الجيفـة] ٠

وهذه الرائحة ناتجة عن غدة خاصة هي « الغـدة الزمكيّـة » UROPHYGIENE وهي غدد شحمية عند عَجُزِ الطائر ، يحمي افرازها ريشه ، وتكون غير مستعملة في هـذه الســن ٠

والأنثى :

تفـرز نفس الافرازات في كـل مـدة تبيّضهـا وحضانتهـا ٠

والهَداهِـد ٠٠ تتخلص تدريجياً بعـد الطيران والانطلاق ، مـن هـذه الرائحـة ٠

لكن ذلك لا يعني أن الأنثى لا تهتم **بنظافـة العش !!.**

التعـاون :

ففي كـل مرة ٠٠ وبمساعدة الذكر ، تقوم الأنثى بتنحية الفضلات الغائطية كلها ، فقط ، في حال صغر العش وضيقه ، وفي حال كثرة الأفراخ الذين يعيشون متراصين ، تكون عملية تنظيف المكان بالنسبة اليها صعبة للغاية ، فتتجمع الأقذار ليتحول العش الى وكـر آسن ٠

طريقة غريبـة في دفاع الافراخ عـن نفسها :

اذا وصل خطر ما الى العش ؛

فان الأفراخ ترمي بنفسها على مسافة الفضلات الغائطيـة .

وهذا التصرف الدفاعي المترافق بالصفير .

يلطّـخ الأفراخ بالنـّتَن والرجيـع .

★ ★ ★

طفولة غريبة .. للهـَداهـِد الغريبة !! وطريقة أغرب في الدفاع عـن النفس .

★ ★ ★

المقـارنـة :

١ ــ المعلومات واحدة .. فمن المؤكد وجود النـّتـَن ورجيع الانسان في عش الهـُـدهـُـد ، وقـد فسَّر العلم وجود الرجيع كخطة دفاعية لحفظ النوع. كما فسَّر وجود الروائح البشعة بافرازات الغـدة الزمكيـة .

ويحق لنـا أن نتساءل : لماذا هو الرجيع بالذات ؟!.

الآن الرائحة التي تعتبر من أقبح الروائح ، جعلت الهـُدهـُـد لشدة ذكائـه وحرصه على أفراخه يستدل على « أحكم خطةدفاعية » !!..

وقـد كانت هذه الخطة مستعملة إبـّان الحرب العالمية الأولى .. اذ كان المتحاربون يتراشقون بالغازات الخانقة .. وقد استعملت هذه الخطة ، ضمن ما استعملت في سوريا .. وكانت العامة تدعو هذا الغاز : (الغـاز المُخْنـِـق) .

★ ★ ★

وعلى أي حال .. فان لجوء الهـُدهـُد الى الرجيع لصيانة نسله ، لم يبرره العـلم بعـد !! ولعله ، يبقى سراً من أسرار الهـَداهـِـد !!.

٢ ــ يفتح الهـُدهـُد فمه في الربيع فعلاً .. لكن .. لتلقـّف الذباب

أما أن تخرج الحشرات مـن حلقه .. فلعلها كانت كثيرة العدد في العهد البعيد أيام الحر .. فاذا تلقف الهـُدهـُد عدداً كبيراً منهـا .. ازدرد البعض .. ونجـا البعض هارباً .. وهذا لا يناقض مقولة العلامة زكريا القزويني .

٣ ــ لا شك أن الهـُدهـُد يتغذى بالحشرات .. وطعامه الأثير مـن الهـوام هو العقـارب والحرادين الصغيرة .. وهذا ما ذكرته موسوعة (اللاروس) الفرنسية عن الهـَداهـد . ولا شك .. أن العرب .. شاهدت الهداهـِد وهي تغتذي بالعقارب ، وهذا يؤكد الخطة

البيئية المحكمة في الحفاظ على التوازن·· فكل مخلوق ، مسخَّر ، بشكل أو بآخر ، وغريزياً لتعزيز بقــائه ، وللحدّ من التكاثر الشديد **لمخلوق معيَّن** آخر ·

أما العرب ·· فقد ظنَّت أن الهَداهد تتــداوى بالعقارب ·· لسُميَّة العقارب ·· ولعل في رأي العرب وجهة نظر لم يفسِّرها القــدامى !!.

٤ ـ أما ذكر الجاحظ ، عن شفاء الآلام الرأسية بواسطة وضــع قنزعة الهُدهُــد على الرأس !! فذلك ناشيء عن الأسطورة التي أوردها في كتــابه « الحيوان » وقد سبق الكلام عنها في البحث ·· وتتلخص في أن الهُدهُد حمل قبر أمه على رأسه فأثابه الله تعالى بهذه القنزعة الجميلة فوق رأسه ·

لذا·· اعتبرت العرب ، قنزعة الهُدهُد ، طريقاً للشفاء مــن آلام الرأس ·

★ ★ ★

وعلينا التذكير بأن المعتقدات الغربية في العصور الوسطى ، كانت تؤمن باستخــلاص بعض المواد الشافية من جسم الهُدهُد ·· تستعملها بواسطة النقع والغلي ، لتقوية الذاكرة ·· ولحدَّة البصر ·

وبذلك ·· يلتقي الشــرق والغرب في أهميــة استخلاص البلسم مــن بعض أعضاء الهُدهُد لشفاء آلام [الرأس] ·

هو طائر الصوفيــة ·

وهُدهُد واحد بين الهَداهِد : هو طائر سليمان عليه السلام ··

هو طــائر الغــرابــة !

هو الطائر الجميــل المبهر ، الرائــع ·

الغريب الأطوار ·· المضطرب التحليق ·

نادية الغزي

★ ★ ★

☐ **مصــادر البحث :**

عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات .... **للعلامة زكريا القزويني** ·

الحيــوان .... **للجاحظ** ·

منطــق الطــير .... **لبهاء الدين النيسابوري العطار** ·

اللاروس المعجمي ـ قسم الطيور ـ موسوعة الحيوان .... **اللاروس** ·

طيــور اوربــا وفرنســا .... **فرديناند ناتان** ·

اللغة العربية والاصطلاح العلمي

د. وليد سراج*

تنتمي اللغة العربية الى مجموعة اللغات السامية ، التي تضم أيضا الكنعانية والفينيقية والعبرية والآرامية والنبطية والبابلية والسريانية والحبشية . ولقد اندرست غالبية تلك اللغات ولم يبق منها سوى آثار ورسوم على الأحجار والجلود ، أما اللغة العربية فعاشت وبقيت ولا تزال تنتشر ، بل وتتوسع ، في بقاع من الارض عديدة .

القرآن واللغة العربية

لا شك أن السر في أسباب خلود العربية وبقائها انما يكمن في القرآن الكريم ، الذي حفظها بحفظه من قبل الرحمن ، كما في سورة الحجر/ ٩ [إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ] ، ومنحها مرونة كبيرة ومقدرة عظيمة على التعبير عن مختلف المعاني الطارئة في حياة الناس . الأمر الذي أدى الى أن تتسع العربية لكمية هائلة من الاصطلاحات والاستعمالات الجديدة بسرعة فائقة ، وجلُّ هذه الألفاظ كلمات عربية أعطيت معاني جديدة . وبذلك تلوَّنت الألفاظ بدلالات مختلفة في فكر أو علم ، وهذا خير دليل على أنها قادرة على مواجهة أعسر الظروف وأعقدها والتفوق عليها .

زد على ذلك أن الاسلام جعل تعلُّم اللغة العربية جزءاً من أجزائه ، لا يكمل إسلام المرء الا به ، بل لا تصح العبادة ــ كالصلاة مثلاً ــ الا بتلاوة القرآن بلسان عربي مبين . فضلاً عن كون القرآن المرجع والميزان الثابت لقياس نحو اللغة العربية وصرفها ؛ فاجماع العلماء

(*) خبير الاعلام العربي لدى المركز الدولي للبحوث الزراعية في المناطق الجافة . ص.ب ٥٤٦٦ ، حلب ــ سورية .

معقود على أن ما خالف نحو القرآن أو قواعده ـ من الناحية اللغوية أو البلاغية ـ مردود لأنه كلام رديء • وهذا سر قوة اللغة العربية مقارنة باللغات الأوروبية ، التي تنادي مدارسها النحوية الحديثة بضرورة ألاّ يخطّيء النحو كلام الناس ، لأن معيار صحة الكلام عندها هو الشيوع على الألسنة ، سواء أخالف كلاماً قديماً أم لم يخالف • وهذا يفسر سهولة فهمنا نحن العرب لكلام أجدادنا حتى في فترة ما قبل الاسلام ، بينما لا يستطيع الأوروبيون أن يفهموا ما كتب في لغاتهم قبل ٤٠٠ سنة فقط الا بجهد جهيد ، وبالاستعانة بالقواميس لحل غموض اللغة ، التي باتوا يطلقون عليها اسم «الكلاسيكية» أو «القديمة» نظراً لتغيُّر أساليبها وقواعدها • والأمر ليس كذلك بالنسبة للغة العربية ، التي لا يمكن أن تتفرع الى لغة « كلاسيكية » وأخرى « عصرية » ، بل هي لغة فصحى نتكلمها ويتكلمها جميع الناطقين بها ، وان كانت هناك لهجات محلية أو عامية في البلدان العربية •

اللغة العربية لغة العلم

لا تكون اللغة علمية حتى تستوعب علم وفكر الأمة ، وتمكّن الناطقين بها من أخذ العلم واستساغته ، ثم تمثله والابداع فيه ،لذا يجب أن تتوفر فيها شروط ، أهمها : الوضوح ، وسلامة البنيان اللغوي ، والايجاز ، والقصد الى حقيقة الأمور ، وعدم العناية الكبيرة بالشكل ، والمنطقية ، والشمولية ،اضافة الى وحدة المفهوم التركيبي للجملة العلمية • والحقيقة أن اللغة العربية تمتلك كل هذه الخصائص وغيرها بأوضح ما يكون ؛ فهناك اتصال وثيق بينها وبين الطبيعة ،وبينها وبين المجتمع ، كما أن للحرف العربي رمزيته ودلالته ومعناه ، وللغة عموماً سعتها الاشتقاقية التي تتميز بل تنفرد بها عن سائر اللغات الماضية والحاضرة مهما بلغت درجة انتشارها • وفي العربية أيضاً تتعدد معاني اللفظ الواحد ، وتتعدد كذلك المترادفات للمعنى الواحد ، ولديها من الامكانات التضاد والاعراب والتعويض والتقديم والتأخير ،ووضوح وسهولة النطق ، والاقتصاد والايجاز، والنمو والحركية •

تأثير العربية في مختلف اللغات العالمية

أثرت اللغة العربية في مختلف اللغات العالمية وتأثرت بها ، شأنها في ذلك كشأن أي كائن حي يؤثر ويتأثر بالوسط المحيط •ويؤكد البحث العلمي أن مفردات جمة عربية قد غزت قواميس لغات عالمية عديدة ، في الوقت الذي أخذت فيه العربية عن لغات أخرى • أي انها تفاعلت ـ ولا تزال تتفاعل ـ مع غيرها بايجابية مثمرة •

ففيما يخص الانكليزية مثلاً يقدر الخطيب(١) وجود ٣٠٠٠ كلمة عربية اسلامية في معاجم اللغة الانكليزية ، مضافاً اليها خمسة آلاف كلمة مشتقة من الكلمات الأصلية • ويكفي للدلالة على ذلك مثلاً أن تفتح على الصفحة ١٠٤٩ من قاموس Webster's Third New International Dictionary الشهير الصادر عام ١٩٧١ في الولايات المتحدة الأمريكية ، لترى في العمود الأيمن فقط كلمتين عربيتين، هما: حَجَري hegari ، وهجرة Hegira (=Hejira) .

وأما تأثير اللغة العربية في اللغة الألمانيةفان المستشرقة هونكه(٢) قد اتبعت فهارس كتابها القيّم « شمس العرب تسطع على الغرب » بملحق ضم أكثر من ٢٥٠ كلمة عربية بعضها مشترك مع قائمة بيير جيرو الفرنسية ٠وظهر في ميونيخ قاموس صغير للألفاظ الألمانية من أصل عربي ، وضعه الدكتور نبيل عثمانوتناول فيه بالشرح٣٠٠كلمةأصلها عربي(٣). والشيء نفسه يقال بالنسبة الى لغات أخرى ،مثل : الفرنسية ، الايطالية ، البرتغالية ، والاسبانية التي لا يزال حوالي ١٧٪ من المفردات فيها عربياً ٠

وكان تأثير اللغة العربية في اللغات الشرقية أكبر وأعمق أثراً ؛ فقد قدّر آيبيك(٤) عدد المفردات العربية بنحو نصف محتويات القاموس الاندونيسي ، وتراوحت نسبة الكلمات العربية في بعض الكتب الفارسية(٥)ما بين ٥٠ ـ ٨٠٪ ٠ وحتى في العصر الحديث لم تسلم اللغة التركية من دخول الكثير من المفردات أو المقاطع اللفظية العربية اليها ، مثل : قهوجي ومكوجي وكتبخانة(٦) ٠

تأثر العربية بغيرها من اللغات الأخرى

تتصارع اللغات بعضها مع بعض كما تتصارع الكائنات الحية تماماً ؛ وتكون حصيلة ذلك إما غلبة ، أو انهزاماً ، أو تمازجاً واقتراضاً بين اللغتين ٠ وتتوقف حدة ذلك على عوامل كثيرة ، أهمها : درجة اختلاط الشعبين الغازي والمغزو ، وحضارة كل منهما ، وطبيعة اللغة ٠٠٠ وقد تخرج اللغتان بعد الصراع دون غالب أو مغلوب ، بل تعيشان معاً جنباً الى جنب ٠

ان عملية الاقتراض أو الاستعارة اللغوية مهمة ومفيدة ، لأنها تفيد اللغة المقترضة وتغنيها ٠٠٠ فاللغة العربية حين اتصل أهلها قديماً بالثقافات المجاورة، واحتكوا بشعوبها دخلتها ألفاظ من لغاتها ٠ ففي الجاهلية أخذ العرب عن الفارسية ألفاظاً كثيرة ، مثل : ابريق ، سندس ، ديباج ،نرجس ، وسلسبيل ٠ ومن الهندية أخذوا : فلفل ، قرنفل ، كافور ، وشطرنج ٠ ومن السريانية: كنيسة ، كهنوت، ناقوس، وفدان٠ ومن اليونانية أخذوا : فردوس ، قسطاس ،قنطار ، وترياق ٠ ومن العبرية : توراة ، يم، أسباط ، وجهنم ٠ ومن الحبشية أخذوا :نجاشي ، تابوت ، مشكاة ، وأرائك ٠ ومن النبطية اقترضوا : أسفار (جمع سفر وهو الكتاب)، وحواريين ، وأكواب ٠ ومن القبطية أخذوا: متكأ، وأترج٠ ومن الزنجية اقترضوا:حَصَب جهنم ، ومنسأة ٠ ومن البربرية أخذوا : المهل (عكر الزيت)، وأبّا (أي المرعى أو الحشيش) ٠

الاصطلاح العلمي

يعتبر الاصطلاح العلمي احدى الركائز الأساسية للتعبير العلمي ؛ اذ بدونه تسير لغة العلم على رجل واحدة ، وتتعطّل عملية الابداع والابتكار ٠ ويمثل الاصطلاح الوافد تحدياً عظيماً لاختبار قدرة اللغة على استيعابه والتعبير عنه ٠ وما لم تتمكن اللغة ، أي لغة من ذلك ، فانها توصف بالعقم والعجز والقصور ٠

تعـــريـف الاصطـــلاح

الاصطلاح أو المصطلح العلمي ـ وهو مصـدر اصطلـح ـ لفظ علمي يؤدي المعنى بوضوح ودقة ، ويعبِّر عن اتفاق طائفة على شيء مخصوص . ولكـل علم اصطلاحاتـه . وعرَّفه آخرون بأنه أداة البحث ولغة التفاهم بين العلماء ، وليس ثمـة علم بدون قوالب لفظية تؤديه . وقيل عنه بشكل أدق أيضاً انه اللفظ الذي يضعه فرد أو هيئة لدلالة علمية أو حضارية معينـة ، بشـرط أن يكون قـدتواضع عليـه المشتغلون بذلـك العـلم ، أو المعنيون بذلك الجانب من الحضارة . وعلى هـذا فان شرطه الأول بجميع أبعاده ، هـو : اللفظ ، والمعنى ، وأهـل الشأن . وتقـدرالدراسات في هذا المجال أن حوالي ٥٠٪ مـن مفردات لغات البلدان المتقدمة في ميادين العلم تتكوَّن من اصطلاحات علمية وفنية(٧) .

الاصطلاح العربي : أزمة لغـة أم أزمة أفـراد ؟

ان أزمة وضع الاصطلاحات وتوحيدها لا تعترض سبيل العرب دون غيرهم ، بـل هي قضية ملحَّـة تشغل العلماء في العالم بأسره ، الى حـد جعل العلماء السوفييت ينعتون علم الاصطلاح بأنه علم العلوم .

وليست العربية بأقل قـدرة مـن اللغات الحية على أن تكون لغة علمية . وان ظهر ثمة عجـز في مجال ما فليس مرده قصورها ، بـل تقصير الناطقين بها عن العناية بايجاد الاصطلاح الملائم ، والتصدي لاغنائها بالترجمة والتأليف . وعلى ذلك فـان الأولى بأن يكـون في قفص الاتهام هم أهل اللغة ، وليس اللغة(٨) ، ذلك أن العربيـة لا تفتقر الى منهـج علمي لوضع الاصطلاح وصياغتـه .

وقـد شهدت العربية في التاريخ الحديث محاولات عديدة جادة قام بهـا علماء فحول ، كان همهم الغوص في بحور هـذه اللغة الغنية بحثـاً وتنقيباً عن الاصطلاحات الخاصة بكل حقل من حقول العلوم التطبيقية والانسانية ، مثـل : الدكتور عمر فروخ في مجـال العلوم الفلكية ، واللواء الركن محمود شيت خطّـاب في العلوم العسكرية ، والدكتور حسني سبح في العلوم الطبيـة ، والأمير مصطفى الشهابي في العلوم الزراعية ... وغيرهم كثير .

شـــروط الاصطـــلاح ومـواصفـاتـه

لا يمكن للفظ أن يُتَّخَذ اصطلاحاً ، ويروج ، ويدخل في الثروة اللفظية للغة ما حتى تتحقق فيه الشروط التالية ، وأهمها :

١ ــ البساطة والوضوح في الدلالة على الفكرة العلمية أو الفنيـة .

٢ ــ الايجاز والاقتصار ما أمكن على أقل عدد من الكلمات والحروف .

٣ ــ أن يكون موضوعياً في دلالته بحيث لا يكون مقصوراً على جانب دون آخر .

٤ ــ ألاّ يتعدد الاصطلاح للمفهوم العلمي الواحـد ذي المضمون الواحـد في الحقل العلمي الواحـد .

٥ ـ أن يتم وضعه بعد الرجوع الى لغات أخرى ليكون أكثر دقة وشمولية وقابلة للرواج.

٦ ـ أن يسمح بالاشتقاق بما لا يضر بكيان اللغة · ويتفرع عن ذلك أيضاً ضرورة ترجمة الاصطلاح المفرد بمفرد مثله ، لأن ذلك يساعد على التصريف والاشتقاق ·

٧ ـ أن يمكن ضبطه بتطبيق قواعد تحديد شكل الاصطلاح ؛ كأن يعبَّر عنه بصيغة المفرد أو الجمع ، أو فرزه الى مكونات مستقلة يعبر عن كل منها بصيغة الاسم ، وتستخدَم بصورة مستقلة كاصطلاح تكشيف عند وضع المكانز ·

٨ ـ أن يُراعى في وضعه عدم اللجوء الى الألفاظ العامية الا لضرورة أو توضيح ·

طــرق تـولـيــد الاصطـلاح

١ ـ إحيـاء اللفظ العربي القـديم :

أجمعت المجامع اللغويـة الأربعـة (في دمشق والقاهرة وبغـداد وعمّان) ، وغيرها مـن الهيئات العلمية في الوطن العربي ، على ضرورة احيـاء اللفظ القـديم قبـل التعجيل بابتكار الجديـد ، وعلى ضرورة اللجوء الى المصادر العربية قبل تعريب الاصطلاح الأجنبي. ولا يؤخذ على هذا الاجماع العام ما يلاحَظ أحياناً بـين تلك المجامع من اختلاف في بعض الاصطلاحات · وما دامت الاصطلاحات العربية القديمة مؤدية للمعنى المقصود بدقة ووضوح فانها تقدَّم على الحديثة ، ما لم يشع استعمال الأخيرة مع عدم مخالفتها لقواعـد الاستعمال العربي الفصيـح ·

وينطبق هذا بشكل خاص أيضاً على ما يعرَف باستعادة المفردات المهـاجرة ، وهـي المفردات العربية التي دخلت اللغات الأجنبية من خلال التفاعل الحضاري ؛ سواء أكان ذلك بالمجاورة والتداخل ، أم عن طريق الترجمة ، أم عن طريق لغات أخرى أخذت عـن العربية كالتركية والفارسية · والألفـاظ الفلكية والرياضية هي خير مثال على هذا النوع مـن الاصطلاحات ، نحو : لفظـة تسميـة النجـم « واقــع » التي صبحت في كثير مـن اللغـات الأوروبيـة "Wega" أو "Vega" ، وكـذلك « الحمراء » وليس الهمبـرا ، و « الجبـر » لا الجبرا ··· وغيرها كثير ·

٢ ـ التضمين وتوليـد المعاني :

ويُقصَد به تضمين المعنى اللغوي القديم للكلمة العربيـة معنىً جديـداً نظراً لوجـود تشابه ولو كان جزئياً بين المعنيين ، حتى يصبح الاصطلاح الجديد مع الوقت حقيقة معرفية في الدلالة على المعنى الجديد بدلاً مـن مدلوله المندثر ، أو يضاف مدلول جديـد الى المدلول القديم · مثال ذلك : « السيارة » وهي تعني في الأصل القافلة ، و « القاطرة » التي تعني اليوم عربة في خطوط السكك الحديدية وهي في المعاجم القديمة الناقة التي تتقدم القافلة ، و «الطيار» ويعني قائد الطائرة وهو في الأصل الفرس الشديد · ومثـل ذلك إحيـاء الأرض

الموات، وأرض العشر ، والمزارعة٠٠٠ وغيرهاكثير مـن الألفاظ العربية المتناثرة في ثنـايا وذخائر التراث العلمي العربي، والتي تستطيع التعبير ــ وبدقة تامة ــ عـن مدلولات العديد من الاصطلاحات الوافدة التي قـد نحار اليوم في ايجاد المقابل لها بالعربية ٠

٣ ــ الاشــتقاق :

وهو كما عرّفه الامام السيوطي(٩) « أخذ صيغة من أخرى على اتفاقهما معنى ومادة أصلية وهيئة تركيب، ليدل بالثانية على معنى الأصل بزيادة مفيـدة لأجلها اختلفا حروفاً أو هيئة » ٠ وأكثر العلمـاء على أن الاشتقاق نوعان : صغـير ــ وهو الشائـع ــ وكبـير ؛ فالصغير هو أن تتفق جميع المشتقات في ترتيب حروفها الأصلية كزارع مـن زرع ، والكبير لا يُشترط فيه ذلك نحو جذب وجبذ ٠ وقـدجرت العـادة على اعتماد المصـدر أو الماضي المجرّد أصلين للاشتقاق، سواء أكانا من أصول عربية أم معرّبة ٠ وتتبـع هذه الوسيلة حـين لا يوجد لفظ عربي مقابل للاصطلاح الجديد ،لذا فالاشتقاق ذو فائدة جمّة لمدّ المصطلحين بالفاظ جديدة هم في أمسّ الحاجـة اليهـا ٠

ولـما كانت قواعد الاشتقاق في العربيةمـن أكثر القواعد اللغوية دقة وانتظاماً فان الحاسـوب (الكمبيوتر أو الكبيتـار اذا شئناتعريب الاصطـلاح) قـد يكون أنسب جهـاز لتطبيق القواعد المتنوعة للحصول على كثير من الصيغ التي تؤدي دلالات مختلفة ٠ اذ يمكن بمساعدة برنامج حاسوبي يناسب قواعد بناء الألفاظ واشتقاقها وضع الكثير من الاصطلاحات العلمية ٠ وهـذا أمر أساسي لدخول اللغـة العربية في أوجـه نشاطات عالمنـا المعاصـر ، وتعاملها مـع الآلة عموماً في تطبيقـات شتى ،نذكر منها: الترجمة والنشر بمساعدة الحاسوب، والفهم الآلي للغات الطبيعية، وتعرّف الكلام، وتركيبه ، وتعليم العربيـة ، وصناعة المعاجم العامة والمتخصصة ، وغيرها ٠

ولنا أسوة حسنة في أجدادنا القدامى ، الذين عمدوا الى الاشتقاق من : المصادر (أي أسماء المعاني) فاشتقوا من المصدر « كتابة »اسمَ الفاعل «كاتب» واسم المفعول «مكتوب» ، أو أسماء الأعيان العربية ، فقالوا : فضّض وكَبْرَت وأبحر من الفضة والكبريت والبحر على التوالي ٠ وكذلك مـن أسماء الأعيـان المعرّبة ، فقالوا : بسْتنة ونحالة وفهرَس مـن البستان والنحل والفهرسة على الترتيب السابـق نفسه ٠ ويمكـن التوسـع أكثر في الاشتقاق من الألفاظ المعرّبة مع المحافظة على أوزانها في العربية، مثل كَلْوَرَة chlorination وأكسَدَة oxidation وأكْسَجَة oxygenation . وقد يتسع حد الاشتقاق أيضاً ليتضمن الأفعال التي يمكن أن تصاغ من الجامد ، وما يُشتَق منها من أسماء ، مثل : اشتقاق الفعل تحجّر من الحَجَر ، والتحجُّر أو التحجير ونحوهما من المشتقات ٠ ويتضح من تلك الأمثلة وجوب اتقان المعرفة بأصول اللغة ، والالمام بالقواعد الأساسية للنحو ، حتى يستقيم التعبير ، ويسلم من فساد اللفظ والمعنى ٠

ونستنتج مما سبق أن اللغة العربية لغة اشتقاقية ، أي تتوصل كلماتهـا عـن طريق استخدام الحركات في صوغ الكلمات من المادة على أساس مطرد ٠ وهي بهـذه الميزة تتفوق على اللغات العالمية الأخرى التي لا تعرف هذا « التحول الداخلي » بل تقتصر على طريقـة « الالصاق » التي سنبحثها في الفقرة التالية ٠

٤ ـ الالصـاق :

يقصد بالالصاق affixation اضافة زائدة في صدر الكلمة تسمى سابقة prefix ، أو في عجزها وتسمى لاحقة suffix ، أو في وسطها وتسمى حشوا infix ، ويغلب على اللغـات الأوروبية كمـا أسلفنا الاعتماد على السوابق واللواحق في صوغ الكلمات ، ويقـل ـ ان لم ينعـدم ـ استعمال الحشو أي التدخل في قلب الكلمة بالتغيير أو الاضافة • ويمكن في العربية استعمال السوابق واللواحـق والدواخـل أو الحشو بشكل مقاطع كاملـة تعبر عـن معنى لغوي ، وبذا يتم الحصول على قدر وفير مـن الكلمات • واللواصق في العربية نوعان :

أ) **لواصق اشتقاقية** : وهي التي تدخل في صوغ الاصطلاحات العلمية ، وتصبح جزءاً من بنية الكلمة • ومن ضروبها لاصقة المصدر الصناعي وهي ياء مشددة تضـاف اليهـا تاء مربوطـة ، مثـل : الانسانيـة وتقابلها في الانكليزية (ism-) . وهناك أيضـا اصطلاحات تصـاغ قياساً على المصدر الصناعي وتنتهي باللاصقة (ty-) مثل: الموصليّة conductivity

ب) **لواصق دلاليـة** : وهي ما يتصل بالكلمة من أدوات تفيد معنى زائداً عليها ، ولا تعتبر جزءاً من بنيتها • من أمثلتها : الأداتان« ما » و « لا » حين تُلصقان بالفعل ، مثل : ما جرى ولا أدري فينشأ عنهمـا الاصطلاحان الماجرى واللاأدرية •

وهذه اللواصق تشيع في اللغات الأجنبية بالسابقة (-iso) الدالة على التساوي، والسابقة (-mono) الدالة على التوحيـد ، والسابقة (-poli أو -poly) الدالة على التعدد، والسابقة (-sub) الدالة على التصغير ولدينا في العربية قاعـدة للتصغير •

٥ ـ النحت :

عرف العرب النحت وصنفوا فيـه بعض التآليف ، وحـدده ابن فارس(١٠) بقـولـه : « العرب تنحت من كلمتين كلمة واحدة ، وهو جنس من الاختصار »• ويعتبره بعض اللغويين أيضاً نوعاً مـن الاشتقاق أسموه : الاشتقاق الكبار ، واتخذوه مذهباً في الاشتقاق ، وذهبوا الى أن قسماً كبيراً مـن الكلمات الزائدة على ثلاثة أحرف انما جاء نتيجة لنحت كلمة مـن كلمتين • ويعرّف النحت أيضاً بأنـه انتزاع كلمة من كلمتين أو أكثر على سبيل الاختصار، بشرط أن يكون هناك توافق في اللفظ والمعنى بين المنحوت والمنحوت منه• وليس هناك قاعدة واضحة لتحديد الحروف المنتزعة من كل كلمة لتأليف الكلمة المنحوتة • وكان النحت قليلاً في الماضي ، الا أن مجامع اللغة أقرت جوازه عند الضرورة ، وقد اتخذ مجمع اللغة العربية في القاهرة قراراً حول استخدام النحت في وضع الاصطلاحات العلميـة ، اقتطفناه مـن مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق(١١)، هذا نصه:« النحت ظاهرة لغويـة احتاجت اليها اللغـة قديماً وحديثاً • ولم يلتزم فيه الأخذ من كـل الكلمات ، ولا موافقة الحركات والسكنات • وقد وردت من هذا النوع كثرة تجيز قياسيته،ومن ثم يجوز أن ينحت مـن كلمتـين أو أكثر اسم أو فعـل عند الحاجة ، على أن يراعى ،ما أمكن ، استخدام الأصلي من الحروف دون الزوائد• فان كان فعلاً كان على وزن فَعْلَلَ أو تفَعْلَلَ الا اذا اقتضت غير ذلك الضرورة ، وذلك جرياً على ما ورد من الكلمات المنحوتة »•فهو اذن بهذا المعنى يمكن استخدامه في وضع

الاصطلاحات العلمية اذا دعت الحاجة اليه ،الا أن التوسع فيه قد يتنافى مع الحس اللغوي العربي؛ ذلك أن المنحوت يطمس معنى المنحوت‌منه ، كما أنه يحتاج الى ذوق سليم للخروج بكلمة ذات معنى وسهلة الوقع على الأذن ،مثل : برمائي amphibian ، وكهرطيسي electromagnetic .

ومع أن النحت يولّد ألفاظاً جديدة ، فانه لا يغني الثروة اللفظية للغة العربية ، ذلك أن الضرورة التي تلجىء اليه لا تتكرركثيراً . وغالباً ما تكون ترجمة الاصطلاح الأجنبي بكلمتين سهلتين ومعبرتين أفضل من‌كلمة منحوتة غامضة أو مستهجَنَة .

٦ ـ التركيب المزجي :

ويعتبر من وسائل توليد الالفاظ ووضع‌الاصطلاحات . وحسبما أوردته مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ، يعرَّف التركيب‌المزجي بأنه ضمُّ كلمتين احداهما الى الأخرى، وجعلهما اسماً واحداً إعراباً وبناء ، سواءأكانت الكلمتان عربيتين أم معربتين . ويكون ذلك في أعلام الأشخاص والأجناس والظروف‌والأحوال والأصوات والمركبات العددية والوحدات الفيزيائية . ويختلف التركيب‌المزجي عن النحت بأنه تركيب يحافظ على حروف الكلمتين المزوجتين . وقد أجازت‌مجامع اللغة العربية استعماله عند الضرورة . من أمثلته : ماورد ، ومازهر ، وبعلبك وميتورولوجيا العربية Meteorology في الانكليزية .

٧ ـ الترجمة :

لجأ العرب الى الترجمة منذ العصر الاموي ، ونبغ منهم مترجمون مهرة ، أمثال : ابن المقفع ، وصالح بن عبدالرحمن عن‌الفارسية ، وحنين بن اسحاق ، وبني نوبخت عن اليونانية. واشتهر عندهم نهجان مختلفان‌في الترجمة ؛ أحدهما يقوم على أساس ترجمة المفردات واحدة إثر واحدة وهو ما يعرَف‌اليوم بالترجمة الحرفية ، والثاني يقوم على أساس الترجمة الضمينة أو ترجمة المعنى‌وصياغته جيداً بالعربية . وقد عرَّف العالمان Hartmann & Stork(١٢) الترجمة بأنها نقل‌المعلومات من لغة الى أخرى . وهذا يشابه ما قاله القاسمي(١٣) بأنها التفسير المعنوي‌للرموز اللفظية في اللغة برموز لغة أخرى .

وغالباً ما تكون ترجمة الاصطلاحات ترجمة حرفية ، وبذا تعتبر من أضعف الوسائل لوضع الاصطلاح ، نظراً لعدم وجود مطابقة‌تامة بين معاني الكلمات المتقاربة في اللغات المختلفة ، حتى وان كانت تنتمي الى فصيلة‌لغوية واحدة ، وترتبط فيما بينها بعلاقات ثقافية وثيقة . لذا ينبغي على مترجم‌الاصطلاح ألا يقتصر على المعنى الأساسي اللغوي للكلمة فقط ، بل يتعداه الى المعنى‌الاصطلاحي الذي يختلف بقليل أو كثير عن المعنى المعجمي . مع الاستفادة بالطبع من‌معطيات علم النحو والصرف لتحديد صيغ الاصطلاحات ، ومعرفة مكوناتها الصرفية‌الأساسية من جذور وسوابق ولواحق . من هنا كان لا بد للمترجم من الافادة من معطيات علم‌الدلالة Semantics في تحليل المعنى ؛ اذ ان معاني الكلمات ينبغي تحليلها حسب هذا العلم‌لا كوحدات تصورية ، بل كمركبات مكونة من عناصر معنوية تمثل الجوانب الأساسية‌للمعنى(١٤) .

ولما كان معظم الاصطلاحات العلمية والفنية ترجع مكوناتها غالباً الى اللغتين اليونانية واللاتينية ، فمن الضروري ـ والحالة هذه ـ معرفة معاني تلك المكونات لتحديد دلالة الاصطلاح ، وكذلك معرفة حدود أشكالها اللفظية لتحديد نطق الاصطلاح وصيغته الصرفية • فمثلاً عند ترجمة اصطلاح thermometer لا بد من معرفة أن المكون الأول فيه (therm-o-) اليوناني الأصل هو بمعنى « الحرارة » ، والثاني (meter) بمعنى مقياس •

مما سبق ندرك أن الترجمة كوسيلة لوضع الاصطلاح العلمي ليست عملاً هامشياً أو سهلاً ، وهي تتطلب شروطاً يجب أن تتوفر في المترجم والنص المترجَم أي الصيغة الجديدة باللغة الأخرى • ومن الشروط التي ينبغي توفرها في المترجم الدراية الواسعة بكلتا اللغتين اللتين تتم بينهما عملية النقل ، والاطلاع والخبرة الواسعة في العلم الذي تترجَم مادته من تلك اللغة الى العربية • فالمشكلات التي تعترض المترجم اذن ليست لغوية بالمعنى المألوف ، ولكنها مشكلات تتصل بالتعبيرات والتسميات والاستعمالات والاصطلاحات غير المألوفة لبعض الكلمات في مجال ما من مجالات المعرفة • يضاف الى ذلك ، بالطبع ، ذلك الزخم الهائل والمتجدد من الاصطلاحات التي تطالعنا بها الدوائر العلمية على اختلافها ، بحيث يصل عدد ما يظهر منها في الدقيقة الواحدة الى أربعين اصطلاحاً جديداً(١٥) • وينبغي التأكيد هنا على أن الترجمة الدقيقة للاصطلاح العلمي تغني عن تعريبه ، اذا ما تحرى المترجم العليم بأسرار العربية اللفظ العربي الأنسب لأداء مدلول اللفظ الأعجمي(١٦) ، واستعان بأمهات القواميس والمعاجم والمسارد اللفظية المختلفة ، وخاصة تلك التي أصدرتها مجامع أو منظمات أو هيئات عربية أو اقليمية أو دولية •

٨ ـ التعريب :

ان التعريب من طرق توليد الاصطلاح ، هو ليس هدفاً بحد ذاته ، بل وسيلة لالباس المفردة الأجنبية ثوباً عربياً من حيث تغيير أصواتها ، ووزنها الى ما ينسجم مع الذوق العربي ، ويتفق مع أحد المباني العربية وأوزانها • ويُلجأ الى التعريب حين يستعصي ايجاد مقابل عربي مقنع ، وفي هذه الحالة يفضلَ التعريب الجزئي على التعريب الكلي لأنه أخفُ على اللسان من النحت والتركيب أحياناً ، مثل psycholinguistics التي اقترح لها الفهري(١٧) سيكولسانيات • ويمكن اجراء التعريب وفق منحيين :

أ) نقل الكلمة الأجنبية الى العربية كما هي دون تغيير فيها ، وهو ما يعرَف أيضاً **بالنقحرة أو الكرشنة** transliteration أي كتابة حروف لغة بحروف لغة أخرى • ولكي تكون النقحرة صحيحة لا بد من وجود مواصفات توحد العملية ، منعاً لوجود عدة أشكال للاصطلاح الواحد • وقد وعى المجتمع الدولي هذه الحقيقة فأصدر عدة مواصفات دولية ، من بينها المواصفة الدولية ايزو رقم ٢٣٣ ، التي تهتم بنقحرة الحروف العربية الى اللاتينية. وقامت المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم بعمل مماثل يحتوي على بعض الاختلافات عن المواصفة الدولية • الا أن الأمر الأكثر تعقيداً هو نقحرة الحروف اللاتينية

الى العربية ، وهو المجال الذي لم يظهر فيه أي عمل عربي مشترك ، باستثناء ما قام به مجمع اللغة العربية في القاهرة ، وبعض العلماء مثل الشهابي(١٨) وإتيم(١٩) لنقحرة صور الحروف الانكليزيه بالحروف العربية على أساس الصوت الذي يلفظ به الحرف في الكلمه ، وليس كحرف بمفرده ٠

ب) نقل الكلمة الأجنبية الى اللغة العربية مع اجراء تغيير وتعديل عليها ٠ ويطلق على العملية برمتها « **الافتراض اللغوي** » او « **الاستعارة اللغويه** » ، وهي عملية تمارسها اللغات الحية باستمرار ، للتعبير عن مفاهيم جديدة لم يعهدها الناطقون بتلك اللغة من قبل٠

وعند نقل اللفظ الأجنبي كما هو الى اللغة العربية يسمى « دخيلاً » ، وعند تغييره يسمى « مُعرَّبا » ٠ ومن أمثلة الدخيل : باذنجان ونرجس وزرنيخ المأخوذة من اللغة الفارسية ، وأوكسيجين والكترون وفيوزاريوم من اللاتينية ، وكذلك الألفاظ العالمية التسمية الموضوعة لتخليد ذكرى عالم أو عالمة (كفولط وكوري) ، أو المركبة من أحرف متعارف عليها دولياً (كرادار وليزر) ٠ اضافة الى عدد كبير من الالفاظ التي احتواها المعجم الوسيط الذي أصدره مجمع اللغة العربية في القاهرة ، نذكر منها : إنزيم (إفراز خلوي) وجيلاتين (مادة هلامية) ٠ ومن أمثلة المعرب الفاظ مثل : تلفاز بدلا من television ، وتقنية بدلا من technology ، وفلسفة بدلا من philosophy .

ونستنتج مما سبق أن للتعريب أيضاً آفاقاً واسعة في مجال وضع الاصطلاح العلمي ، شريطة الاحتكام الى قواعد أو ضوابط ، منها : عدم وجود المقابل باللغة العربية ، وتعذر الترجمة الدقيقة للاصطلاح الجديد ، والاحتفاظ بأصل اللفظ المعرب والأخذ فيه بأقرب نطق الى العربية دون تقيّد بأصل انكليزي أو غيره ، واخضاع اللفظ المعرب لأوزان العربية وصيغها قدر الامكان مع توحيد نطقه ، واتباع طريقة مقننة في تعريب الحروف والحركات والسوابق واللواحق في اللفظ المعرب والاسترشاد في ذلك بقواعد نطق هذه الأصوات في الاصطلاحات الأجنبية ، وأخيراً أن يقوم بالتعريب مختصون عاملون في المجال العلمي للاصطلاح ، ذلك أن أهم معيار لقياس نجاح الاصطلاح هو مدى رواجه بين المستعملين له من المتخصصين ، وقربه ــ ما أمكن ــ من أشباهه في اللغات الآخرى شريطة تساوي الشروط الأخرى ٠ اذ لا فائدة من اصطلاح يظل حبيس الأدراج ، فكم من اصطلاحات عديدة أصدرتها مجامع اللغة لم يكتب لها الرواج أو الاستحسان عند أهل الاختصاص ٠

★ ★ ★

الحواشـي :

١ – الخطيب ، أحمد شفيق ، ١٩٨١ ، معجم المصطلحات العلمية والفنية والهندسية : قاموس انكليزي – عربي ، مكتبة لبنان ، بيروت ، لبنان ٧٥١ صفحة .

٢ – هونكه ، زيغريد ، ١٩٦٩ ، شمس العرب تسطع على الغرب ، فاروق بيضون وكمال دسوقي (مترجمـان) ، طبـع في بيروت ، لبنـان .

٣ – ماهر مصطفى ، ١٩٨٦ ، عرض وتحليل « القاموس الصغير للألفاظ الألمانية ذات الأصل العربي » مجلة الفيصل ١١٣ .

٤ – آبيبك ، حسين ، ١٩٨٨ ، تاثير اللغة العربية في اللغة الاندونيسية ، مجلة الاصلاح العدد ١٢٨ .

٥ – الحوفي ، أحمد ، ١٩٨٥ ، اللغة العربية : تاريخها وخصائصها وآثارها في الحضارة العالمية ، في : « دراسات في الحضارة الاسلامية » ، الهيئة المصرية العامة للكتاب .

٦ – الدابولي ، فتحي أنور ، ١٩٨٩ ، صراع اللغات ، مجلة المنهل العدد ٤٧٢ .

7 — Pei, Mario, 1965. The story of language. American Library Inc., New York, USA.

٨ – جبر ، عبد الرؤوف ، ١٩٩٠ ، الاصطلاح : مصادره ، مشاكـل وطرق توليده ، المؤتمر العلمي الأول حول الكتابـة العلمية باللغة العربية : واقع وآفاق ، ١٠ – ١٣ آذار/مارس ١٩٩٠ ، بنغازي ، ليبيا .

٩ – السيوطي ، جلال الدين ، ت ٩١١ هـ – الأشباه والنظائر في النحو ، مجمع اللغة العربية ، دمشق ، سورية . المجلد ٢ ، ٧٤٢ صفحة .

١٠– ابن فارس ، أحمد ، ت ٣٩٥ هـ – معجم مقاييس اللغة ، نسخة مصورة عن الطبعة المصرية ، عبد السلام محمد هارون (محقق) ، دار الفكر ، بيروت ، لبنان ، ٦ مجلدات .

١١– مجمع اللغة العربية في دمشق ، ١٩٦٥ ، مجلـة المجمع العلمي العربي ٤٠ (٣) : ٧١٠ – ٧١٢ .

12 — Hartman, G. ; and Stork, A. 1972. Dictionary of language and linguistics. John Wiley and Sons, New York, USA.

١٣– القاسمي ، علي ، ١٩٧٥ ، علم اللغة وصناعة المعجـم ، مطبعة جامعة الرياض ، الرياض ، السعودية .

14 — Kempson, R. M. 1980. Semantic theory. Cambridge University Press, Cambridge, UK.

١٥– فرحان ، اسحق ، ١٩٨٣ ، كلمة في الموسم الثقافي الأول ، مجمع اللغة العربية الأردني ، عمان ، الأردن .

١٦– الصالح ، صبحي ، ١٩٧٣ ، دراسات في فقه اللغة ، دار العلم للملايين ، بيروت ، لبنان .

١٧– الفهري الفاسي ، عبد القادر ، ١٩٨٦ ، المصطلح اللساني،الملتقى الدولي الثالث في اللسانيات – سلسلة اللسانيات ٦

١٨– الشهابي ، مصطفى ، ١٩٦٤ ، كتابة الأعلام الأعجمية بحروف عربية ، مجلة المجمع العلمي العراقي٣٩(٣): ٣٥٣–٣٦٤ .

١٩– اتيم ، محمود أحمد ، ١٩٨٧ ، بناء المكانز وتطويرها ، مركز التوثيق والمعلومات ، الأمانـة العامـة لجامعـة الدول العربية ، تونس العاصمة ، تونس .

★ ★ ★

الجملة الفعلية والجملة الاسمية

صلاح الدين الزعبلاوي

جرى النحاة على تقسيم الجملة الى فعلية واسمية . وقالوا في تعريف الفعلية : انها الجملة التي تبتدىء بالفعل ، وفي الاسمية : انها الجملة التي يتصدرها الاسم ، ولا شك أن مقالتهم هذه في تعريف الجملتين وتمييز احداهما من الأخرى تبدو شكلية تتناول الجملة من حيث شكلها ولا تتجاوزه الى مضمونها ومادتها . **قال ابن هشام في مغني اللبيب : « فالاسمية التي صدرها اسم كزيد قائم .. والفعلية هي التي صدرها فعل كقام زيد .. » . فهل أصاب النحاة حقا في هذه القسمة وهل تبيّنوا في بنية كل من الجملتين ما تتميز به فعلاً من أختها من حيث اسنادها ودلالتها وشأنها في الأداء ؟**

ما الفارق في الأداء بين الجملة الفعلية يتقدم فيها الفعل فيسند الى فاعله ، والجملة الاسمية يتقدم فيها الفاعل وهو لا يزال مسنداً اليه ليكون مبتدأ ، ومتى نختار هذه الجملة أو تلك ؟

أشار الامام عبد القاهر الجرجاني ، في كتابه (دلائل الاعجاز) ، الى أنك اذا حدّثت عن محدّث عنه ، بالفعل ، بدأت به ولم تقدّم ذكر المحدّث عنه ، كلما كان الفعل مما لا يُشك فيه ولا يُنكر ، وهو الغالب ، قال الجرجاني : « ويزيدك بياناً أنه اذا كان الفعل مما لا يشك فيه ولا ينكر بحال ، لم يكد يجيء على هذا الوجه ، ولكن يؤتى به غير مبني على الاسم ، فاذا أخبرت بالخروج مثلاً عن رجل من عادته أن يخرج في كل غداة ، قلت : قد خرج ، ولم يحتج الى أن تقول : هو قد خرج ، ذلك لأنه ليس بشيء يشك فيه السامع فتحتاج أن تحققه ، الى أن تقدّم فيه ذكر المحدث عنه . وكذلك اذا علم السامع من حال رجل أنه على نية الركوب والمضي الى موضع ، ولم يكن شك وتردد أن يركب أو لا يركب ، كان خبرك فيه أن تقول : قد ركب، ولا تقول : هو قد ركب/١٠٤ » . ولا شك أن الشيخ علي الجارم ، وقد تحدثنا في مقال سابق ، عن مذهبه في تعويل العرب في كلامهم على الفعل ، قد أفاد مما قاله الجرجاني في ما تقدم .

ويقول الجرجاني في موضع تقديم المحدّث عنـه · « ويشهد لأن تقديم المحدّث عنـه يقتضي تأكيد الخبر وتحقيقه ، اننا اذا تأملناوجدنا هذا الضرب من الكلام يجيء فيما سبق فيـه انكار منكر أو اعتراض شـاك ، أو في تكذيب مُدَّع ، كذلك في كل شيء كان خبراً على خلاف العادة » ·

وسترى أن القول ما قاله الجرجاني ، ولكن كيف استدلَّ إمامنا على صحة ما انتهى اليـه مـن الحكم ، وأي سبيل سلك في هـذاالاستدلال ؟ أقول انما أتى الجرجاني بالدليل من آي التنزيل ومن كلام العرب · وقد استكثرمن الشواهد وأخذ باستقرائها وتحليلها · واذا تعذر الذهاب بالاستقراء الى حد الاستقصاءالذي أوجبه السامرّائي ، فيما سبق من القول في مقـال سابق ، فانـه لا يمتنع التعويل في الحكم على الشواهد على هـذه الشواهد لكثرتها وتنوعها ، ومكانتها مـن البلاغة ، ومبلغهـا مـن إحكام السبك الى حد الاعجاز في البيان · فالاستدلال الاستقرائي هذا ، انما هو استقراء للنظائرواستشهاد بها على الأمر المطلوب اقامة الحجة على صوابه · وهو يصل بصاحبه الى التعميم عـن طريق ملاحظة عـدة نماذج متشابهة في ناحية من نواحيها ، فيعمم الحكم عليها بحيث يجعلها زمرة واحـدة ، ويقوّي اليقين بهـذا الاستدلال كثرة النظائر والأمثلة المنتمية الى هذه الزمرة ·

ولكن ما رأي العلماء المعاصرين فيما قيل عن فارق الأداء بين تقديم الفعل واسناده الى فاعله ، وتقديم الفاعـل ليكون مبتـدأ ومولا يزال مُسنداً اليه ؟ وما يتفرَّع على ذلك من قسمة الجملة الى فعلية واسمية ·

☐ **مذهب الجواري في قسمة الجملة الى فعلية واسميـة :**

ذهب الدكتور أحمد عبدالستار الجواري ، رحمه الله في كتابه (نحو الفعل) الى أن الجملة في مثل قولك (قام زيد) قـد أسند فيها القيام الى زيد ، وفي (زيد قام) قد أسند فيها القيام الى زيـد أيضا ، وليس بين الجملتين ، عنـدالموازنة ، الا اهتمام المتكلم في الأولى بالاخبار عن المجيء ، وقد دعاه هذا الى الابتداء بالفعل ، فقال : (قام زيد) ، واهتمام المتكلم في الثانية بالاخبار عن (زيـد) ، فقاده هذا الى تقديمه ذكره فقال : (زيد قام) ، فالجملة في الحالتين كلام أسند فيه ما تخبر به ، أي (المسند) وهوالفعل ، الى ما تخبر عنه أي (المسند اليه) وهو الاسم · قال الأستاذ الجواري : « وحقيقة الأمر **أنه لا فرق بين نحو قام زيد ، وزيد قام ، من حيث طبيعة** التركيب · فالمسند فعل في الجملتين ، واذن فطبيعة الاسناد فيهما واحدة ، يقصد فيها الى النص على معنى الزمن · والفرق بينهما ينحصر في تقدم المسند اليه في الجملة الثانيـة للاهتمام به ، وتأكيد الحكم عليه · أما الجملة الأولى فهي الجملة الفعلية على رسلها ، وعلى الوجه المألوف بينها ٢٠ و ٢١ » ·

وهكذا يرى الأستاذ الجواري أن تقديم الفاعل بالابتداء لا يغير مـن تركيب الجملة فيقول : « وليس تقديم الفاعل بالأمر الغريب ، فقـد أجازه نحـاة الكوفة ، وهو في اللغـات الحديثة وما تحدَّرت عنه من اللغات القديمة ،هو المألوف/٨٥ » ·

فالجملة الفعلية عند الجواري هي التي أسند فيها الفعل الى الاسم ، أي الفاعل ، سواء اتقدم هذا الفاعل أم تأخر · وأما الاسميه فهي التي أسند فيها الاسم الى الاسم· قال الجواري : « ويبدو أن الجملة العربية قد تميزت في صورتها التي وصلت الينا بان التركيب فيها يكون بين الاسم والفعل تارة ،وبين الاسم والاسم تارة أخرى · وتسمى الصورة الأولى الجملة الفعلية ، وتسمّى الصورة الثانية الجملة الاسمية » ، ثم انتقل الى تفصيل الكلام على الجملة الاسمية فقال :« وهذه الصورة الأخيرة لا يمكن أن تخلو في ما نعرف من اللغات ، ولا سيما الحديثة ، من فعل وان كان فعلاً ناقصاً يعين على الاسناد ويحدد زمانها / ١٨ » ·

ويمضي الأستاذ الجواري في الكلام على الجملة الاسمية ويورد لها الأمثلة فيقول : « فنحن نقول في العربية اذا أردنا اسناد القيام الى زيد : زيد قام ، ونقول في اللغات الأخرى ما يشبه قولنا في العربية : زيد يكون قائماً ،وهكذا » · ويعقب على ذلك فيقول : « وقد يكون التركيب الاسمي أو الجملة الاسمية في اللغة العربية ثمرة من ثمار التطور والتحول الذي قطعته هذه اللغة في عهود سحيقة ، موغلة في القدم ، لا نكاد نتبين لها ملامح ، أو نشهد لها آثاراً ، وانما نقف في بعض المظان على ظواهر تدل على أن العربية كانت تسلك سبيل غيرها من اللغات فتستعين بفعل الكون ، كان الناقصة، على الاسناد، ولعل من ذلك ما يذكره النحاة عن (كان الزائدة) ، في مثل قول أم عقيل ابن أبي طالب :

أنت تكون ماجد نبيل اذا تهبُّ شمألٌ بليلُ

وواضح أن فعل الكون في مثل هذه الجملة لا فائدة فيه ، فان تركيبها من اسمين غنيٌ عن معنى ذلك الفعل غير محتاج اليه ، اللهم الا اذا أريد معنى المضيّ فيؤتى بالفعل ماضياً ، ويكون حينئذ هو المسند أو يكون جزءاً منه/١٩ » ·

☐ خلاصة مذهب الجواري في الجملة الفعلية والاسمية :

أقول يمكن ايجاز مذهب الجواري هذا بأن الجملة الفعلية هي التي أسند فيها الفعل الى الاسم ، وهو الفاعل ، ولا يعني تقديم الفاعل أو تأخيره الا الاهتمام به في مثل قولك (زيد قام) أو الاهتمام بما أسند اليه وهو الفعل في مثل قولك (قام زيد) · أما الاسمية فهي ما أسند فيها الاسم الى الاسم كقولك (زيد قائم) ، وهي صورة حديثة انتهت اليها العربية بعد أن تجاوزت أطواراً كانت تستعين فيها على الاسناد بفعل ناقص ، هو فعل الكون ، كما تفعل اللغات الأخرى ، ولا سيما الحديثة·

☐ الرأي في ما تصوره الجواري حداً لتمييز الجملة الفعلية من الاسمية :

خالف الجواري في ما انتحاه ، مذهب جمهور النحاة ، وتفرقت بينهما السبل · اذ اعتدّ قولك (زيد قام) جملة فعلية ، وقصر الاسمية على مثل قولك (زيد قائم) · وسنجمل الردّ عليه وعلى من اتخذ نحواً من مذهبه بعد ·على أننا نود أن نشير هنا الى أن قوله ان

اللغـات الحديثـة لا تزال تستعين في الاسنادبفعل مساعد في مثل قولها : (خالد يكون قائماً) وأن العربية قد عرفت هذا في طور من اطوارها، في نحو قول أم عقيل ابن أبي طالب :

أنت تكـون مـاجـد نبيـلُ   إذا تَهبُّ شمـألٌ بليـلُ

حين اعتدّوا فعل الكون المضارع زائداً لا يفيد في موقعه معنى • أقول ان دعواه هـذه فيها نظر ، ذلك أن اللغات الحديثة ، ومنهـا الآرية ، تستعين بافعال مساعـدة في الاسناد كفعلي الكـون والملك • وهو أمر معروف •ولكن ما بال الجواري يقتاس للعربيه وطرائقها في الاسناد بما تستن به اللغات الأخرى كالآرية، وينهج لها في التعبير سبيلها • وكيف اتفق له ان يتحقق أن العربيـة انما كانت تجري على أسلوب هـذه اللغـات وتحاكيها في طريقـة الاسناد • وهو لو برهـن أن اللغات الأكادية والآشورية والبابلية والكنعانية والآرامية من أخوات لغتنا العربية ، بل لهجاتهـا الموغلة في القـدم ، انما تستعين بأفعـال مساعـدة وأن العربية كانت تحـذو حـذوها وتطبـع على غرارها لكان له في ذلك وجـه صالح ومذهب متقبل ، ولم يتحدث المتخصصون في هذه اللغات عن شيء من هذا القبيل •

ولا ننس أن ما خُصَّت به العربية من ظاهرة الاعراب الذي تتكشف عن علاقة أجزاء الجملة بعضها ببعض قد أسقطت عنها ضوابط كان لا بـد للغات غير المعربة مـن التزامها ، فتميزت بذلك أصول كـل منهمـا في التركيب بسمات خاصة بها • **وقد أشار الدكتور محمد خـير الحلواني الى نحو مـن هـذا فقـال : « والاعراب بهذه الوظيفة أغنى اللغة العربية عن أن تجعل تركيبها ذا حدود صارمة مقيّدة لا يمكن تجاوزها والخروج على أعرافها ، كما هو الحال في اللغتين الفرنسية والانكليزية » ،وأردف : « ومـن هنا لم يكن التركيب فيهـا بحاجة الى فعل الكون ، أو الى فعل مساعد ،كما لم تكن به حاجة الى تقديم الفاعل وتأخير المفعول تقديماً واجباً ، ولا يشترط أن يكون الاسم قبـل الفعل المخبر عنـه ، لان صرامة التركيب جاءت في اللغتين الفرنسيه والانكليزية تعويضاً عن فقدان الاعراب الذي كان لأمّهما اللاتينية والجرمانية اللتين تفرّعتا عنهما ــ مجله الفيصل / العدد : ٣٧ » •**

وهكذا آمكن في العربية تقـديم المفعول على الفاعل وتأخيره ، كلما أملت دقة التعبير ودعا اليه وجه الأداء ، وكـان من شان الاعراب ان يكشف عن الفاعل والمفعول على السواء ، خلافاً للغتين الفرنسية والانكليزية حين آوجبتا تقديم الفاعل وتأخير المفعول • ففي التنزيل: « إنما يخشى الله من عباده العلماء ــ فاطر/٥٨ » ، وقـد بـدا بالاعراب فاعلية (العلماء) ومفعولية (لفظ الجلالة) ، وكشفت عن ذلك القرينـة المعنويـة ، فالخشية إنما تقع مـن العلماء ، وقـد نُزّه الله عـن الخشية • وفي تقـديم المفعول ، وهو اسم الله ، غرض هـو الاخبـار بأنّ الذين يخشون الله هم العلماء خاصة دون سواهم ، فقد قصد بتقديم المفعول حصر الفاعلية ، ولو أخّر لانعكس الأمر ، أي لو قيـل : (إنما يخشى العلماء الله) لفُهم أن المخشيّ هو الله دون غيره ، ولا تكون الخشية مخصوصة بالعلمـاء ، مقصورة عليهم ، بل يشارك فيها غير العلماء ، فهم يخشون الله وقد يخشون سواه ، خلافاً للعلمـاء فهم لا يخشون سـواه •

وهكذا قوله تعالى : « وإذ ابتلى إبراهيمَ ربُّه بكلمات فأتمهن قال إني جاعلك للناس إماماً / البقرة ١٢٤ » . فالفاعلية للفظ الجلالة والمفعولية لابراهيم ، وقد دلّت على ذلك قرينة المعنى ، فالمبتلي هو الله ، والضمير لابراهيم لتقدّمه لفظاً وان تأخر رتبة ، اذ يكفي أن يتقدم مرجع الضمير لفظاً أو رتبة . وانت تقول: (أخطأني الحظُّ) فتعلم أن الفاعل هو الحظ ، وقد تقدم عليه المفعول ، كما تقول : (أخطأت الحظَّ) فتعلم أن الحظ هو المفعول ، وقد تقدّم عليه الفاعل .

أما دعوى الجواري أن العربية قد عرفت الاستعانة بفعل مساعد في طور من أطوارها بدليل قول أم عقيل « أنت تكون ماجدٌ نبيلُ » برفع (ماجد نبيل) على أنه خبر للمبتدأ ، فليس ذلك باليقين الثابت بالدليل المقنع .

☐ زيادة (كان) في كلام العرب في غير موضع زيادتها :

ذكر النحاة أن (كان) تختصّ من بين أخواتها بجواز زيادتها بلفظ الماضي ، بين شيئين ليسا جاراً ومجروراً ، فتكون زيادتها للدلالة على الزمن الماضي . وهي اذ أشبهت (أمس) حكم لها بحكمها ، كما ذكر ابن عصفور أبو الحسن الاشبيلي الاندلسي ، في كتابه (الضرائر) . وقد ورد هذا في سعة الكلام كقول قيس بن غالب البدري : « ولَدت فاطمة بنت الخُرشُب الكَمَلَة من عبس لم يوجد كان مثلهم » .

وأما زيادتها بلفظ المضارع فانه نادر . وقد جاء عليه قول أم عقيل « أنت تكون ماجد نبيل » وقول حسّان :

كأن سبيئة من بيت رأس يكون مزاجُها عسلٌ وماءُ

برفع (مزاجها) على المبتدأ ، ورفع (عسل) على الخبر ، كما قال ابن السيد في أبيات المعاني من كتابه (اصلاح الخلل) . والسبيئة بالهمزة الخمرة . وبيت رأس قرية بالشام اشتهرت بجودة الخمر . وقد حمل ابن هشام في (المغني) رفع (عسل وماء) على اضمار الشأن . وروي (مزاجها) بالنصب أيضاً ، وجعلت المعرفة الخبر والنكرة الاسم ، وذهب سيبويه الى أن هذا غير جائز في الاختيار وأنه خاص بالشعر ، لأن الأصل أن يخبر بالنكرة عن المعرفة . وتأوله أبو علي الفارسي على أن انتصاب (المزاج) على الظرفية المجازية ، أي يكون في مزاجها . وقد روي برفع (المزاج) ونصب (العسل) على الأصل . وأقرب ما يقال في تأويل ما جاء أنه من الضرائر الشعرية ، كما قاله كثيرون . (الضرائر لمحمود شكري الآلوسي/٣٠٨) ز

☐ المخزومي ومذهبه في الجملة الفعلية والاسمية :

وممن بحث تقسيم الجملة من الباحثين المعاصرين ، الدكتور مهدي المخزومي ، في كتابه (في النحو العربي) ، وقد نهج في ذلك سبيلاً عقد فيه الحدّ في قسمة الجملة على (المُسند) ، كما فعل الدكتور الجواري . فالجملة فعلية اذا كان فيها المسند فعلاً فأفاد التجدد ، فقولك (طلع البدر) و (البدر طلع) جملتان فعليتان ، خلافاً لما أجمع عليه جمهور

النحاة • قال المخزومي : « الجملة الفعلية هي الجملة التي يدل فيها المسند على التجدد ، أو التي يتصف فيها المسند اليه بالمسند اتصافاً متجدداً • وبعبارة أوضح ، هي التي يكون فيها المسند ـ فعلاً ـ لأن الدلالة على التجدد انما تستمد من الأفعال وحدها/ ٤١ » •

وقال المخزومي في ايضاح مذهبه : « ومعنى هذا أن كلاً من قولنا طلع البدر والبدر طلع ، جملة فعلية • أما الجملة الأولى فالأمر فيها واضح ، وليس فيها خلاف مع القدماء • وأما الجملة الثانية فاسمية في نظر القدماء وفعلية في نظرنا ، لأنه لم يطرأ عليها جديد الا تقديم المسند اليه ، وتقديم المسند اليه لا يُغيِّر من طبيعة الجملة ، لأنه انما قدم للاهتمام به/ ٤٢ » •

فالجملة الاسمية ، عند المخزومي ، ما كان المسند فيها اسماً فأفاد الثبوت والدوام ، كقولك (البدر طالع) • قال المخزومي : « أما الجملة الاسمية فهي التي يدل فيها المسند على الدوام والثبوت ، أو التي يتصف فيها المسند اليه بالمسند اتصافاً ثابتاً غير متجدد ، أو بعبارة أوضح هي التي يكون فيها المسند اسماً ، على ما بينه الجرجاني في ما اقتبسنا من كلامه ها هنا/ ٤٢ » •

وقد أخذ المخزومي على النحاة أنه قد فاتهم الكشف عن الفرق بين طبيعتين مختلفتين ، فقال : « فان تقسيمهم الجمل الى اسمية وفعلية مبني على أساس لفظي محض ، لم يلحظوا فيه الفرق بين طبيعتين مختلفتين ، فضيقوا مجال الجملة الفعلية حتى قصروها على ما تقدم فيها الفعل ، ووسَّعوا مجال الاسمية حتى أدخلوا فيها ما ليس منها ، من جمل فعلية تقدم فيها الفاعل على الفعل •• » ، وأردف : « ولو كان تحديدهم الاسمية والفعلية قائماً على أساس من ملاحظة واعية للفرق بين طبيعتي الجملتين ، لكان عملهم أجدى ، ولكفَوْا أنفسهم والدارسين والنصوص المدروسة ، عناء ما تكلَّفوه من تأويل وتخريج/ ٢١٨ » •

☐ الرأي في ما جاء به المخزومي :

أقول الجواب عما جاء به المخزومي انما يتناول جهتين :

الأولى : أن قوله (طلع البدر) و (البدر طلع) جملتان متشابهتان من حيث الاسناد ولذا كانتا فعليتين ، قوله هذا لا أظنه صحيحاً ، وسنبين في ما بعد دلالة كل من الجملتين ، حين الموازنة بينهما ، وأن النحاة على حق في الفصل بين الجملتين • وقد فات المخزومي الصواب كذلك حين قال : « أما الجملة الاسمية فهي التي يدل فيها المسند على الدوام •• وبعبارة أوضح : هي التي يكون فيها المسند اسماً ، على ما بينه الجرجاني ، في ما اقتبسنا من كلامه ها هنا » ، فالجرجاني لم يقصر الجملة الاسمية على الجملة التي جاء مسندها اسماً ، في ما اقتبسه المخزومي من كلامه ، وكل ما أشار اليه في مثاله هو ثبوت الانطلاق لزيد في قولك : زيد منطلق ، وتجدده في قولك : هو ذا ينطلق ، لا أكثر من ذلك ولا أقل !

الثانية : ان في وصف الفعل بالتجدد ونسبة ذلك الى الجرجاني نظراً ، ذلك أن التجدد الذي عناه الجرجاني ، كما سنبسط القول فيه ، مقصور على المضارع ، على حين جاءت أمثلة المخزومي على الفعل الماضي !

□ مقالة الجرجاني في تجدد الفعل واستمرار اسم الفاعل :

ذكر الجرجاني في كتابه (دلائل الاعجاز/١١٥) أن الاسم الذي أسند الى (زيد) في قولك (زيد منطلق) يثبت معنى الانطلاق لزيد، دون أن يقتضي تجدده ، وأن الفعل الذي أسند الى (زيد) في قولك (زيد ينطلق) يثبت به الانطلاق الذي يتجدد فيقع من (زيد) شيئاً بعد شيء • وأكد في موضع آخر (ص/١١٧) أن لكل من الاسم والفعل المسندين في هذه الجملة الاسمية دلالة تغاير دلالة الآخر، فقال: « ولا ينبغي أن يغرّك اذ تكلمنا في مسائل المبتدأ والخبر أننا قدرنا الفعل في هذا النحو تقدير الاسم ، كما نقول في زيد يقوم انه في موضع زيد قائم ، فان ذلك لا يقتضي أن يستوي المعنى فيه استواء لا يكون من بعده افتراق، فانهما لو استويا هذا الاستواء لم يكن أحدهما فعلاً والآخر اسماً ، بل كان ينبغي أن يكونا فعلين أو يكونا اسمين ». فما الذي قصد اليه الجرجاني بقوله : الفعل الذي يثبت به المعنى المتجدد ، والاسم الذي يثبت به المعنى غير المتجدد ؟

أقول صواب المسألة عندي أن الفعل الذي قرن بالتجدد ، في مقالة الجرجاني ، هو الفعل المضارع خاصة ، وأن الاسم الذي وصف بعدم التجدد هو اسم الفاعل ، المعدّ للعمل ، الجاري على معنى الفعل ولفظه ، واسم الفاعل لا يُعد للعمل ما لم يكن للحال أو الاستقبال ، دون الماضي ، وما لم يكن معتمداً على نفي أو استفهام أو مبتدأ صريح أو منويّ ، أو موصوف ، أو ذي حال •

فقد ذهب كثير من النحاة ، في مثل قولك (خالد دائب في عمله) أنه بمعنى قولك (خالد يدأب في عمله) • ورأى الجرجاني غير ذلك حين أكد أن في دلالة الفعل ، أي المضارع وهو (يدأب) من التجدد ما ليس في الاسم ، وهو اسم الفاعل (دائب) • وأشار الى مثل ذلك بعض الأئمة • قال ابن مالك في (الفيتّه) : « أحمد ربي الله خير مالك » فعقب الأشموني على هذا فقال : « أي أثنى عليه الثناء الجميل اللائق بجلال عظمته وجزيل نعمه ، التي هذا النظم من آثارها » ، وأردف : « واختار صيغة المضارع المثبت لما فيه من الاشعار بالاستمرار التجددي • أي كما أن آلاءه تعالى تتجدد في حقنا دائماً ، كذلك نحمده بمحامد لا تزال تتجدد •• » • وفي قوله : « واختار صيغة المضارع » ما يشعر بخصوصية هذه الصيغة في الدلالة على التجدد •

وهذه شواهد الجرجاني وأمثلته • ومنها قوله تعالى: « وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد ـ الكهف/١٨ » • قال الجرجاني : « فانّ أحداً لا يشك في امتناع الفعل ها هنا ، وأن قولنا : وكلبهم يبسط ذراعيه ، لا يؤدي الغرض • وليس ذلك الا لأن الفعل يقتضي مزاولة وتجدد الصفة في الوقت ، ويقتضي الاسم ثبوت الصفة وحصولها من غير أن يكون هناك مزاولة وتزجية فعل ومعنى يحدث شيئاً فشيئاً ، بل تشبته بصفة هو عليها ، فالغرض اذن تأدية هيئة الكلب/١٣٤ » • وقد ذهب جماعة الى أن اسم الفاعل في الآية ، وهو (باسط) جاء للماضي ، أي أن زمن حصوله للمخبر عنه سابق نزول الآية الكريمة على رسول الله (ﷺ) ، وقد أجيب عن ذلك بأن الكلام قد جاء على حكاية الحال ، بدليل قوله تعالى (وكلبهم

باسط) والواو للحال ، ولا يحسن أن يقال هنا : وكلبهم بسط ، بالماضي ، وانما يحسن أن يقال بعد واو الحال : وكلبهم يبسط ·وقد جاء قبل الآية قوله تعالى : « ونُقَلِّبهم ذات اليمين وذات الشمال » فأتى فيه بالفعل المضارع الدال على الحال أو الاستقبال ·

ومن شواهد الجرجاني في هذا الباب ، قوله تعالى « هل من خالق غير الله يرزقكم ـ فاطر/٣ » فقد ذهب الجرجاني أن الفعل قد آتى بصيغة المضارع لأن الرزق يتجدد ساعة بعد ساعة ولو قيل (هل من خالق غير الله رازقكم) بصيغة اسم الفاعل لكان المعنى غير ما أريد (ص/١٣٦) ·

وهكذا قول الجرجاني (زيد منطلق) فانه لا يعني عنده غير اثبات الانطلاق لزيد ، أما (زيد ينطلق) فقد قال فيه : « فاذا قلته ،أي زيد ينطلق ، فقد زعمت أن الانطلاق يقع منه جزءاً جزءاً وجعلته يزاوله ويُزجيه ·· » ·

ويتبين بما قدمنا أن الجرجاني قد رأى التجدد في صيغة المضارع دون سواها ، وقد استنَّ بسنته في وصف الفعل بالتجدد الدكتور المخزومي في ما اقتبسه عنه ، لكنه لم يقصر التجدد على المضارع منه ، فقال: « ان الجملة الفعلية هي التي يدل فيها المسند على التجدد ·· وبعبارة أوضح هي التي يكون فيها المسند فعلاً لأن الدلالة على التجدد انما تستمد من الأفعال وحدها/ ٢٤١ » · ثم استشهد في اثبات مقالة التجدد هذه بمثال جاء به على صيغة الماضي فقال : « ومعنى هذا أن كلاً من قولنا طلع البدر والبدر طلع جملة فعلية ·· » ، ففاته بذلك فهم مذهب الجرجاني في التجدد ،وفي دعواه أن (البدر طلع) جملة فعلية ·

وانظر بعد الى ما جاء في (الكليات) لأبي البقاء الكفوي · قال أبو البقاء : « اشتهر عند أهل البيان أن الاسم يدل على الثبوت والاستمرار ، والفعل يدل على التجدد والحدوث ـ ١٨٢/٥ » ، فأشار الى نحو مما خلص اليه الجرجاني ، في هذا الباب ، ولم يشر الى ما يريده بالفعل صراحة · لكنه بحث هذا في موضع آخر فقال : « الجملة الاسمية اذا كان خبرها اسماً فقد يقصد بها الدوام والاستمرار الثبوتي بمعونة القرائن » ، وأردف : « واذا كان خبرها مضارعاً فقد يفيد استمراراً تجددياً ـ ١٧٤/٥ » ، فكشف عن أن ما يريده بالفعل هو المضارع ·

وعلق أبو البقاء عمل اسم الفاعل ودلالته على الاستمرار، على كونه للحال أو الاستقبال، فقال : « اسم الفاعل اذا كان للاستمرار يصح إعماله نظراً الى اشتماله على الحال والاستقبال، والغاؤه لاشتماله على الماضي ـ ٣١٧/٥ » ·

☐ الثبوت في الصفة المشبهة :

واذا دلَّ اسم الفاعل على الاستمرار والدوام فان الصفة المشبهة أصل في الثبوت · فقد جاء قوله تعالى : « ثم إنكم بعد ذلك لميِّتون ـ المؤمنون/ ١٥ » · قال الامام البيضاوي في تفسيره : « لصائرون الى الموت لا محالة ،ولذلك ذكر النعت الذي للثبوت ، دون اسم الفاعل » · ولكن أوَ لا يصح ها هنا أن يقال :(ثم إنكم بعد لمائتون) بلفظ اسم الفاعل ؟

أقول يصح هذا اذا أريد به الاستمرار ، فقدأشار الى ذلك الامام البيضاوي نفسه ، حين أردف : « وقد قرىء به » أي قرىء باسم الفاعل أيضاً .

ولا يخفى أن دلالة (الميت) بتشديد الياء في الآية ، نحو دلالة (المائت) ، أي لا بد أنهم صائرون الى الموت ، ولا يعني أنهم فارقوا الحياة . وكذلك قوله تعالى : « إنك ميِّت وإنهم ميِّتون ـ الزمر/٣٠ » بتشديد الياء . قال الراغب في مفرداته : « قيل معناه ستموت، تنبيهاً أنه لا بد من الموت ، كما قيل : والموت حتم في رقاب العباد » .

وجاء في الكليات لأبي البقاء الكفوي : « والميْت مخففة هو الذي مات ، والميِّت بالتشديد ، والمائت هو الذي لم يمت » : وقدذهب الى هذا جماعة ، لكن الذي عليه نصوص المعجمات أن المائت هو الحي ، والميت بالتخفيف هو الذي فارق الحياة . أما الميِّت بالتشديد فقد يعني الحي كالمائت ، ويعني فاقد الحياة كالميت بالتخفيف . وجاء في الحديث الشريف: « يتبع الميت ثلاث : أهله وماله وعمله ، فيرجع اثنان ويبقى واحد ، يرجع أهله وماله ويبقى عمله » . والميت هنا فاقد الحياة ، وقدروي ها هنا بالتخفيف . (اعراب الحديث النبوي للعكبري ـ ص/١٢١) .

□ مذهب الدكتور السامرائي في الجملة الفعلية والاسمية :

بسط الدكتور السامرائي مذهبه في هذه المسألة ، في كتابه (الفعل زمانه وأبنيته) ، فسلك طريقة المخزومي في ما رسمه من حد يفرق به الجملة الفعلية من الاسمية ، وجرى على منهاجه فجعل قوله (سافر محمد) و (محمدسافر) سواء في الاسناد ، لأن المسند فيهما هو الفعل ، وهذا هو سبيل الجواري نفسه في الموازنة بين الجملتين .

لكن السامرائي قد أخذ على المخزومي قوله بتجدد الفعل . قال السامرائي : « وقد خالف الدكتور المخزومي الأقدمين في حد الجملتين الفعلية والاسمية . فقد ذكر أن الجملة الفعلية ما كان فيها المسند اسماً ، وقد أصاب الأستاذ المخزومي الحقيقة في الحد الذي رسمه للجملة ، فان : سافر محمد ، جملة فعلية هي نفسها : محمد سافر . غير أن الدكتور المخزومي الذي أفاد من مقالة الجرجاني واتخذها دليلاً للتمييز في الجملة الاسمية والفعلية ، لم يفطن الى أن هذه المقالة حجة عليه . فالتجدد المنسوب للفعل المسند الى الاسم ، لم يتحقق في قولهم : محمد سافر وسافر محمد . ومن هنا لا يمكن للسيد المخزومي أن يعتبر الجملتين فعليتين .. » ، وأردف : « أما نحن فنقول ان محمد سافر وسافر محمد جملتان فعليتان ، ما دام المسند فعلاً ، وليس لنا أن نلصق التجدد بالفعل لأن ذلك ليس من منهجنا ، لأن الشواهد لا تؤيد هذا التجدد المزعوم » .

وقد أوضح السامرائي رأيه في تجدد الفعل فقال : « وكيف لنا أن نفهم التجدد والحدوث في قولنا : مات محمد وهلك خالد وانصرف بكر . فهذه الأقوال كلها أحداث منقطعة لا يمكن لنا أن نجريها على التجدد والحدوث . واختيار الجرجاني لـ : ينطلق ، مفيد له في اثبات مقالته . أما أن يكون الفعل: سافر وذهب ومات ، وما الى هذا ، فليس في ذلك ما يحقق غرض الجرجاني ، ولا ما ذهب اليه المخزومي ـ ٢٠٤/٢٠٥ » .

الجواب عما جاء به السامرائي :

أقول في الجواب عما جاء به السامرائي انه لا حجة لمقالة القائلين أن (سافر محمد) و (محمد سافر) سيّان في الاسناد لأن المسندفيهما هو الفعل ، وسنبين ذلك بعد • أما تجدد الفعل الذي أتت به مقالة الجرجاني ، فقد تأكد أنه مقصور على المضارع ، خلافاً لأمثلة المخزومي • والسامرائي على حق حين أنكرتجدد الأفعال في ما أورده من الأمثلة ، لا لشيء سوى أنها أتت على صيغة الماضي ، لا المضارع ،كما بسطنا القول فيه قبل • اذ ليس في قولك (سافر محمد) و (محمد سافر) أو في قولك (البدر طلع) و (طلع البدر) ما يشعر البتة بتجدد الفعل • ولكن ما الذي أراده السامرائي بقوله : « غير أن الدكتور المخزومي الذي أفاد من مقالة الجرجاني ، واتخذها دليلاً للتمييز بين الجملة الاسمية والفعلية ، لم يفطن •• » ؟ فما الذي أفاده المخزومي من مقالة الجرجاني واتخذ منه دليلاً للتمييز بين الجملتين ؟

أقول الذي فعله الجرجاني هو أنه بسط القول في دلالة مختلف الصور التي تؤديها الجملة الفعلية والاسمية ، فأبان مثلاً فرقما بين دلالتي (زيد ينطلق) و (زيد منطلق) الاسميتين ، وبين (قتل الخارجي زيد) و (قتل زيد الخارجي) الفعليتين ، وبين (ينطلق زيد) الفعلية و (زيد ينطلق) الاسمية ، وبين (ضربت زيداً) الفعلية و (زيد ضربته) الاسمية •• وهكذا •

ومما قاله الجرجاني مثلاً في الفرق بين أن يكون المسند في الجملة الاسمية اسماً لا تجدد فيه ، أو فعلاً متجدد الحدث ، فقال في كلامه على (فروق الخبر): « ان موضوع الاسم على أن يثبت به المعنى للشيء ، من غير أن يقتضي تجدده شيئاً بعد شيء • أما الفعل فموضوعه على أن يقتضي تجدد المعنى المثبت به شيئاً بعد شيء • فاذا قلت : زيد منطلق فقد أثبت الانطلاق فعلاً له ، من غير أن تجعله يتجدد ويحدث منه شيئاً فشيئاً ، بل يكون المعنى فيه كالمعنى في قولك زيد طويل وعمر قصير • وكما لا يقصد ها هنا الى أن تجعل الطول أو القصر يتجدد ويحدث كما توجبهما وتثبتهما فقط ، وتقضي بوجودهما على الاطلاق ، كذلك لا تتعرض في قولك :زيد منطلق لأكثر من اثباته لزيد• وأما الفعل فانه يقصد منه الى ذلك •• فاذا قلت زيد هو ذا ينطلق فقد زعمت أن الانطلاق يقع منه جزءاً فجزءاً ، وجعلته يزاوله ويزجيه •• ــ ١٣٣/١٣٤ » • فقد جاءت مقالة الجرجاني هذه للتمييز بين كون الخبر اسماً يثبت به المعنى للمبتدأ دون تجدد ، أو فعلاً يثبت به وقوع الحدث منه في تجدد • والذي أفاده المخزومي من هذا أنه اتخذ الفرق بين الخبرين حداً يميز به الجملة الاسمية من الفعلية ،وذلك ما لم يخطر للجرجاني على بال أو يجري له في حساب ، عدا ما ذهب على المخزومي من أن الذي عناه الجرجاني بالفعل ، هو المضارع دون سواه •

وقد أفاد السامرائي نفسه من مقالة الجرجاني هذه ، فحكاها عنه في كتابه (الفعل زمانه وأبنيته/٢٠٢) ، وعقّب عليها فقال: « وعلى هذا فالجملة الاسمية ما دلّ فيها المسند على الدوام والثبوت » ، وأردف : « ومقالة الجرجاني هذه في التمييز بين الفعل والاسم ينبني عليها التمييز بين الجملة الفعلية والجملة الاسمية » •

وهكذا فات السامرائي في استنباطه هذا ما فات المخزومي من مقالة الجرجاني . اذ كان غرض الجرجاني من مقالته هذه بيان الفرق في الاسناد بين أن يكون الخبر اسم فاعل أو فعلاً مضارعاً (أي جملة فعلية فعلها مضارع) في جملة اسمية لم يتغير مبتدؤها ، ويؤيد ذلك قول الجرجاني بعد هذا : « ولا ينبغي أن يغرك ، اذا تكلمنا في مسائل المبتدأ والخبر ، أنا قدرنا الفعل في هذا النحو تقدير الاسم ،كما تقول في زيد يقوم انه في موضع زيد قائم .. » ، فدلَّ بكلامه هذا أن كلاً من الجملتين (زيد يقوم) و (زيد قائم) تتألف من مبتدأ وخبر ، فهما اذن جملتان اسميتان .

☐ السامرائي وموضوع النحو :

نهج السامرائي ، كما ذكرنا ، نهج الجواري والمخزومي في التسوية به قولك (قام الرجل) و (الرجل قام) ، فنقد على الشيخ الجارم مذهبه في اتخاذ مذهب النحاة في التمييز بين الجملتين الفعلية والاسمية ، وكشف عما يعنيه تقديم الفعل في الأولى وتأخيره في الثانية، على ما انتحاه الجرجاني في (الدلائل) ، قال السامرائي : « وهذه المسألة البلاغية لا يمكن أن تكون مادة في البحث النحوي ، والشيخ الجارم يجد في دلائل الاعجاز للجرجاني ما أعانه على اثبات ما أثبته . وهو في ذلك كالأستاذ المخزومي في التماس مادته من المصدر نفسه/٢٠٦ » .

ثم أوضح رأيه فقال : « وعلى هذا فان هذا المنحى ليس منهجاً نحوياً ولا يقرب منه ، في أي وجه من الوجوه/٢٠٨ » ، وخلص الى القول : « ولقد بحث علماء المعاني في الجملة العربية بحثاً خاصاً بهم ، ذلك لأن ما خاضوا فيه ليس من مادة النحو الذي يقتصر على أجزاء الجملة وعلاقات هذه الأجزاء ببعضها ، ووصفها كما تبدو في بناء الجملة/٢١٢ » .

وهكذا سلك السامرائي في معالجة المسألة مسلكاً لا يتناول فيه حقيقة ما ذهب اليه الجرجاني وتابعه فيه الجارم ، في التفريق بين الجملتين ، أهو حقيقة علمية راهنة يدعمها البحث وتؤيدها الأدلة الواضحة والبينات المسلَّمة وعلم اللغة الحديث، فلا بد من الاخذ بها ، أم هو شيء لا يتصل بهذا كله فلا بد من معارضته واستبعاده ، وانما يأبى الخوض في ذلك لأن المسألة مسألة بلاغية ، لا يمكن أن تكون مادة البحث النحوي ، وأن تحريرها يستلزم العدول الى منحى ليس هو منهجاً نحوياً ولا يقرب منه ، في أي وجه من الوجوه .

أقول يمكن الاجابة عما ذهب اليه السامرائي من جهتين :

الأولى : أن ما يجب الفحص عنه هنا ، هو حقيقة الحد الذي اقتاس به الباحثان الجرجاني والجارم ، سواء أكان البحث فيه من شأن البلاغة أم من شأن النحو . فاذا صحَّ أن لكل من الجملتين شأناً في التعبير لا تؤديه الأخرى ، فالجملتان متغايرتان ، وأن اشتراط النحاة في الفاعل أن يتقدم عليه فعله ليتميز بذلك من المبتدأ الذي تبدأ به الجملة الاسمية، أمر يقتضيه الفصل بين شأنيهما ، وأي غرابة في أن تتغير معاني التركيب بتغير مواضع عناصره ؟

الثانية : أنه لا غنى لمادة النحو من بحث ما نحن بسبيله من الكشف عن تغير الدلالة في كل من الجملتين بتنقل أجزائها . فاذا كان غرض النحو الأول وقاية اللسان من اللحن

والخطأ ، ولذا جعلوا منه العلم الذي تعرف به أحوال أواخر الكلم إعراباً وبناءً ، فكان علم الاعراب ، كما ذكر الزمخشري في مقدمة كتابه (المفصّل) فان من أغراض النحو ، ولا شك ، انتحاء سمت كلام العرب في تصرفه من اعراب وغيره ٠٠ ليلحق من ليس من أهل اللغة العربية بأهلها في الفصاحة ، كما قال ابن جني في الخصائص (١/١٣٢ ـ ط/١٩١٣ م) ، وقد أشار الزمخشري في موضع آخر من مقدمته الى علاقة ما بين النحو والبيان فقال : « وهو المرقاة المنصوبة الى علم البيان المطلع على نكت نظم القرآن » ؛ فعبر بذلك عن اتصال النحو بالبلاغة وتلازمهما ، وقد برع الجرجاني في ذلك وبسط القول فيه ٠ وأكد ابن سيده أبو الحسن كلام ابن جني في مخصصه ، حين حاول تعريف علم النحو ، فاستعار ألفاظ ابن جني نفسها ولم يخرج عنها ٠

وقد عرضت لهذا في كتابي (مذاهب وآراء في نشوء اللغة وتدرج معانيها/١١١)، اذ جاء فيه : « ولا يخفى أن النحو عند الأوائل هو علم العربية الذي يُعرف به وجهة كلام العرب وما يقصدون اليه في التعبير عن أغراض النفس ٠ وقد أشار الى ذلك الأشموني حين قال : وهو العلم المستخرج بالمقاييس المستنبطة من استقراء كلام العرب ، الموصلة الى معرفة أحكام أجزائه التي ائتلف منها ، كما أشار اليه ابن عصفور في المقرّب حين ذكر أن المراد هنا بالنحو قولنا علم العربية ، لا قسيم الصرف ٠ أهـ ٠ أما عند المتأخرين فقد غدا النحو غالباً : علم الاعراب والبناء ، كما نبه عليه الصبّان حين قال : واصطلاح المتأخرين تخصيصه بفن الاعراب والبناء وجعله قسيم الصرف ، وأردف : وعليه فيعرف بأنه علم يبحث فيه عن أحوال أواخر الكلم إعراباً وبناء ، وموضوعه الكلم العربية من حيث ما يعرض لها من الاعراب والبناء ٠ أهـ ٠ **وهكذا تحوّل النحو مما كان عليه من البحث في صحة تأليف الكلم للتعبير عما في النفس من أغراض ، الى البحث في ضبط الأواخر اعراباً وبناءً ، ضماناً لسلامة اللسان من اللحن ، وبسط الكلام في عوامل ذلك والاسهاب في تعليله بالجدل النظري ، فبدا النحو وقد غار ماؤه وشاه بهاؤه وساء مذاقه** ، والا فان توكيد العناية بالمعاني كان يوجب دراسة اللفظ في تركيب الجملة بدراسة موقعه من التركيب عامة من حيث اتصاله بالأجزاء الأخرى وتأثره بها وتأثيره فيها ، ثم دراسة الجملة مجتمعة الشمل من حيث صورة التعبير وأسلوبه ، وقد جرد النحو من هذا كله وخصصت به علوم البلاغة كالمعاني والبيان ٠٠٠ » ٠

وهذا سيبويه أبو بشر عمرو بن عثمان (ت ١٨٠ هـ) امام هذا العلم وعَلَم أعلامه ، قد ضمَّن كتابه أبواباً جعلت بعد مادة لعلم المعاني ، فأشار بذلك الى أن هذه الأبواب ملازمة للنحو لا تنفك عنه بحال من الأحوال ٠ قال سيبويه : « هذا باب تخبر فيه عن النكرة بالنكرة ، وذلك قولك : ما كان أحد مثلك ، وليس أحد خيراً منك ، وما كان أحد مجترئاً عليك ٠ وانما حسن الاخبار ها هنا عن النكرة حيث أردت أن تنفي أن يكون مثل حاله شيء، أو فوقه ، فان المخاطب قد يحتاج الى أن تعلمه مثل هذا ٠ واذا قلت : كان رجل ذاهباً ، فليس في هذا شيء تعلمه كان جهله ، ولو قلت : كان رجل من آل فلان فارساً ، حَسُنَ ، لأنه قد

يحتاج الى أن تُعلمه أن ذاك من آل فلان ،وقد يجهله • ولو قلت كان رجل في قوم فارساً، لم يحسُن ، لأنه لا يستنكر أن يكون في الدنيافارس ، وأن يكون من قوم ، فعلى هذا النحو يحسن ويقبح ... ٢٦/١ و ٢٧ » •

فقد تجاوز سيبويه في كتابه مادة النحو، في هذه المرحلة ، الى ما أسموه بعد بعلم الصرف وعلم المعاني وعلم البيان وعلم العروض وعلم الأصوات وعلم القراءات ، من علوم العربية ، بل علم النقد الأدبي ، ذلك لتلازم هذه العلوم واستحالة انفكاك بعضها من بعض ، فجاء كتابه متضمناً كل ما يُستعان به على فهم كلام العرب والكشف عن سر تأليفه • واذا عمد علماء العربية في دراساتهم بعد الى تخصيص كل علم منها بمادة وموضوع للغوص على جزئيات كل من هذه العلوم ، فلا يعني ذلك امكان الفصل بينها في التماس فهم كلام العرب ، ففي كل علم منها تمام للعلم الآخر ، بل جلاء لأسراره ودقائقه •

ولا شك أن ما جاء به سيبويه ، ها هنا ، ونحوه مما ذكره في مواضع أخرى من كتابه ، قد أوحى الى الجرجاني ما أوحى ، في كتابه (دلائل الاعجاز) مما يتصل بعلم المعاني • وقد تحدث الجرجاني عن معاني النحو ، ونبّه على أن النظم ، وهو موضوع الكلام بشكل من الأشكال ، انما يتوخى هذه المعاني • واذا كان العلماء قد قصروا الحديث عن المعاني المذكورة، على ما أسموه بعلم المعاني ، فانهم لم يوفقوا في فصله عن النحو ، جملة وتفصيلاً ، لأنه نوره الذي به يُهتدى الى صوغ الكلام واحكام البيان •

وقد وفق الجرجاني حقاً في الكشف عن اتصال النحو بالبلاغة خاصة وتلازمهما • وقد حذا هذا الحذو ويمم هذا السمت الامام أبو يعقوب السكاكي (ت ٦٢٦ هـ) في كتابه (مفتاح العلوم) فقد تحدث فيه عن علوم البلاغة فجعل ما تعلق منها بمطابقة الكلام لمقتضى الحال والتتبع لخواص تراكيب الكلام مادة علم المعاني ، وما اتصل بايراد المعنى الواحد بطرق مختلفة في وضوح الدلالة عليه مادة علم البيان ، وما اختص بوجوه تحسين الكلام، بعد رعاية المطابقة لمقتضى الحال ووضوح الدلالة مادة علم البديع ، فهو أخص من علمي المعاني والبيان ، لكنه قال في مقدمة كتابه :قد ضمنت كتابي هذا من أنواع الأدب ، دون نوع اللغة ، ما رأيت أن لا بد منه ، وهذه عدة أنواع متآخذة ، فأودعته علم الصرف بتمامه وأنه لا يتم الا بعلم الاشتقاق •• » ، وأردف:« وأوردت علم النحو بتمامه ، وتمامه بعلمي المعاني والبيان ••• » ، فدلَّ بذلك على تعلق النحو بعلم البلاغة وتأكيد مهمة اللغة في الأداء والابلاغ •

وقال في موضع آخر من كتابه : « ان علم النحو هو أن تنحو معرفة كيفية التركيب في ما بين الكلم لتأدية أصل المعنى مطلقاً بمقاييس مستنبطة من استقراء كلام العرب وقوانين مبنية عليها ، ليحترز بها عن الخطأ في التركيب من حيث تلك الكيفية • وأعني بكيفية التركيب تقديم بعض الكلم على بعض ورعاية ما يكون من الهيئات ازاء ذلك، وبالكلم نوعيها المفردة وما هي في حكمها ــ المفتاح/٣٧ » • وجاء في شرح السيد للمفتاح : « وأما عن المركبات فباعتبار هيئاتها التركيبية وتاديتها لمعانيها الأصلية فعلم النحو » •

وهـذا هو أبو اسحاق الشاطبي ابراهيم بن موسى (٧٩٠ هـ) يعرّف علم النحو في شرح (الخلاصة) فيقول : « وهو في الاصطلاح ، علم بالاحوال والاشكال التي بها تدل الفاظ العرب على المعاني ، ويعني بالأحوال وضع الالفاظ من حيث دلالتها على المعاني التركيبية ، اي المعـاني التي تستفاد بالأشكال ٠٠ » ٠

بل هذا ابن كمال باشا (٩٤٠ هـ) يقول في رسائله ، وقـد عرض فيهـا العلم النحـو : « ويشـارك النحوي صاحب علم المعـاني في البحث عن المركبات ، الا أن النحوي يبحث عنها من جهة هيأتها التركيبية صحة وفساداً ، ودلالة تلك الهيئات على معانيها الوضعية على وجه السداد ، وصاحب المعاني يبحث عنها من حيث حسن النظم المعبر عنه بالفصاحة في التركيب، وقبحه ٠٠٠ » ثم خلص الى القول : « وهـذا كون علم المعاني تمام علم النحو » ٠

وقال الأستاذ ابراهيم مصطفى ، رحمه الله ، في كتابه (إحياء النحو) : « وجاء بعد ذلك بآماد الشيخ عبدالقاهر الجرجاني ، فرسم في كتابه ــ دلائل الاعجاز ــ طريقاً جديداً للبحث النحـوي ، وتجـاوز أواخر الكلم وعـلامات الاعراب ، وبيَّن أن للكلام نظماً وأن رعايـة هـذا النظم واتباع قوانينه هي السبيل الى الابانة والافهام وأنه اذا عدل الكلام عن سنن هـذا النظم ٠٠ لم يكن مفهماً معناه ولا دالاً على ما يُراد منه/١٦ » ٠

واذا كانت مادة النحو لا تتجـاوز الحكم على أواخر الكلم وعلامات الاعراب ، فلا شك أن عالم النحـو المحيط به خُبراً الواقف على جليـل أحكامه ودقيقها ، لا شك يستطيع أن يتحاشى الخطأ في بيانه وتعبيره ويتبين صحيح الكلام من فاسده ، لكنه قاصر أن يتعرّف كيف يكـون إحكام الأداء واحسان التعبير واجادة السبك ، وتمييز سديد الكلام مـن سفسافه ، بل قاصر أن يتعرّف كيف يكون انتهاج سبيل الفصحاء في تأليف الكلام نثراً ونظماً ، وهـو ما قـد أشرنا اليه في كتابنا (مسالك القول في النقد اللغوي ــ ص/٦٢) ٠٠ وأنَّى لدارس النحو هذا أن يعي نظام صياغة كلام العرب ومتصرف قولهم ويستشف طرق نسجهم وحبكهم اذا انحرف عـن غرض النحو في تعرّف روح العربية ونهجها في التأليف والتعبير وتصريف المعاني فقصر النحو على بحث أثر العوامل في أواخر الكلم ٠

ولا شك أن الجرجاني قد وفق في ما ذهب اليه مـن تجاوز ظواهر الاعراب الى تبيـن أسراره وأغراضه ودواعيه ٠ فاذا نحن أفردنا مذهب الجرجاني لنجعل منه مادة لعلم المعاني وحسب ، وحبسناه عن مادة النحو ، فقـد بخسنا النحو حقه بل أيبسنا نسغه وغضنا ماءه وأذهبنا ندوتـه ٠

وقد كشف الدكتور أحمد البدوي في كتابـه (عبدالقادر الجرجاني) عما انتهى اليـه الجرجاني في كتابيه (دلائل الاعجاز) و (أسرار البلاغة) من أن أصل المعنى يمكن أن يعبَّر عنه بطرق مختلفة ، وأن لكل عبارة من ذلك معناها الخاص الذي تفترق به عن العبارة الأخرى ، لأن العبارتين لا يمكن أن تؤديا معنىً واحداً ، الا اذا اتفقتا من جميع الجهـات ٠

أقول هـذا ما فات كثيراً من النحاة أن ينبهوا عليه ويفصحوا عنه، في كثير من الأحيان، فأغفلوه وتجاوزوه حـين أغرقوا في الصناعـة اللفظيـة ، وقصـروا الاهتمـام على ضبط أواخر الكلم ٠

□ مذهب العلامة الحصري في الجملة الفعلية والاسميـة :

وممن عمد الى هذا الموضع من البحث ، فسلك مسلك الجواري والمخزومي والسامرائي، في مخالفة الحد الذي اتخذه جمهور النحاة في تقسيم الجملة الى اسمية وفعلية ، وسوى بين تقديم الفعل وتأخيره في مثل قولك (جاء خالد) و (خالد جـاء) بل سبقهم الى ذلك العلامة الأستاذ ساطع الحصري في كتابه (آراء وأحاديث في اللغة والأدب) .

قال الحصري : « ومن المعلوم أن الجملة تنقسم الى قسمين فعليـة واسمية ، ولكننـا عندما ننظر الى الأمور نظرة منطقية ، يجب أن نفهم مـن تعبير جملة فعلية : الجملة التي تحتوي على فعـل ، وبتعبير آخر الجملة التي تعلمنا ما حدث وما يحدث . كما يجب أن نفهم مـن تعبير جملة اسمية الجملة التي لا تحتوي على فعل ؛ وبتعبير آخر : الجملة التي تخبرنا عـن أوصاف اسم مـن الاسماء وحالاتـه » ، وأردف : « غير أن قواعد اللغة العربية لا تلتزم هـذه التعريفات والمفهومات المنطقية ، بـل تخالفها كلية ، فانها تعتبر الجملة فعلية عندما تبتدىء بفعل ، واسمية عندما تبتدىء باسم . ومعنى ذلك أنها لا تصنف الجمل حسب أنواع الكلمات التي تتألف منها ، بل تصنفها حسب نوع الكلمة التي تبتدىء بها ، دون أن تلتفت الى بقية كلماتها/١٠٧ » .

ويمضي الحصري في شرح مذهبه ونقد مذهب النحاة ، فيقول : « ونظراً لهذه القواعد الرسمية فان عبـارة : نام الولـد ، يجب أن تعتبر جملة فعلية ، في حين أن عبارة الولد نام، يجب أن تعتبر جملة اسمية ، مع أن كلتيهما تتألفان مـن نفس الكلمتـين وتؤديان نفس المعنى/١٠٨ » .

□ الرأي في ما جاء به الحصري ومن نحـا نحوه ، في التسوية بين تقديم الفعل على فاعله وتأخيره عنـه :

نقـول في الجواب عما تقدم مـن كلام الحصـري ، ان الذي نراه هو أن قـولك (نام الولد) لا يؤدي مؤدى قولك (الولد نام) عند التحقيق ، ولو أوهم ظاهر الجملتين غير ذلك . فلكل مـن هاتين الجملتين شأن في التعبيـر ، وموضع من الأداء ، لا تسـد مسدّه الجملـة الأخرى . اذ ليس يكفي أن تتفق العناصر التي تتألف منهـا كل مـن الجملتين ، بل ينبغي أن يتفق فيهما موضع كـل عنصر من الآخر ، وليست هذه الحقيقة وقفاً على اللغة العربية . ذلك أن قولك (جـاء خالد) أو (نام الولد) في الجملة الفعلية ، قـد دلّ على مسند أو خبر لم يطرق أذن السامـع ، ولم يسبق ذكـره في سـياق الكلام . فاذا ذكـر الخبر أي المسند انتظر السامع ذكـر الذي أسند اليـه ، وهو الفاعل ، واذا ذكر هـذا اتصل بفعله فأصبح جزءاً منـه .

أما قولك (خالد جاء) أو (الولد نام) في الجملة الاسمية ، فقد دلّ على مسند اليه قد ذكر في السياق ، ومسند أو خبر معلوم يراد التوثق من اسناده اليه . قال الامام عبدالقاهر الجرجـاني (ت ٤٧١ هـ) في كتـابه (دلائـل الاعجاز): « لا يؤتى بالاسم مُعرّى من العوامل الا لحديث قد نُوي اسناده اليه/٧٧ » . وقد أسند الخبر الى ما هو موضوع الكلام ، وهو

(خالد أو الولد) وحُمل عليه دون أن يتصل اتصال الفاعل بفعله • وان ما قدمناه في الموازنة بين دلالتي الجملة الاسمية والفعلية طرف من مذهب لغوي متكامل للامام الجرجاني قد أتى به منذ القرن الحادي عشر من الميلاد ،وجاءت المذاهب الحديثة تعزز مذهبه هذا وتؤيده •

وإنا لنسأل كل من قال بالتسوية بين (خالد جاء) و (جاء خالد) ، ألست تقول (خالد جاء) فتحدث السامع عن (خالد) ، وقد جاء ذكره بينكما وبات السامع ينتظر منك أن تحدثه عنه ، فاذا أخبرته بمجيئه أزلت الشك لديه في حقيقة مجيئه ؟ كما تقول (جاء خالد) فتبادر السامع باخبارك اياه عن مجيئه دون أن يقتضي ذلك تقدم ذكره ، فكيف يستوي القولان في التعبير اذاً ؟ ولا تستوي العبارتان في أداء معنى ، ما لم تتفقا في البنية وتتطابقا في موضع كل جزء من أجزائها •

واذا كان النحاة قد ميزوا قولك (خالد جاء) من قولك (جاء خالد) فأسموا الأول جملة فعلية والثاني جملة اسمية ، ولم يتطرقوا صراحة الى الكشف عن الفرق بينهما في أداء المعنى ، وانصرفوا الى الاهتمام بالصناعة اللفظية، فقد جاء الجرجاني ليكشف عما قصّر النحاة غالباً في ايضاحه والافصاح عنه ، من حيث اختلاف الأداء في كل من الجملتين • ولا يخفى أن (خالد جاء) جملة اسمية مركبة ،تتألف من مبتدأ ومن خبر هو جملة فعلية ، فاذا أردت الجملة الاسمية البسيطة قلت (خالد آت) • أما (جاء خالد) فهو جملة فعلية وحسب•

وانظر الى ثقوب رأي الجرجاني وبعد غوره ، بل أصالة فكره ، في الاشارة الى المواضع التي يدعو فيها الأداء الى تقديم الفاعل ليكون مبتدأ • قال الجرجاني في دلائل الاعجاز (ص/٩٩) : « واعلم أن هذا الذي بان لك في الاستفهام والنفي من المعنى في التقديم ، قائم مثله في الخبر المثبت • فاذا عمدت الى الذي أردت أن تحدث عنه بفعل فقدمت ذكره ثم بنيت الفعل عليه فقلت : زيد قد فعل وأنا فعلت وأنت فعلت ، اقتضى ذلك أن يكون القصد الى الفاعل ، الا أن المعنى في هذا القصد ينقسم الى قسمين :

أحدهما : جليٌّ لا يشكل ، وهو أن يكون الفعل فعلاً قد أردت أن تنص فيه على واحد فتجعله له، وتزعم أن فاعله دون واحد آخر ،أو دون كل أحد • ومثال ذلك أن تقول : أنا كتبت في معنى فلان ، وأنا شفعت في بابه ، تريد أن تدعي الانفراد بذلك •• وتزيل الاشتباه فيه ، وترد على من زعم أن ذلك كان من غيرك ، أو أن غيرك قد كتب فيه ما كتبت• ومن البيِّن في ذلك قولهم في المثل : أتعلمني بضبٍّ أنا فرشته ؟

والقسم الثاني : ألاّ يكون القصد الى الفاعل ، على هذا المعنى ، ولكن على أنك أردت أن تحقق على السامع أنه قد فعل وتمنعه من الشك ، فأنت لذلك تبدأ بذكره وتوقعه أولاً ، ومن قبل أن تذكر الفعل في نفسه ، لكي تباعده بذلك من الشبهة وتمنعه من الانكار ، أو من أن يظن بك الغلط أو التزيّد • ومثاله قولك : هو يعطي الجزيل وهو يحب الثناء ، لا تريد أن تزعم أنه ليس ها هنا من يُعطي الجزيل ويحب الثناء غيره ••

ولكنك تريد أن تحقق على السامع أن اعطاء الجزيل وحب الثناء دأبه ، وأن تمكّن ذلك في نفسه ٠٠ » ، ومن شواهد الجرجاني على هذا القسم قول الشاعر :

هما يلبسان المجد أحسن لبسة شحيحان ما اسطاعا عليه كلاهما

قال الجرجاني : « لا شبهة في أنه لم يرد أن يقصر هذه الصفة عليهما ، ولكن نبه لهما قبل الحديث عنهما » ، وأردف : « وأبين من الجميع قوله تعالى : واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئاً وهم يُخلقون ــ النحل/ ٢٠ ،فليس المراد أنهم وحدهم هم الذين يُخلقون ، كما في المعنى الأول ، ولكن تأكيد أن الفعل ثابت لهم » ٠

ويشير الجرجاني الى ما يراد بتقديم المحدَّث عنه فيقول : « فانت قلت فمن أين وجب أن يكون تقديم ذكر المحدَّث عنه بالفعل آكد لاثبات ذلك الفعل له ، وأن يكون قوله : هما يلبسان المجد ، أبلغ في جعلهما يلبسان ،من أن يقال : يلبسان المجد/ ١٠١ » ٠ وهو يعلل ذلك فيقول : « قلت ذاك من أجل أنه لا يوتى بالاسم معرًى من العوامل الا لحديث قد نوي اسناده اليه ، واذا كان كذلك فاذاقلت : عبدالله فقد أشعرت قلبه بذلك أنك قد أردت الحديث عنه ، فاذا جئت بالحديث فقلت مثلاً : قام ، أو قلت : خرج ، أو قلت : قدم ، فقد علم ما جئت به ، وقد وطّأت له وقدَّمت الاعلام فيه ، فدخل على القلب دخول المأنوس به ، وقبله قبول المتهيىء له المطمئن اليه ،وذلك لا محالة أشد لثبوته وأنفى للشبهة وأمنع للشك وأدخل في التحقيق ــ ١٠١/ ١٠٢ » ،وأردف : « وجملة الأمر أنه ليس اعلامك الشيء بغتة مثل اعلامك له بعد التنبيه عليه والتقدمة له ، لأن ذلك يجري مجرى تكرير الاعلام في التأكيد والأحكام » ٠

وذكر الجرجاني بعض المواضع التي لا بد فيها من الاخبار عن الاسم بالفعل ، فقال: « ومما هو بهذه المنزلة في أنك تجد المعنى لا يستقيم الا على ما جاء عليه من بناء الفعل على الاسم ، قوله تعالى : إنَّ وليي الله الذي نزَّل الكتاب وهو يتولّى الصالحين ــ الأعراف/ ١٩٥ ، وقوله تعالى : وقالوا أساطير الأوَّلين اكتتبها فهي تُملَى عليه بُكرة وأصيلاً ــ الفرقان/ ٥ ، فانه لا يخفى على من له ذوق أنه لو جيء في ذلك بالفعل غير مبنيّ على الاسم ، فقيل : إن وليي الله الذي نزَّل الكتاب ويتولّى الصالحين ، بحذف هو ، واكتتبها تُملى عليه ، بحذف هي ، لوجد اللفظ قد نبا عن المعنى ، والمعنى قد زال عن صورته والحال التي ينبغي أن يكون عليها ــ ١٠٥/ ١٠٦ » ٠

☐ مذهب الجرجاني في ضوء علم اللغة الحديث :

وقد عقد الدكتور جعفر دك الباب في كتابه (الموجز في شرح دلائل الاعجاز ، في علم المعاني) فصولاً فريدة في مذهب الامام الجرجاني اللغوي ، في ضوء علم اللغة الحديث ، وأقام الموازنة بين مذهبه ومذاهب هذا العلم ،فخلص من بحثه الى أن من حق مذهب الجرجاني أن يظفر بالمكان اللائق به ، في علم اللغة الحديث ، لا لأن مذهبه هذا يكمل النظرية

البنوية الوظيفية الحديثة ، بل لأنه يعتمد الى ذلك على مفهوم البنية العميقة والبنية الظاهرية للجملة ، فهو يمثل بذلك اتجاهامتطورا في علم اللغة الحديث ، واذا ان مذهب الجرجاني يثبت صحة تمييز علماء النحو العربي نوعين للجملة العربية ٠

ولا يخفى أن البنوية في الاصل مذهب فكري يتحرى رؤية المجتمعات ، والأعمال الفنية واللغة ، والأدب ، من خلال البنى التي تتالف منها هذه المركبات ، والبنية وحدة مستقلة قائمة على عناصر داخلية متساندة ٠

فالبنوية تتطلب في الأدب ، مثلاً ، تحليل النص الى بناه ، وتفكيك البنية الى أجزائها المتنقلة واعادة تركيب هذه الاجزاء ، بحيث تعود منتظمة مترابطة ، تختلف فيها الصورة باختلاف مواقع هذه الأجزاء بعضها من بعض٠

وقد كان رائد هذا المذهب في القرن العشرين الفيلسوف الفرنسي رولان بارت ، ومضى في تكوينه علماء كتشوفسكي ومينيه وسوسير وماير ، وبدا بعد متكاملاً بفضل العالم الفيلسوف الفرنسي كلود ليفي اشتراوس ٠

أما علم اللغة الحديث ، أو علم اللسان الحديث ، فهو العلم الذي ينظر الى اللسان أداة للابلاغ وظاهرة فيزيائية ونفسية واجتماعية عامة الوجود ٠

وقد نحا هذا النحو ، بل سبق الى مواضع منه الامام الجرجاني ، حين ذهب الى أن اللغة انما هي أداة ابلاغ السامع ما يجهله ، وعمد الى تحليل النص الأدبي والانتهاء به الى وحدته ، وهي الجملة ، والكشف عن بنية الجملة الظاهرية الأصلية ، والافصاح عن اختلاف الصور في الجملة باختلاف مواقع أجزائها بالتقديم والتأخير ، وميَّز ما قُدِّم من هذه الأجزاء لغرض تحويل الصورة عما هي عليه ، وما قدم وهو على نية التاخير فلم يمل بالصورة عن اطارها ٠ بل كشف عن موقع كل جملة من الأداء بتنقل أجزائها أو تغيرها ، فنفى أن تتفق جملتان فيما تعنيان ما لم تتماثلا من كل وجه ٠

ولا بأس أن نلمَّ بطرف من حديث الجرجاني عن (التقديم والتأخير) ، وهو يتصل بما نحن بسبيله من الكلام على الفعل ٠

قال الجرجاني : « واعلم أنا لم نجدهم اعتمدوا في ــ تقديم الشيء ــ شيئاً يجري مجرى الأصل ، غير العناية والاهتمام ٠ قال صاحب الكتاب ، سيبويه ، وهو يذكر الفاعل والمفعول : كأنهم يقدمون الذي بيانه أهمُّ لهم، وهم بشأنه أعنى ، وان كانا جميعاً يُهمانهم ويعنيانهم ٠ ولم يذكر في ذلك مثالاً ٠ وقال النحويون : ان معنى ذلك أنه قد يكون من أغراض الناس في فعل ما أن يقع بانسان بعينه ، ولا يبالون من أوقعه ، كمثل ما يعلم من حال الخارجي يخرج فيعيث ويفسد ويكثر من الأذى ، أنهم يريدون قتله ، ولا يبالون من كان القتل منه ، ولا يعنيهم منه شيء ، فاذا قُتل وأراد مريد الاخبار بذلك ، فانه يقدم ذكر الخارجي ، فيقول : قتل الخارجيَّ زيد ، ولا يقول : قتل زيد" الخارجيَّ ، لأنه يعلم أن ليس للناس في أن يعلموا أن القاتل له ، زيد"، جدوى وفائدة فيعنيهم ذكره ويهمهم ويتصل

بمسرتهم ، ويعلم من حالهم أن الذي هم متوقعون له ومتطلعون اليه : متى يكون وقوع القتل بالخارجي المفسد ، وأنهم قد كفوا شره وتخلصوا منه » .

ثم قال : «فان كان رجل ليس له بأس ولا يقدر فيه أن يقتل رجلاً ، وأراد المخبر أن يخبر بذلك ، فانه يقدم ذكر القاتل فيقول :قتل زيد رجلاً ، ذلك لأن الذي يعنيه ويعني الناس من شأن هذا القتل طرافته وموضع الندرة فيه، وبعده كان من الظن ، ومعلوم أنه لم يكن نادراً وبعيداً من حيث كان واقعاً بالذي وقع به ، ولكن من حيث كان واقعاً من الذي وقع منه ، فهذا جيد بالغ » .

وقد خلص الجرجاني من حديثه الى القول : « الا أن الشأن في أنه ينبغي أن يعرف في كل شيء قدم في موضع من الكلام مثل هذا المعنى ، ويفسر وجه العناية فيه هذا التفسير. وقد وضع في ظنون الناس أنه يكفي أن يقال:انه قدم للعناية ولأن ذكره أهم ، من غير أن يذكر من أين كانت تلك العناية ، ولم كان أهم ، ولتخيلهم ذلك قد صغر أمر التقديم والتاخير في نفوسهم ، وهونوا الخطب فيه ،حتى انك لترى أكثرهم يرى تتبعه والنظر فيه ضرباً من التكلف ، ولم تر ظنا أزرى على صاحبه من هذا وشبهه/٨٤ و ٨٥ » .

وتدبر نضج الجرجاني في تقديم المفعول من قوله تعالى : « وجعلوا لله شركاء الجن ـ الأنعام/١٠٠ » ، اذ قال : « ليس يخاف أن لتقديم الشركاء حسناً وروعة ومأخذاً من القلوب ، أنت لا تجد شيئاً منه ان أنت أخرت فقلت : وجعلوا الجن شركاء لله ، وأنك ترى حالك حال من نقل الصورة المبهجة والمنظر الرائق والحسن الباهر ، الى الشيء الغفل الذي لا تحلى منه بكثير طائل، ولا تصير النفس به الى حاصل » ، وأردف : « والسبب في أن كان ذلك كذلك هو أن للتقديم فائدة شريفة ومعنى جليلاً ، لا سبيل اليه مع التأخير » .

وقد أوضح ذلك فقال : « وبيانه أنا وان كنا نرى جملة المعنى ومحصوله أنهم جعلوا الجن شركاء ، وعبدوهم مع الله تعالى ، وكان هذا المعنى يحصل مع التأخير حصوله مع التقديم، فان تقديم الشركاء يفيد هذا المعنى ، ويفيد معه معنى آخر ، وهو أنه ما كان ينبغي أن يكون لله شريك لا من الجن ولا غير الجن . واذا أخر فقيل : جعلوا الجن شركاء له ، لم يفد ذلك، ولم يكن فيه شيء أكثر من الاخبار عنهم بأنهم عبدوا الجن مع الله تعالى ، فأما أن يعبد مع الله غيره ، وأن يكون له شريك من الجن وغير الجن فلا يكون في اللفظ مع تأخير الشركاء دليل عليه ـ ٢٢١/٢٢٢ » .

* * *

أقول هذا ما بدا لنا بسط الكلام فيه على (الجملة الفعلية والجملة الاسمية) ، وتأكيد صحة مذهب النحاة في هذه القسمة ،والرد على من أخذ عليهم ذلك من علماء العصر، وما جاء به الامام الجرجاني في الكشف عن دقائق النظم وأسراره وتحليل بنائه وتأييد علم اللغة الحديث لصائب فكره وثاقب نظره في هذا الاتجاه ، وسنعقد مقالاً لما انتحاه هذا العلم في مناصرة مذهب الجرجاني ، ومن الله العون .

مسرد بمصادر البحث :

١ ـ مغني اللبيب عن كتب الأعاريب لابن هشام الانصاري .
٢ ـ دلائل الاعجاز لأبي بكر عبد القاهر الجرجاني .
٣ ـ مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة ـ الجملة الفعلية لعلي الجارم (ج ـ ٢٧ ، عام ١٩٥٣) .
٤ ـ نحو الفعل للدكتور احمد عبد الستار الجواري .
٥ ـ مجلة الفيصل ـ تكامل العناصر الأساسية في اللغة العربية للدكتور محمد خير الحلواني (العدد ـ ٣٧ ، عام ١٩٨٠).
٦ ـ الضرائر لأبي الحسن علي بن عصفور الأندلسي .
٧ ـ اصلاح الخلل الواقع في الجمل (للزجاجي) لأبي محمد عبد الله بن السيد البطليوسي .
٨ ـ الضرائر وما يسوغ للشاعر دون الناثر لمحمود شكري الآلوسي .
٩ ـ في النحو العربي للدكتور مهدي المخزومي .
١٠ـ الألفية لأبي عبد الله محمد جمال الدين بن مالك .
١١ـ شرح ألفية ابن مالك لأبي الحسن علي بن محمد الأشموني .
١٢ـ حاشية الصبان محمد بن علي المصري على شرح ألفية ابن مالك للأشموني .
١٣ـ الكليات لأبي البقاء الحسيني الكفوي .
١٤ـ التفسير في انوار التنزيل لعبد الله ابي الخير بن علي البيضاوي .
١٥ـ اعراب القرآن المسمى (املاء ما منّ به الرحمن من وجوه الاعراب) لأبي البقاء عبد الله العكبري .
١٦ـ اعراب الحديث النبوي لأبي البقاء عبد الله العكبري .
١٧ـ مفردات القرآن لأبي القاسم الراغب الأصفهاني .
١٨ـ الفعل زمانه وأبنيته للدكتور ابراهيم السامرائي .
١٩ـ الخصائص لأبي الفتح عثمان بن جني .
٢٠ـ المفصل لأبي القاسم محمد بن عمر الزمخشري .
٢١ـ المخصص لعلي بن سيده الأندلسي .
٢٢ـ مذاهب وآراء في نشوء اللغة وتدرج معانيها لصلاح الدين الزعبلاوي .
٢٣ـ المقرب في النحو لأبي الحسن علي بن عصفور الأندلسي .
٢٤ـ الكتاب لسيبويه أبي بشر عمرو بن عثمان .
٢٥ـ مفتاح العلوم لأبي يعقوب يوسف السكاكي .
٢٦ـ شرح السيد الشريف علي بن محمد الجرجاني على مفتاح العلوم للسكاكي .
٢٧ـ الخلاصة في النحو للشاطبي ابي اسحاق ابراهيم بن موسى .
٢٨ـ الرسائل لأحمد بن سليمان بن كمال باشا .
٢٩ـ احياء النحو لابراهيم مصطفى .
٣٠ـ مسالك القول في النقد اللغوي لصلاح الدين الزعبلاوي .
٣١ـ عبد القادر الجرجاني للدكتور أحمد بدوي (سلسلة اعلام العرب) .
٣٢ـ أسرار البلاغة لأبي بكر عبد القاهر الجرجاني .
٣٣ـ آراء وأحاديث في اللغة والأدب لساطع الحصري .
٣٤ـ الموجز في شرح دلائل الاعجاز في علم المعاني للدكتور جعفر دك الباب .

الشّاعِر القُطاميُّ

سكينة الشهابي

هل ترغب أخي القارىء في سماع درس في اللغة من أستاذ بليغ يعرف كيف يستدعي انتباهك، ويشد اهتمامك ؟ وهل تريد أيضاً أن تصغي الى محدث أديب يسمعك مختارات من أجمل الشعر العربي وأكثره فصاحة وسحراً ؟ وهل يهمك أن تنطق بالأسماء العربية سليمة - كما قيدتها كتب المتشابه وحفظتها بعيدة عن التصحيف والتحريف ؟

اذا كان ذلك كذلك فاقرأ معي ترجمة الشاعر القُطَامي بقلم الامام الحافظ ابن عساكر في سِفْر قيد التحقيق من أسفار كتابه الكبير «تاريخ مدينة دمشق» :

عمرو ـ ويقال : عُمير بن شِيَيْم ـ ويقال : شُتيم ـ بن عمرو بن عبّاد بن بكر بن عامر بن أسامة بن مالك بن جُشم بن بكر بن حُبيب بن عمرو بن غنم بن تغلب التغلبي ، المعروف بالقُطامي (*) شاعر من فحول الشعراء · وكان نصرانياً فأسلم ، وقدم دمشق مادحاً للوليد بن عبد الملك ـ ويقال : لعمر بن عبدالعزيز ·

أخبرنا أبو القاسم اسماعيل بن أحمد ، أنا عبد الوهاب بن علي بن عبد الوهاب ، أنا علي بن عبد العزيز قال : قرىء على أحمدبن جعفر بن محمد بن سَلْم ، أنا الفضل بن الحُباب بن محمد ، أنا محمد بن سلاّم الجُمحي قال(١) :

الطبقة الثانية من الشعراء الاسلاميين أربعة ـ فذكرهم وذكر فيهم القطامي ، واسمه عمرو بن شِيَيم بن عمرو بن عباد بن بكر بن عامر بن أسامة بن مالك بن بكر بن حُبيب بن عمرو بن غنم بن تَغلب ·

أخبرنا أبو القاسم الواسطي، أنا أبو بكر الخطيب قال : كتب الي محمد بن أحمد بن سهل ، وحدثني محمد بن فتوح عنه ·

وقرأت على أبي غالب بن البناء ، عن أبي غالب محمد بن أحمد بن سهل بن بشران الواسطي .

أنا أبو الحسن بن دينار ، أبنا أبو القاسم الآمدي قال :(٢)

القطامي التغلبي اسمه عمير بن شُيَيْم بن عمرو بن عباد بن بكر بن عامر بن أسامة ابن مالك بن بكر بن حبيب بن عمرو بن غنم بن تغلب الشاعر المشهور .

قرأت على أبي غالب أيضاً، عن أبي الفتح بن المحاملي ، عن أبي الحسن الدارقطني قال(٣) :

عمير بن شُيَيْم التغلبي سمي القطامي بقوله(٤) : [من الرجز]

يحُطُّهُنَّ جانبا فجانبا حطَّ القطامي قطا قواربا

والقطامي اسم من أسماء الصقر ، وهو مشتق من القَطَم .

قرأت على أبي محمد بن حمزة ، عن أبي نصر بن هبة الله قال(٥) :

أما شييم - بكسر الشين(٦) وفتح الياء التي تليها المعجمة باثنتين من تحتها وسكون الأخرى التي تليها - القطامي التغلبي الشاعر، اسمه عمير بن شييم بن عمرو بن عباد بن بكر بن عامر بن أسامة بن مالك بن بكر بن حُبيب بن عمرو بن غنم بن تغلب .

أنبأنا أبو الفرج غيث بن علي أنا أبو الحسن علي بن محمد بن عبيد الله الهاشمي ، وأبو العباس بن قبيس قالا : أنا أبو محمد بن أبي نصر، أنا عمّي أبو علي محمد بن القاسم، نا علي بن بكر ، عن أحمد بن الخليل ، أنا عمر بن عبيدة قال(٧) :

ويروى أن عبد الرحمن بن حسان هجا قريشاً فقال : [من الكامل]

أحياؤكم عار على موتاكم والميتون خزاية للغابر(٨)

فارسل يزيد الى كعب بن جُعَيل ، فقال : اهجُ الأنصار ، فقال ان لهم عندي يداً في الجاهلية فلا أجزيهم بهجائهم ، ولكني أدلك على المُغْدف(٩) القناع ، المنقوص السماع القطامي ، فأمر القطامي ، فقال : أنا أمرؤ مسلم أخاف الله ، وأستحي المسلمين ، ولكني أدلك على من لا يخاف الله ، ولا يستحيي من الناس ، قال : ومن هو ؟ قال : الغلام المالكي الأخطل ، فارسل اليه ، فامره بذلك .

قرأت في كتاب أبي الفرج علي بن الحسين بن محمد الأصبهاني (٩م) قال : قال المدائني : وقال أبو عمرو :

أول ما حرك من القطامي ، فرفع من ذكره أنه قدم في خلافة الوليد بن عبد الملك دمشق ليمدحه ، فقيل له : انه بخيل لا يعطي الشعراء ، وقيل : بل قدمها في خلافة عمر بن عبد العزيز ، فقيل له : ان الشعر لا يَنفُقُ عند هذا ، ولا يعطي عليه شيئاً ، وهذا عبد الواحد بن سليمان فامتدحه ، فمدحه بقصيدته(١٠) : [من البسيط] .

انا مُحيُّوك فاسلم أيها الطَّلَل وان بَليت وان طالت بك الطِّيَل(١١)

فقال له : كم أملت من أمير المؤمنين ؟ قال : أملت أن يعطيني ثلاثين ناقة ، فقال : قد أمرت لك بخمسين ناقة ، وأن تُوقر لك بُرّاً وتمراً وثياباً • ثم أمر بدفع ذلك اليه •

أخبرنا أبو العز بن كادش ، أنا أبو يعلى بن الفرّاء ، أنا أبو القاسم اسماعيل بن سعيد بن اسماعيل المعدّل ، نا أبو علي الحسين بن القاسم بن جعفر ، نا محمد بن عجلان قال : قال ابن الأعرابي ، قال الكلابي ، قال عبد الملك بن مروان للأخطل :

من أشعر الناس ؟ قال : أنا ، ثم المغدف القناع ، القبيح السماع ، الضيق الذراع ـ يعني القطامي •

أخبرنا أبو القاسم علي بن ابراهيم ، أبنا أبو الحسن رشأ بن نظيف ، أنا الحسن بن اسماعيل ، أبنا أحمد بن مروان ، نا ابراهيم بن عبد الله الجزري ، نا عيسى بن سليمان ، عن ضمرة ، عن ابن شوذب قال :

أوصى مالك بن المنذر بن مالك بنيه ، فقال : يا بني ، الزموا الأناة ، واغتنموا الفرصة تظفروا • ثم أنشد عيسى بن سليمان قول القطامي(١٢) : [من البسيط]

قد يدرك المتاني بعض حاجته وقد يكون مع المستعجل الزلل

أخبرنا أبو العز السُلَمي مناولة واذناً وقرأ علي اسناده ، أنا محمد بن الحسين ، أنا المعافى بن زكريا القاضي ، نا محمد بن الحسن بن دريد ، نا أبو حاتم ، عن الأصمعي قال :

سأل عمرو بن سعيد القرشي الأخطل : أيسرك أن لك شعراً بشعرك ؟ قال : لا والله ، ما يسرني أن لي بمقولي مقولا من مقاول العرب ، غير أن رجلا من قومي قد قال أبياتاً حسدته عليها ، وايم الله ، انه لمغدف القناع ، ضيق الذراع ، قليل السماع(١٣) • قال : ومن هو ؟ قال : القطامي ، قال : وما الأبيات ؟ قال: قوله(١٤) [من البسيط] •

يمشين رهواً ، فلا الأعجاز خاذلة ولا الصدور على الأعجاز تتكل
من كل سامية(١٥) العينين تحسبها مجنونة ، أو ترى ما لا ترى الابل
حتى وردن ركيّات العوير(١٦) وقد كاد المُلاء من الكتان يشتعل
يمشين معترضات والحصا رمض(١٧) والريح ساكرة(١٨) والظل معتدل
والعيش ، لا عيش الا ما تقر به عين ، ولا حال الا سوف ينتقل
ان تصبحي من أبي عثمان مُنْجِحة فقد يهون على المستنجح العمل(١٩)
والناس من يلق خيراً قائلون له ما يشتهي ، ولأم المخطىء الهبل(٢٠)
قد يدرك المتاني بعض حاجته وقد يكون مع المستعجل الزلل

قال القاضي : لعمري ان هذه الأبيات لمن رصين الشعر وبليغه ، وكلمة القطامي التي هذه الأبيات منها من أجود شعره ، وأولها :

انا مُحيّـوك فاسلـم أيهـا الطّلَـل وان بليت وان طالت بك الطّوَل(٢١)

ويروى الطِّيَل • وقد ذكر بعضهم أن أجود ما أتى من أشعار العرب على هذه العروض وهذا الروي هذه الكلمة وكلمة الأعشى التي أولها(٢٢) : [من البسيط] •

ودع هـريـرة ان الركـب مُرتحـل وهـل تُطيـق وداعـا أيهـا الرجـل

وقول الأخطل : انه لمغدف القناع ، المغدف : المغطى ، فكأنه نسبـه ، الى الخمـول ، وقصوره عن الشرف وأن يكـون بارزاً مبدياً صفحته مجداً وافتخاراً • قال سُحَيم بن وثيل الرياحي(٢٣) : [من الوافر] •

أنـا ابـن جـلا وطـلاّع الثنـايـا متـى أضـع العِمامـة تعرفوني

ويقال : أغدفت المرأة قناعها ، كما قال عنترة(٢٤) : [من الكامل] •

أن تُغْدِ في دونـي القنـاع فانني طـب بـأخذ الفـارس المستلئم(٢٥)

وأما قول القطامي : « يمشين رهواً » ، فانه أراد أنهن يمشين في سكون وتؤدة • وقد قيل في قول الله تعالى : [واترك البحر رهواً] (٢٦) أي ساكناً • وقيل : طريقاً يَبَساً • وحكي أن بعض العرب قال في فالج(٢٧) من الابل : رَهْوٌ بين سنامين ، فقال بعض أهل المعرفة : لو كان القطامي قال هذا البيت في صفة النساء لكان قد أحسن • ومن الرهو قول الشاعر : [من البسيط] •

كأنمـا أهـل حجـر ينظـرون متى يرونني خارجـاً ، طير يناديـد(٢٨)
طـير رأت بازيـاً نضـح الدمـاء به أو أمّـةٌ خرجت رهـواً الى عيد(٢٩)

وقول عمرو بن كلثوم(٣٠) : [من الوافر] •

نصبنـا مثـل رهـوة ذات حد محافظـة فكنـا السـابقينـا

قيل : هي الجبل(٣١) • وقوله : والريح ساكرة ؛ يعني ساكنة ، واذا كانت ساكنة فهي فعل الأشياء المفقودة المعدومة • يقال : سكر الشيء اذا سكن • وقيل للسكر الذي هو من سكر الأودية والأنهار سكر لأنه سكر اذا سـدوعدمت سورته • ومنه السكر من الشـراب وغيره ، قيل فيه ذلك لاحتباس ما كان منطلقاً من السكران وصحة رأيه وصواب منطقه • وقيل : سكر الحر اذا سكنت فورته ، وهـدأاحتدامه وشدته كما قال الراجز(٣٢) :

جـاء الشتاء واجثـالّ القنبـر واستخفت الأفعـى وكـانت تظهـر
وجعلـت عـينُ الحـرور تسـكر

وقد قال الله تعالى ، وهو أصدق القائلين[لقالوا انما سكرت أبصارنا](٣٤) ، بمعنى سدت ، وصعب النظر باسكانها عن الحركة التي تدرك المبصرات بها • وقرأ جمهور القراء : « سكرت » بالتشديد للتكرار اذ كانت الأبصار جماعة ، وقرأ بعضهم « سكرت » بالتخفيف ، لدلالة هذه القراءة على المعنى •ومثله : [وفتحت أبوابها] و « فتّحت »(٣٥) في نظائر لهذا كثيرة ، وهي مشروحة فيما تضمنته الكتب في علوم القرآن من كلامنا وكلام من تقدمنا • وبالتخفيف قرأ ابن كثير فيمن وافقه من المكيين • وقوله :

ان تصبحي من أبي عثمان منجحة	فقد يهون على المستنجح العمل

من الكلام الحسن في الانباء عن أن من أنجح سعيه ، وأدرك ما أمّه هان عليه ما كان أنصبه وعنّاه وأتعبه في قصد مطلوبه • ومثله قول سابق البربري : [من الوافر] •

اذا ما نال ذو طلب نجاحاً	بأمر لم يجد ألم الطلاب

ونظائر هذا المعنى كثيرة يصعب احصاؤها ، ويمل استقصاؤها •

أخبرنا أبو القاسم بن السمرقندي ، أنا أبو محمد عبدالوهاب بن علي ، أنا أبو الحسن الطاهري قال : قرىء على أبي بكر الختلي ، ثنا الفضل بن الحباب ، نا محمد بن سلّام قال(٣٦) :

وكان القطامي شاعراً فحلا ، رقيق الحواشي ، حلو الشعر • والأخطل أبعد منه ذكراً ، وأمتن شعراً • وكان زفر بن الحارث أسره في حرب بينهم وبين تغلب ، فمنّ عليه ، وأعطاه مائة من الابل ، ورد عليه ماله(٣٧) ، فقال القطامي في كلمة(٣٨) : [من البسيط] :

من مبلغ زفر القيسي مدحته	عن القطامي قولا غير افناد(٣٩)
فلن أثيبك بالنعماء مشتمة	ولن أبدل احساناً بافساد(٤٠)
اني وان كان قومي ليس بينهم	وبين قومك الا ضربة الهادي(٤١)
مثن عليك بما أسلفت من حسن	وقد تعرض مني مقتل بادي
فان هجوتك ما تمت محافظتي	وان مدحت لقد أحسنت اصفادي(٤٢)
اذ يعتريك رجال يسألون دمي	ولو تطيعهم أبكيت عوادي(٤٣)
واذ يقولون : أرضيت العداة بنا	لا بل قدحت بزند غير صلاد(٤٤)
ولا كردك مالي بعد ما كربت(٤٥)	تبدي الشماتة أعدائي وحسادي
فان قدرتُ على يوم جزيت به	والله يجعل أقواماً بمرصاد

فلما بلغ زفر قوله قال : لا قدرت على ذلك اليوم •

وقال يمدحه في أخرى(٤٦) : [من الوافر] .

ومن يكن استلامَ الى ثَوِيٍّ فقد أحسنتَ يا زفر المتاعا(٤٧)
أكفر بعد دفع الموت عني وبعد عطائك المائة الرتاعا(٤٨)
فلم أر منعمين أقل منّاً وأكرم عندما اصطنعوا اصطناعا
من البيض الوجوه بني نفيل(٤٩) أبت أخلاقهم الا اتساعا
بني القرم الذي علمت معد تفضل فوقهم حسباً وباعا(٥٠)

وهو يقول في كلمة أخرى(٥١) :

انا محيوك فاسلم أيها الطلل وان بليت وان طالت بك الطيل
والناس : من يلق خيراً قائلون له : ما يشتهي ، ولأم المخطىء الهبل
قد يدرك المتأني بعض حاجته وقد يكون مع المستعجل الزلل
أما قريش(٥٢) فلن تلقاهم أبداً الا وهم خير من يحفى وينتعل
قوم هم أمراء المؤمنين وهم رهط النبي ، فما من بعده رسل(٥٣)

وفيها يقول :

وما هداي لتسليم على دِمَنٍ بالغمر غيرهن الأعصر الأول(٥٤)
فهن كالخلل الموشي ظاهرها أو كالكتاب الذي قد مسه بلل(٥٥)
كانت منازل منا ما تجهمنا حتى تحل دهر مخبل خبل(٥٦)
والعيش لا عيش الا ما تَقَرُّ به عين ولا حال الا سوف تنتقل(٥٧)

أنبانا أبو الحسن علي بن محمد العلاف وأخبرني أبو المعمر الأنصاري عنه ح وأخبرنا أبو القاسم بن السمرقندي، أنا أبو علي بن أبي جعفر، وأبو الحسن بن العلاف قالا: أنا أبو القاسم عبد الملك بن محمد بن بشران ، أنا أحمد بن ابراهيم الكندي ، أنا محمد ابن جعفر الخرائطي ، نا أبو الفضل العباس بن الفضل الربعي ، نا محمد بن عبيد الله العتبي قال(٥٨) :

خرجت الى المربد(٥٩) فاذا بأعرابي غزل، فملت اليه ، فذكرت عنده النساء ، فتنفس ثم قال : يابن أخي ، وان من كلامهن لما يقوم مقام الماء ، فيشفي من الظما ، فقلت : يا أعرابي ، صف لي نساءكم ، فقال : نساء الحي تريد ؟ قلت : نعم ، فأنشأ يقول : [من الكامل] :

رُجُح(٦٠) وليس من اللواتي بالضحى لذيولهن على الطريق غبار
واذا خرجن يردن أهل مصيبة كان الخطا لسراعها الأشبار
يأنسن عند بعولهن اذا خلوا واذا هم خرجوا فهن خفار

قال العتبي : فرجعت الى أبي ، فذكرت ذلك ، فقال : أتدري من أين أخذ الأعرابي قوله: وان من كلامهن لما يقوم مقام الماء فيشفي من الظمأ ؟ قال : من قول القطامي(٦١) :

يقتلننا بحديث ليس يعلمه ... من يتّقين ولا مكنونه بادِ
فهن ينبذن من قول يصبن به ... مواقع الماء من ذي الغلة الصاديَ

أخبرنا أبو الحسن بن قبيس ، أنا أبو الحسن بن أبي الحديد ، أنا جدي أبو بكر ، أنا أبو محمد بن زبر ، نا ابراهيم بن عبد الرحمن الأيلي ، نا أبو حاتم سهل بن محمد السجستاني نا عبد الملك بن قريب الأصمعي قال :

قال بلال بن أبي بردة لجلسائه ذات ليلة : خبروني بسابق الشعراء ، والمصلي ، والثالث ، والرابع ، فسكتوا ، ثم قالوا له : ان رأى الأمير ــ أصلحه الله ــ أن يخبرنا بذلك فعل . قال سابق الشعراء قول المرقش(٦٢) : [من الطويل] .

من يلقَ خيراً يحمد الناس أمره ... ومن يغوِ لا يعدم على الغي لائما

والمصلّي قول طرفة(٦٣) : [من الطويل]

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلا ... ويأتيك بالأخبار من لم تزوّد

والثالث قول النابغة(٦٤) : [من الطويل] .

ولست بمستبق أخاً لا تلمّه ... على شَعَث ، أي الرجال المهذب

والرابع قول القطامي : [من البسيط] .

قد يدرك المتأني بعض حاجته ... وقد يكون مع المستعجل الزلل

□ الحواشي :

★ طبقات ابن سلام ٥٣٤/٢ ، والمؤتلف والمختلف للدارقطني ١٤٣١/٣ ، والاشتقاق ١٩١ ، والمؤتلف والمختلف للآمدي ١٦٦ ، والشعر والشعراء ٧٢٣/٢ ، والاغاني ١٧٥/٢٣ (ط ، دار الثقافة) ، وجمهرة أنساب العرب ٣٠٥، والاكمال ٤٠/٥ ، ومعجم الشعراء ٢٤٤ ، والخزانة ٣٧٠/٢ ، والأنساب ١٨٣/١٠ ، واللباب ٤٤/٣ .

١ ــ طبقات فحول الشعراء ٥٣٤/١ باختصار في نسبه .

٢ ــ المؤتلف والمختلف للآمدي ١٦٦ .

٣ ــ المؤتلف والمختلف للدارقطني ١٤٣١/٣ .

٤ ــ ليس البيت في ديوانه . ورواه السمعاني في الانساب ١٨٣/١٠ ، وابن الأثير في اللباب ٤٤/٣ .

٥ ــ الاكمال ٤٠/٥ .

٦ ــ زاد محقق الاكمال في هذا الموضع : « ويقال : بضمها » .

٧ ــ رواه أتم من هذا ابن عساكر في ترجمة عبد الرحمن بن حسان « م ٢٥٢/٤٠ ــ ٢٥٤ » وقد ضبب اسم الراوي في الأصل، وفي ترجمة عبد الرحمن بن حسان : « قال أبو عبيدة » .

٨ ــ د : « للعاثر » ، وفي ترجمة عبد الرحمن : « للعار » . الغابر هنا : الباقي .

٩ ــ أغدق قناعه : أرسله على وجهه .

٩ م ــ الأغاني ١٧٨/٢٣ .

١٠ ــ ديوان القطامي ٢٣ • وهذا البيت من شواهد حسن الابتداء ، وقد ذكره القزويني في الايضاح ٣٠٥ •
١١ ــ الطيل جمع طيلة • أطال الله طيلته أي عمره ، والبيت من شواهد اللسان : « طول » وفيه : « الطول » •
١٢ ــ هذا البيت من القصيدة المتقدم مطلعها •
١٣ ــ أراد انه لم يكن معروفا ، ولا واسع الشهرة ، وكذلك ليس طويل الباع في نظم الشعر •
١٤ ــ ديوانه ٢٦ من القصيدة المتقدم مطلعها ، والبيت الأول من شواهد اللسان : « رها » •
١٥ ــ في الديوان : « يتبعن سامية » •
١٦ ــ في الأصل : « الغوير » ، والأشبه رواية الديوان : « العوير » ، وقد ضبطت العين فيه بالضم ، وصوابها الفتح • أورد البكري بيت القطامي هذا في مادة العوير ــ بفتح العين وكسر الواو وآخره راء ــ على وزن فعيل • موضع بالشام • معجم ما استعجم ١٩٨١ وقال ياقوت : عوير ــ بفتح أوله وكسر ثانيه ــ من قرى الشام ، أو ماء بين حلب وتدمر • معجم البلدان ١٨٠/٤ •
١٧ ــ رمض : حار ، ورواية الديوان : « فهن معترضات » •
١٨ ــ في الديوان : « ساكنة » ، وهما بمعنى ، الساكر : الساكن • وسكرت الريح : سنت بعد الهبوب ، وليلة ساكرة : ساكنة لا ريح فيها •
١٩ ــ في الديوان : « ان ترجعي » ، ومثله في الأساس (نجع) ، رجل منجع : ذو نجع ، وفي الأساس : « مع المستنجع » •
٢٠ ــ لأمه هبل : أي ثكل • هبلته أمه هبلا : ثكلته •
٢١ ــ تقدم : « الطيل » •
٢٢ ــ البيت مطلع معلقة الأعشى ، انظر ديوانه ٤١ (ط • أدلف هلز هوسن) •
٢٣ ــ البيت من الأصمعية الأولى ، وهو بيت سائر معروف، وسحيم شاعر مخضرم مشهور الذكر في الجاهلية والاسلام ، عده ابن سلام في الطبقة الثالثة من الاسلاميين ، يقال : عاش في الجاهلية أربعين سنة ، وفي الاسلام ستين سنة •
٢٤ ــ البيت من معلقته• انظر ديوانه ١٢٥ (ط • مصر بعناية أمين سعيد) •
٢٥ ــ البيت من شواهد اللسان : « لأم » ، وفيه : اللأمة : السلاح • وقد استلأم الرجل : اذا لبس ما عنده من عدة •
٢٦ ــ سورة الدخان ٤٤ آية ٢٤ •
٢٧ ــ الفالج : الجمل الضخم ذو السنامين •
٢٨ ــ البيت من شواهد اللسان « ندد » من غير عزو ، وقال : « طير يناديد وأناديد متفرقة » •
٢٩ ــ يلاحظ الاقواء في هذا البيت •
٣٠ ــ البيت من معلقته ، انظر شرح القصائد العشر للتبريزي ٢٦٩ •
٣١ ــ كذا في الأصل • وفي شرح المعلقات • « رهوة : جبل ،ويقال : رهوة أعلى الجبل • وقوله : ذات حد : أي كتيبة ذات شوكة كأنه قال : نصبنا كتيبة ذات حد ، وقيل المعنى : نصبنا حربا ذات حد مثل رهوة » ، وقد تمثل البكري بهذا البيت في معجم ما استعجم ٦٨٠/١ ، وقال : « رهوة ــ بفتح أوله واسكان ثانيه ــ جبل » • وقال : ياقوت : « رهوة ــ بفتح أوله وسكون ثانيه ــ قال أبو عبيد : الرهوة : الارتفاع والانحدار ، قال أبو العباس النميري : دليت رجلي في رهوة ، فهذا انحدار ــ وروى بيت عمرو بن كلثوم، وقال : ــ فهذا ارتفاع » • معجم البلدان ١٠٨/٣ •
٣٢ ــ البيتان الأول والثالث من شواهد اللسان « سكر »وهما بزيادة ثالث في اللسان « جثل » • وفيه : « اجثألّ » اجتمع وتقبض• والجثال : القبّر ، واجثألّ : انتفشت فنزعته ، وتسكر : أي يذهب حرها •
٣٣ ــ في اللسان : « القبّر » • « القبر والقبرة والقنبر والقنبرة : ضرب من الطير •
٣٤ ــ سورة الحجر ١٥ آية ١٥ ، وتمام الآية [قالوا : انما سكّرت ابصارنا بل نحن قوم مسحورون] •
٣٥ ــ سورة الزمر ٣٩ من الآية ٧٣ •
٣٦ ــ طبقات الشعراء ٥٣٥/٢ •
٣٧ ــ انظر خبر هذه الحرب وأسر القطامي في الأغاني ٢٠٣/٢٣ « دار الثقافة » •

٣٨ ـ انظر ديوانه ٨٤ ـ ٨٧ ٠
٣٩ ـ افند الرجل افنادا : كذب في قوله ٠ والفند : الكذب والخطا ٠
٤٠ ـ حق هذا البيت أن يكون ترتيبه الرابع ، فهو أكثر مناسبة للمعنى ٠
٤١ ـ الهادي : العنق ، والجمع هواد ، وذلك لتقدمه ٠
٤٢ ـ المحافظة : حفظ العهد ، ومكارم الأخلاق ٠ اصفـده اصفادا : أعطاه ووصله ٠ والصفد ـ بفتحتين ـ : العطية ٠
٤٣ ـ اعتراه : غشيه طالبا معروفا أو حاجة ٠ العواد : جمع عائد ، وهو الزائر عند المرض ٠ يريد أهل مودته الذين يالمون له ويزورونه ٠

٤٤ ـ قدح بالزند : ضرب به ليوري النار ٠ وزند صلـد وصالد وصلود وصلاد : هو الذي يصوت عند الضرب ولا تنقـدح منه النار ، وضرب ذلك مثلا ، يقول : كنت كريما نبيلا اذا امتحن كرمك أبديت عن عتق أصلك ، ونبل اخلاقك ٠
٤٥ ـ كربت : قربت ودنت ٠
٤٦ ـ طبقات فحول الشعراء ٥٣٧/٢ ، وتخريج الأبيات فيه ، وانظر ديوانه ٣٧ ٠
٤٧ ـ في الديوان : « أكرمت يا زفر » ، استلام الى فلان : أتى ما يلومه عليه ٠ والثوي : الضيف المقيم ٠ متعه بالشيء وامتعه به : أعطاه ما ينتفع به ، ويسر بمكانه ٠ والمتاع هنا مصدر كالتمتيع والامتاع ٠

٤٨ ـ الرتاع : الابل ترتع في المرعى الخصب تذهب وتجيء ، واحدها راتـع ٠
٤٩ ـ هو نفيل بن عمـرو بن كـلاب بن ربيعة بن عامـر بن صعصعة ، وهو جد زفر الأعلى ٠
٥٠ ـ القرم : السيد المعظم المقدم في المعرفة وتجارب الامور ٠ وفي أصل التاريخ واحد اصول الطبقات : « بفضل » ، ولا يصح ٠
٥١ ـ الأبيات من قصيدة في ديوانه ٢٣ ـ ٣٠ ، وقد تقـدم أبيات منها من طريق المعافى والقصيدة في جمهرة أشعـار العرب ٢٨٨ « ط ٠ دار صادر » ٠
٥٢ ـ في نسخ التاريخ : « قريشا » ٠
٥٣ ـ رواية الديوان والجمهرة : « قوم هم ثبتوا الاسلام وامتنعوا قوم الرسول الذي ما بعده رسل » ٠
٥٤ ـ في الجمهرة : « انّي اهتـديت لتسليم على دمن » وفي الديوان : « اني اهتديت » وتحت « بالغمر » في أصل التاريخ « بالغور » رواية ثانية ٠ الدِّمَن : مفردها دِمنة ، وهي آثار منازل القوم ٠ والغمر : موضع ٠
٥٥ ـ في الجمهرة : « كالحلل » ، والقافية في الديوان : « البلل » ٠ الخلة : بطانـة يغشى بها جفـن السيف ، تنقـش بالذهب وغيره ، والجمع خلل وخلال ٠ قال ذو الرمة : « لمية موحشا طلل يلوح كانه خلل » ٠

٥٦ ـ في الجمهرة والديوان : « كانت منازل منا قد نحل بها حتى تغير دهر خائن خبل » ، تجهمـه وتجهـم له كجهمه ، اذا استقبله بوجه كريه ، قال الراجز : « وبلدة تجهم الجهوما » اي تستقبله بما يكره ، الجهوم : العاجز الضعيف ، ودهر خبل : ملتو على اهله لا يرون فيه سرورا ، وقد خبله الدهر ٠ أما اللفظتان : الثانية من الشطر وقبـل الأخيرة فلـم تعجما في الأصل ، واضطرب اعجـام الشطر كله في النسخة الأخرى ٠
٥٧ ـ في الديوان والجمهرة « ولا حالة الا ستنتقل » ٠
٥٨ ـ الخبر في روضة المحبين ٣٤٢ ٠
٥٩ ـ المربد : موضع في البصرة به كانت مفاخرات الشعراء ، ومجالس الخطباء ٠ معجم البلدان ٩٨/٥ ٠
٦٠ ـ رجح : مفردها رجاح ، وهي المراة الثقيلة العجيزة ، وكانت تمدح المراة بذلك ٠
٦١ ـ البيتان من قصيدته في مدح زفر بن الحارث والتـي تقدم بعض أبياتها ، وانظر ديوانه ٨١ ، وفي الأغاني : « عـن الشعبي قال : قال عبـد الملك بن مروان وأنا حاضـر للأخطل : يا اخطل ، اتحب ان لك بشعرك شعر شاعر من العرب ؟ قال : اللهم لا ، الا شاعر منا مغدف القناع ، خامل الذكـر ، حديث السـن ٠٠ ولوددت اني سبقته الـى قوله » ، ثم ذكر البيتين ٠
٦٢ ـ هو البيت ٢٢ من المفضلية ٥٦ ، والقصيدة مع مناسبتها في الأغاني ١٣٩/٦ (ط ، دار الكتب) ٠ والبيت و ٧ أبيات من القصيدة في الشعر والشعراء ٢١٤ ـ ٢١٥ ، وهو من شواهد اللسان « ، غوى » ، وبالبيت مخروم بهذه الرواية ٠
٦٣ ـ ديوانـه ٤٨ ٠
٦٤ ـ ديوانـه ٧٨ ٠

ثابت بن قرة
أبو الحسن

٢١١ هـ = ٨٢٦ م ـ ٢٨٨ هـ = ٩٠٠ م

منجزاتــه ، آثـاره ، مصـادر ترجمتـه

زهير حميدان

ثابت بن قره بن مروان (في روايـة : ابن هارون ويقـال ابن زهرون) ابن ثابت بن كرايا بن ابراهيم بن كرايا بن مارينوس بن سالامويوس (في رواية: ابن سالامانس وفي أخرى ابن سالايونوس) الحراني الصابيء(١) رياضي طبيب حكيم فلكي منطقي فيلسوف .

ولد بحران(٢) عام ٢١١ هـ في رواية ابن أبي أصيبعة، وفي رواية طوقان سنة ٢٢١هـ = ٨٣٥ م ، وفي رواية فروخ ٢١٩ هـ = ٨٣٤م . اشتغل في الصيرفة في مستهل حيـاته ، ثم انتقل الى بغداد وانصرف الى العلم ، وقرأ على محمد بن موسى فوصلـه بالمعتضـد(٣) وأدخله في جملة المنجمين ، وحظي عنده وكنّاه تحبباً (بأبي الحسن) . يروى عن المعتضد قوله لثابت بينما كانا يتنزهان في بستان الخليفة الفردوس (وقد اتكأ على يد ثابت ، اذ نتر الخليفة يده من يـد ثابت بشدة ففزع ثابت فان الخليفة كان مهيباً جداً ، فلما نتر يده من يد ثابت قال له : يا أبا الحسن سهوت ووضعت يدي على يـدك واستندت عليها وليس هكذا يجب أن يكـون ، فان العلمـاء يَعْلُون ولا يُعْلَون) .

كان ثابت يجيـد السريانية واليونانية ناهيك عـن العربية التي كان يحسن النقـل والترجمة اليها . وقد عده سارتون من أجود المترجمين ، وكثيراً ما كان ينقل الى أبنـاء موسى بن شاكر كتب علماء اليونان وبخاصة الى محمد الذي قيل انه استصحب ثابتاً معـه الى بـلاد الروم سعيـاً وراء الكتب العلميـة لنقلها الى العربيـة .

توفي ثابت في بغـداد عام ٢٨٨ هـ (ولا خـلاف على سنة وفاته بـين المؤرخين كسنة ولادتـه) .

□ منجزاتـه وابـداعاتـه :

- من الأوائل العرب الذين مهدوا لابداع علم (التكامل والتفاضل) ٠
- أوجد حجم الجسم المتولد من دوران القطع المكافيء حول محوره ٠
- حـل بعض المعادلات التكعيبية بطرق هندسية استعان بها بعض علماء الغرب ٠
- استخرج حركـة الشمس وحسب طول السنة النجمية فكـان ٣٦٥ يوماً وست ساعات وتسع دقائق وعشر ثوان ٠ فكان ما وصل اليه يزيد على طول السنة الحقيقي بمقدار هو أقل من نصف ثانية ٠ (فروخ ص ٢٩٧) ٠
- له في الهندسة التحليلية ابتكارات لم يسبقه اليها أحد قبله (فقد وضع كتاباً في الجبر بيَّن فيه علاقة الجبر بالهندسة ، فكيفية الجمع بينهما) ٠
- وضع قاعدة عامة لايجاد الأعداد المتحابة ٠
- أول شرقي بعد الصينيين بحث في المربعات السحريـة ٠
- يقال انه قسم الزاوية الى ثلاثـة أقسام متساوية ، بطريقة تغـاير الطرق التي كانت معروفة عند اليونان ٠
- استعمل الجيب والخاصة الموجودة في المثلثات والمسماة (شكل المغنى) أو دعوى الجيب (أي نسب جيوب أضلاع المثلثات الحادثة من تقاطع القسيّ العظام في سطح الكرة كنسب جيوب الزوايا المتوترة بهـا) ٠

□ الكتب التي أصلحهـا ثابت ونقلهـا الى العربيـة في الفلك (والرياضيات) :

- كتـاب تحرير كتاب المفروضات : نسخـه الخطيـة : في ايران ـ جامعـة طهران برقـم (٢٤٣٤) مصورة بمعهد التراث بحلب برقم (٧٢٠/مجمـوع) وفي مكتبـة أياصـوفيـا (٢٧٦٠/ف/٧٦١) من عام ٨٤٥ هـ ٠ وهو ٣٦ شكلاً وفي بعض النسـخ ٣٤ شـكلاً ٠ وفي جامعـة كولومبيـة ـ نيويورك ضمن مجموعة برقـم (٣٠٦/شـرقي/ MS) وقـد نشرتـه دائرة المعارف بحيـدر آباد سنة ١٣٥٩هـ ـ ١٩٤٠م ضمن رسائل لبني موسى والطوسي ٠
- تحرير كتاب مأخوذات (المسلمات أو المصادرات) أرشميدس : ترجمـة ثابت بن قرة في جامعة طهران برقم (٢٤٣٢) مصورة بمعهد التراث بحلب بـرقـم (٧٢٠/مجموع) وفي أيا صوفيا برقم (٢٧٦٠/ف/٧٦١) مـن عام ٨٤٥ هـ ٠
- ترجمـة كتـاب المُدخِل الى علم العدد (لنيقوماض الجاراسيني أو الجرشي ت٠ نحـو عام ١٣٥ م) ٠ اعتنى بتصحيحه ونشره الأب (وليهـم كوتش اليسوعي) عـام ١٩٥٩ م وصدر عـن المطبعة الكاثوليكية في بـيروت تحت عنوان (بحوث ودراسات) بادارة معهـد الآداب الشرقية في بيروت ٠

- رسالتان لأرشميدس في الدوائر المتماسة : (يظن أن الناقل هو ثابت بن قرة) في خدابخش

- بتنه برقم (٢٥١٩/ف/٣١٢٦) من عام٦٣٢هـ · تحتويان على عشرين شكلاً هندسياً· نشرتهما في حيدر آباد ــ دائرة المعارف الاسلامية عام ١٣٦٦ هـ = ١٩٤٧ م ·

- تحرير كتاب المعطيات لاقليدس : ترجمة اسحاق بن حنين واصلاح ثابت بن قرة وهو ٩٥ شكلاً · نسخه الخطية : من أياصوفيا برقم (٢٧٥٨/ف/٧٥٧) من القرن ٦ هـ · وفي أحمد الثالث ــ استنبول برقم (٣٤٥٣/ف/١١٧٩) فيعام٦٧٢هـ · وفي سليم آغا ــ استنبول برقم (٧٤٣/ف/٨٨٦) من عام ٦٧٢ هـ ·

- تحرير كتاب المناظر لاقليدس : ترجمة اسحاق بن حنين واصلاح ثابت بن قره وهو ٦٤ شكلاً · نسخه الخطية : في سليم آغا برقم (٧٤٣/ف/٨٢٦) في عام ٦٧١ هـ · وفي أياصوفيا برقم (٧٦٠/ف/٧٦١) ·

- مقالة في برهان المصادرة المشهورة من اقليدس: يبحث فيالزوايا من قطع مستقيم لمستقيمين لا يقتربان ولا يبعدان (متوازيان)· في الظاهرية برقم (٥٦٤٨/عام) تم نسخها عام ١٣٠٥ هـ ·

- رسالة في تصحيح مسائل الجبر بالبراهين الهندسية : في أياصوفيا برقم (٢٤٥٧/ف/٧٥٨) تم نسخها عام ٨٦٠ هـ ·

- اصلاح كتاب أوطولوقس في الطلوع والغروب : في جامعة كولومبية ــ نيويورك ضمن مجموعة برقم (٣٠٦/شرقي) ·

- الكرة المتحركة (لأوطولوقس) : في أوقاف بغداد برقم (٥٤٨٨/١/ مجاميع) كتبها محمد باقر مرتضى عام١١٠٢هـ · وفي الظاهرية برقم (٥٦٤٨/عام) تم نسخها عام ١٣٠٥ هـ· ونسخة بعنوان (تحرير كتاب الكرة المتحركة لاوطولوقس) اصلاح ثابت بن قرة · في جامعة كولومبية برقم (٥٢/شرقي/ MS)

- رسالة في الحجة المنسوبة الى سقراط في المربع وقطره : في الظاهرية برقم (٥٦٤٨/عام/مجموع) تم نسخها عام ١٣٠٥ هـ · وفي أياصوفيا ضمن مجموعة برقم (٥/٤٨٣٢) من ص (٤٠ آ ــ ٤٢ آ) ·

- المقالة الخامسة من كتاب ابلونيوس في المخروطات : نقلها ثابت وأصلحها بنو موسى · طبعت مع مقدمة بالألمانية للمستشرق (تيكسن) في ليبسك عام ١٨٨٩ م ·

- رسالة في كيف ينبغي أن يُسلك الى نيل المطلوب من المعاني الهندسية : في الظاهرية برقم (٥٦٤٨/عام/مجموع) تم نسخها عام١٣٠٥ هـ · وفي أياصوفيا ضمن مجموعة برقم (٤٨٣٢) من ص (١ ب ــ ٤ آ) ·

- اصلاح المقالة الأولى من كتاب ابلونيوس فيقطع النسب المحدودة ، ولم يصلح المقالة الثانية لأنها غير مفهومة ·

□ آثاره في الرياضيات :

- مختصر في علم الهندسة .
- رسائل في الأصول الهندسية (المبادىء) . نشرتها دائرة المعارف العثمانية ــ حيدر آباد عام ١٣٦٦ هـ = ١٩٥٣ م .
- رسالة في الدوائر المماسة لأرشميدس: نشرتها وزارة المعارف ــ حيدر آباد ــ عام ١٣٦٦ هـ .
- كتاب في المثلث القائم الزاوية .
- كتاب في قطع الأسطوانة : في أياصوفيا ضمن مجموعة برقم (٤٨٣٢/٢) من ص (٤ آ ــ ٢٦ آ) .
- كتاب في أعمال ومسائل اذا وقع خط مستقيم على خطين .
- كتاب في أن الخطين المستقيمين اذا خرجا على أقل من زاويتين قائمتين التقيا في جهة خروجهما .
- في الشكل الملقب بالقطاع : في دار الكتب المصرية برقم (٤٠) وفي الجزائر برقم(١٤٤٦) وفي الظاهرية برقم (٥٦٤٨/عام) من عام١٣٠٥ هـ . وفي أياصوفيا برقم (٤٨٣٢/٧) وفي سراي أحمد الثالث برقم (٣٤٦٤/١٣) وفي باريس برقم (٢٤٥٧/٣٧) وفي برلين برقم (٥٩٤٠) وفي الأوسكوريال برقم (٩٢٧/٢) مصورة بمعهد التراث بحلب برقم (١٣٧٩/مجموع) . ترجم الكتاب الى اللاتينية (جيرارد الكريموني) .
- كتاب في قسمة الأرض .
- كتاب في مقدمات اقليدس .
- كتاب في أشكال اقليدس .
- كتاب في استخراج المسائل الهندسية .
- المدخل الى كتاب اقليدس : ويعد من أهم كتبه وأجودها .
- كتاب في المربع وقطره .
- كتاب في الأشكال المسطحة وسائر البسط والأشكال .
- كتاب في قطع المخروط المكافىء : في أياصوفيا ضمن مجموعة برقم (٤٨٣٢/٢) من ص (٢٦ ب ــ ٣٦ ب) . وفي مشهد رضوي برقم(٥٥٩٣) وفي باريس برقم (٢٤٥٧/٢٥) .
- كتاب في مساحة الأجسام المكافئة : في باريس برقم (٢٤٥٧/٢٤) .
- كتاب في مساحة قطع الخطوط المسمى بالمكافىء : في الظاهرية برقم (٥٦٤٨/عام) في عام ١٣٠٥ هـ .

- مقالة في عمل شكل مجسم ذي أربع عشرة قاعدة تحيط بهــا كرة معينة : في الظاهريــة برقم (٥٤٥٧) نقلها مصطفى فوزي عام (١٠٩٠ هـ) عن نسخة كتبها ابراهيم بن هلل ابن ابراهيم بن زهرون الصابي الحراني في ذي الحجة عام ٣٧٠ هـ مــن دستور أبــي الحسن ثابت • وفي كوبرللي برقم (٩٤٨/٣) كتبها ابراهيم بن زهرون من نسخة بخط ثابت بن قرة عام ٣٧٠ هـ •
- مقالة في تصحيح مسائل الجبر بالبراهين الهندسية • في أياصوفيا برقم (٢٤٥٧) • وفي أحمد الثالث ضمن مجموعة برقم (٣٠٤١)مــن ص (٢٤٥ آ ــ ٢٤٦ ب) تم نسخها نحــو عام ٧٠٠ هـ •
- مقالة في الهندسة ألّفها لاسماعيل بن بلبل •
- جوامع كتاب نيقوماخس (الجرشيني) في الأرثماطيقي (الحساب) •
- رسالة في العدد الوفق : (أي الأعدادالمتوافقة • وهي التي بينها عامل مشترك) •
- رسالة في الأعداد المتحابة : في أياصوفيا برقــم (٤٨٣٠/ف/٧٦٥) كتبت بدمشــق عام ٦٢٦ هـ • مصورة بمعهد التراث بحلب برقم (٦/١٣٩) نشرها د. أحمد سليم سعيدان بدعم من الجامعة الأردنية ــ عمان عام ١٩٧٧ م •
- في مساحــة الأشكال المسطحة والمقسمة : فيأياصوفيا ضمن مجموعة برقــم (٤٨٣٢) مــن ص (٤٢ آ ــ ٤٥ آ) •
- مقالة في صفة الأشكال التي تحدث بمد طرف ظلالقياس في الأفق في كليوم وفي كل بلدة: في الأسكوريال برقم(٩٦٠/١٥٤/٥) مصورة بمعهد التراث بحلب برقم(١٣٨٠/مجموع) وأخرى ضمن مجموعة برقم (٩٦٠/٤) تمالفراغمننسخها في ١١ رمضان عام٧٤٢هـ = ١٨ شباط ١٣٤٢ م • وفي غزيري برقــم (٩٥٥) •
- رسالة في التحليل والتركيب : نشرها مــع رسائــل ابراهيم بن سنان بن ثابت بن قــرة د. أحمد سليم سعيدان في الكويت عام ١٩٨٣ م•

☐ **في الفلــك :**

- كتاب في سنة الشمس بالأرصاد : في المكتبالهنــدي العربي برقم (٧٣٤) مصورة بمعهد التراث بحلب برقم (٢٣٦/مجموع) • وأخرى ضمن مجموعة برقم (١/١٢٧٠) من ص (١ ــ ٩) •
- كتاب تسهيل قراءة المجسطي : في مجلس شوراي ــ طهران برقــم (٤٦٤٢/٥) مصورة بمعهد التراث بحلب برقم (٧٣٣) •
- المدخل الى المجسطي : لم يتم ويُعد من أهمكتبــه وأجودها •
- كتاب في أشكال المجسطي •
- كتاب في حالة الفلــك •
- كتاب في رؤية الأهلة في الجنوب •

- كتاب في ابطاء الحركة في فلك البروج وسرعتها وتوسطها بحسب الموضع الذي يكون فيه الفلك الخارج من المركز · في باريس ضمن مجموعة برقم (٢٤٥٧) من ص (٥٦-٥٩) ·
- كتاب في علم ما في التقويم بالممتحن ·
- مختصر في علم النجوم ·
- كتاب في محنة حساب النجوم ·
- مقالة في حساب خسوف الشمس والقمر ·
- مقالة فيما يظهر من القمر في آثار الكسوف وعلاماته ·
- مقالة في علة كسوف الشمس والقمر : توفي ثابت قبل اتمامه ·
- كتاب فيما أغفله ثاون في حساب كسوف الشمس والقمر ·
- كتاب في طبائع الكواكب وتأثيراتها ·
- جوابان عن كتابي محمد بن موسى بن شاكر اليه (أي الى ثابت) في أمر الزمان ·
- رسالة في كيف ينبغي أن يُسلك الى نيل المطلوب من المعاني الهندسية : وفيها ذكر آثار ظهرت في الجو ، وأحوال كانت في الهواء مما رصد بنو موسى وأبو الحسن ثابت بن قرة · في أياصوفيا ضمن مجموعة برقم (٤٨٣٢) من ص (١ ب - ٤ آ) ·
- في حركات النيرين : في اكسفورد - بودليان ضمن مجموعة برقم (٣/ Thurst) من ص (١٠٢ آ - ١٠٣ ب) ·
- في حركة الأفلاك : في الظاهرية برقم (٤٤٨٩) مصورة بمعهد التراث بحلب برقم (٢٣/٤٤٨) ·
- كتاب في ذكر الأفلاك وحلقها وأدوات حركاتها ومقدارها ومسيرها : في أياصوفيا ضمن مجموعة برقم (٨/٤٨٣٢) من ص (٥٠ آ - ٥١ آ) · وفي القاهرة :
- طلعت ضمن مجموعة برقم (٣٧٧) من ص(٦٧ آ - ٦٨ ب) ·
- في حساب رؤية الهلال : في المكتبة البريطانية ضمن مجموعة برقم (١٣/ Rich /٧٤٧٣/ Add) من ص (١٠٨ - ١١٣) ·
- من كلام ثابت بن قرة في الهيئة : في أياصوفيا ضمن مجموعة برقم (٢/٤٨٣٢) من ص (٥٣ ب - ٥٤ آ) ·
- كتاب في آلات الساعات التي تسمى رخامات : في دار الكتب المصرية برقم (١٠٤٧/ ميقات) في آخرها بعض الجداول والرسوم· منسوخة عن نسخة لأبي الحسن ثابت بن قرة رحمه الله ، لم تكن بخطه عام ٧٧٠ هـ ·
- العمل بالاسطرلاب : في القاهرة - طلعت ضمن مجموعة برقم (١٥٥/ميقات) من ص (١ ب - ٢ آ) ·

– كتاب في ايضاح الوجه الذي ذكره بطليموس أن بـه استخرج من تقدمه مسيرات القمر الدورية • وهي المستوية : في كوبرلي – استنبول ضمن مجموعة برقم (٩٤٨/٢) من ص (٩١–١٠٧) نسخها ابراهيم بن هلال بن زهرون الصابي الحراني عام ٣٧٠ هـ •
– كتاب في أشكال الخطوط التي يمر عليها ظل المقياس •
– كتاب في الممتحن وترجمة ما استدركه على حبش في الممتحن (حبش بن عبدالله المروزي) •
– جواب عن سبب الخلاف بين زيج بطليموس وبين زيج الممتحن •
– كتب عدة في الأرصاد : باللغة العربية والسريانية •

في الطب :

– كناش في الطب (الذخيرة) : يقول ابن أبي أصيبعة أنه ألّفه أو جمعه لابنه سنان بن ثابت • بينما ينفي القفطي في اخبار العلماء ص ٨٤ أن يكون لثابت بن قرة • ويرجح د. سامي حمارنة في تاريخ تراث العلوم الطبية ص ١٧٨ ان (الذخيرة في علم الطب) منتحل لثابت ويقول : انه من تصنيف احد تلامذته او أتباعه • ويسوق حجته قائلاً : (انه وردت اشارة فيه – أي في كتاب الذخيرة – الى كتاب (الملكي) للمجوسي الاهوازي الذي ألّفه للملك عضد الدولة(٣٣٨ هـ = ٩٤٩ م – ٣٧٢ هـ = ٩٨٣ م) وهذا الكتاب الملكي قد تمّ تاليفه بعد موت ثابت بن قرة بأكثر من نصف قرن• فلا يعقل ان يكون كتاب الذخيرة له ••) وهناك دراسة للأستاذ عبيد (١٩٦٦) ترجح أنه لثابت ابن قرة • ويشتمل على ما يحتاج اليه في علم الطب ويتألف من ٣١ مقالة •

نسخه الخطية : في الظاهرية برقم (٧/ط – رقم قديم/٦٧٦٨) نسخت في رجب عام ١١٤٠ هـ • مصورة بمعهد التراث بحلب برقم (٧/٣٢٦) ونسخة ناقصة في مكتبة د. حداد – بيروت برقم (٩) ونسخة في مكتبة علي حسن – بالموصل • وفي أحمد الثالث برقم (٢٠٩٨/ف/١١٥٥) مصورة بمعهد التراث بحلب برقم (٩٥٠) كتبها اسماعيل بن يوسف عام ٦٢١ هـ • وأخرى ناقصة في آخرها برقم (٢٠٧٣/١/ف/١١٥٤) مصورة بمعهد التراث بحلب برقم (٩٥١) وفي بورصة تركية برقم(١١١٧)• وفي شهيد علي – ايران برقم (٢٠٢٨) وفي دانشكده – طهران برقم(٧٩٣٠) • وفي مجلس شوراي برقم (٥٠٢) وأخرى بدون رقم مصورة بمعهد التراث بحلب برقم (٧٥٢) • وفي رامبور برقم (٤٦٧/١) • وفي جستربيتي – دبلن برقم(٤١٢٨) • وفي الأسكوريال ضمن مجموعة برقم (٨٧١) من ص (١ – ١١٢) • وفي جامعة ييل – نيوهاڤن – أمريكة ضمن مجموعة كتبت في القرن الثامن عشر الميلادي •

حقق كتاب الذخيرة د. جورج صبحي المصري – القاهرة عام ١٩٢٨ م • وصدر في بيروت عام ١٩٢٨ عن دار المدينة •

– الكناش : في أياصوفيا ضمن مجموعة برقم (٣٧١٦) •
– الروضة في الطب : في اكسفورد – بودليان ضمن مجموعة برقم (١٣٤/١) من ص (١ – ٦٥) •
– معرفة النبض : في طهران برقم (٤٦/٣١٩٠) •

- رسالة في توالد الحصى : في برلين ضمن مجموعة برقم (٩٣٥٨) من ص (٣٩-٤١) .
- في البياض الذي يظهر في البدن : في أياصوفيا ضمن مجموعة برقم (٣٧٤٢) من ص (١٤٧ ب - ١٥٢ ب) .
- كتاب في البيطرة في كوبرللي - استنبول ضمن مجموعة برقم (٩٥٩/٢) من ص (٥٠ ب - ٨٦ ب) .
- جوامع كتاب جالينوس في قوى الأدوية المسهلة : في أياصوفيا ضمن مجموعة برقم (٣٦٣١) من ص (٢٧ آ - ٣٣ ب) .
- جوامع كتاب سوء المزاج المختلف لجالينوس: في أياصوفيا ضمن مجموعة برقم (٣٦٣١) من ص (٣٤ آ - ٣٨ آ) .
- جوامع كتاب جالينوس في الذبول: في أياصوفيا ضمن مجموعة برقم (٣٦٣١) من ص (٣٨ ب - ٤٥ ب) وفي اكسفورد - بودليان برقم (٢١٥/٣) .
- جوامع كتاب تدبير الأمراض الحادة على رأي بقراط : في أياصوفيا ضمن مجموعة برقم (٣٦٣١) من ص (٤٥ ب - ٥٥ آ) .
- جوامع كتاب جالينوس في تشريح الرحم : في أياصوفيا ضمن مجموعة برقم (٣٦٣١) من ص (٥٥ آ - ٥٨ ب) .
- جوامع كتاب جالينوس في المولودين لسبعة أشهر : في أياصوفيا ضمن مجموعة برقم (٣٦٣١) من ص (٥٨ ب - ٦٢ آ) .
- جوامع كتاب جالينوس في أصناف الأمراض: في آياصوفيا ضمن مجموعة برقم (٣٦٣١) من ص (٦٢ آ - ٦٥ آ) .
- مسائل طبية .
- جوامع تفسير جالينوس لكتاب أبقراط في الأهوية والمياه والبلدان .
- جوامع كتاب الأدوية المنقية لجالينوس .
- جوامع كتاب المرة السوداء لجالينوس .
- كتاب الأعضاء الآلمة لجالينوس .
- جوامع كتاب الفصد لجالينوس .
- جوامع كتاب الأمراض الحادة لجالينوس .
- جوامع كتاب الكثرة لجالينوس .
- جوامع ما قاله جالينوس في كتابه في تشريف صناعة الطب .
- اختصار كتاب النبض الصغير لجالينوس .
- اختصار كتاب أيام البحران لجالينوس .
- كتاب وضع المفاصل والنقرس .

ـ كتاب في الوقفات التي في السكون الذي بين حركتي الشريان المتضادتين : كتبه بالسريانية ورد فيه على الكندي • نقله الى العربية عيسى بن أسيد النصراني • وأصلحه عربياً ثابت العربي ـ أي ابن سنان ـ وقد ردّ على ثابت بعد موته اسحاق بن كرنيب •

ـ كتاب في مسائلة الطبيب للمريض •

ـ كتاب في الصفرة العارضة للبدن وعدد أصنافها وأسبابها وعلاجها •

ـ رسالة في الحصبة والجدري •

ـ كتاب البصر والبصيرة في علم العين ومداواتها : في المكتبة البريطانية برقم (١١٧٧٢/ شرقي) •

ـ كتاب تدبير الصحة •

ـ كتاب الى ابنه سنان في الحث على تعلم الطب والحكمة •

ـ كتاب الخاصة في تشريف صناعة الطب وترتيب أهلها وتعزيز المنقوصين منهم بالنفوس والاخبار أن صناعة الطب أجلّ الصناعات: قدمه للوزير أبي القاسم عبيدالله بن سليمان•

ـ كتاب في أجناس ما توزن به الأدوية : بالسريانية :

ـ كتاب في تشريح بعض الطيور : ربما (الملك الحزين) من الطيور •

ـ مقالة في صفة كون الجنين •

ـ رسالة في اختيار وقت لسقوط النطفة •

□ في علوم أخرى :

ـ كتاب في مراتب العلوم •

ـ مسائل مشوقة في العلوم •

ـ كتاب في صفة استواء الوزن واختلافه وشرائط ذلك •

ـ كتاب في القرسطون (ميزان الذهب) •

ـ أشكال في الحيل •

ـ كتاب في أن سبيل الأثقال التي تعلق على عمود واحد منفصلة هي سبيلها اذا جعلت ثقلاً واحداً مثبوتاً في جميع العمود على تساوٍ •

ـ كتاب في سبب كون الجبال •

ـ كتاب في الأنواء •

ـ رسالة في توليد النار بين حجرين •

ـ كتاب في السبب الذي من أجله جعلت مياه البحر مالحة : في أحمد الثالث ـ استنبول ـ برقم (٣٣٤٢) مصورة بمعهد التراث بحلب برقم (١٥٢/مجموع) وأخرى برقم (١٤٤٩/ مجموع) •

- كتاب في آلة الزمر .
- كتاب في الموسيقا .
- رسالة الى بعض اخوانه في جواب ما سأله عنه من أمور الموسيقا .
- رسالة الى علي بن يحيى المنجم ، فيما أمر باثباته من أبواب علم الموسيقا .

في المنطق والفلسفة والدين والأخلاق :

- اختصار المنطق .
- جوامع كتاب أنالوطيقا الأولى .
- كتاب أغاليط السفسطائيين .
- اختصار كتاب ما بعد الطبيعة .
- رسالة في مذهب الصابئين ودياناتهم .
- رسالة في الطهارة والنجاسة .
- رسالة فيما يصلح من الحيوان للضحايا وما لا يصلح .
- كتاب في الأخلاق .
- مختصر في الأصول من علم الأخلاق .

* * *

الحواشي :

الصابئة SABIA : [صابئون : Sabaeans] :

١ - في اللغة : يقال صبا بمعنى برز وطلع ، وكذلك صبا بمعنى مال وزاغ ، كما يقال صبا الرجل اذا ترك دينه ودان بإخر ، فهو صابىء وهم صابئون ، وفي الاصلاح الشائع (الصّابئة) قوم يعبدون الكواكب ، او يعبدون الملائكة ، و يزعمون انهم على ملة نوح ، كما قيل هم قوم ليسوا بيهود او نصارى ولا دين لهم ، وفي قول آخر : الصّابئون يقولون لا اله الا الله ، وليس لهم عمل ولا كتاب ولا نبي .

ولعل من أسباب هذا الاختلاف ان القرآن اشار الىالصابئة وقرنهم باصحاب الكتب السّماوية . وقد عاش الصابئة بعد قيام الدولة الاسلامية في حران شمال سورية وبغداد من انحاء العراق ، ومنهم من احتفظ بعقيدته حتى اليوم واحاطها بنوع من السرية بدعوى ان نشر تعاليمهايجعلها عرضة للتحوير والتغيير والزوال على مر الأيام ، لهذا فالتعريف بالصابئة يستلزم التفريق بين الصابئة كما ورد في اللفظ نصاً في القرآن الكريم وبين عقيدة الصابئة التي عاشت وما زالت في ظل الدولة الاسلامية .

ان الصابئة الذين يعنيهم القرآن هم حنفاء موحدون ، وانهم سبقوا اليهود الذين سبقوا النصارى الذين دانوا بالانجيل قبل تبديله .

والصابئة في الاصطلاح التاريخي هم طائفة دينية كانت وما زالت تعيش في العراق لا سيما في حران ، ومنها انتقلت الى بغداد وغيرها منذ العصر العباسي الأول ، ومن هؤلاء الصابئة من دخل في الاسلام ، ومنهم احتفظ بعقيدته .

انتقل بعض الصابئة النابهين الى بغداد وقاموا بنقل التراث اليوناني والسرياني الى اللغة العربية .

أصدر الخليفة الطائع سنة ٣٦٤ هـ / ٩٧٥ م تحت تاثير كاتبه أبي اسحق بن هلال الصّابىء عهداً يبيح للصابئة مباشرة عقيدتهم في حرية تامة .

عن : (القاموس الاسلامي) بتصرف
٤ / ٢٢٢

٢ - حران : مدينة قديمة قاعدة بلاد مضر شمالي سورية فتحها عياض بن غنم زمن عمر بن الخطاب : انظر ياقوت .

٣ - المعتضد : الخليفة العباسي السادس عشر (٢٧٩ هـ = ٨٩٢ م - ٢٨٩ هـ = ٩٠١ م) .

☐ مصادر ترجمته :

- فهرست ابن النديم ٢٧٢ • ابن أبي اصيبعة : عيون الأنباء ٢٩٥ ـ ٣٠٠ •
- ابن خلكان : وفيات الأعيان ١/١٢٤ ـ ١٢٦ •
- ابن كثير : البداية ١١/٨٥ •
- البيهقي : تاريخ حكماء الاسلام ٢٠ ـ ٢١ •
- ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ٢٦٥ ـ ٢٦٦ •
- القفطي : أخبار العلماء ١١٥ ـ ١٢٢ •
- ابن جلجل : طبقات الأطباء ٧٥ •
- اليافعي : مرآة الجنان ٢ / ٢١٥ ـ ٢١٧ •
- ابن العماد : شذرات ٢ / ١٩٦ ـ ١٩٨ •
- العظم : عقود الجوهر ١١٢ ـ ١١٨ •
- الخوانساري : روضات الجنات ١٤١ ـ ١٤٢ •
- صاعد : طبقات الامم ٥٧ •
- حاجي خليفة:كشف ٢١٨ ، ٢٩٠ ، ١٤٦١ ، ١٤٦٥ ، ١٥١٣ •
- البغدادي : ايضاح ١/٩١ •
- المسعودي : التنبيه والاشراف ٧٢ ـ ٧٣ ، ٢٢٢ •
- كحالة : معجم المؤلفين ٣/١٠٢ •
- الزركلي : الاعلام ٢/٨١ ـ ٨٢ •
- د• عيسى : معجم الأطباء : ١٥٥ •
- طوقان : تراث العرب ١٦٥ ـ ١٧٥ وصفحات متعددة والخالدون العرب ٥٧ ـ ٦٢ •
- فروخ : تاريخ العلوم ٢٩٦ ـ ٣٠٠ ، وتاريخ الفكر ٢٥٧ ـ ٢٥٨ ، ٢٧٧ ، ٢٨٠ ـ ٢٨١ •
- د• بدوي : موسوعة المستشرقين ٢٩٤ ، ٣٠١ •
- د• سامي حمارنة : تاريخ تراث العلوم الطبية ١٧٨ ـ ١٨١
- سركيس : معجم المطبوعات ١/٦٥٣ ـ ٦٥٤ •
- د•عيسى : تاريخ النبات ٤٧ ـ ٤٨ ـ رياضيات بهاء العاملي وكتابه خلاصة الحساب : ٦٠ ، ١٢١ ، ١٢٦ ، ١٤٩ ، ١٧٠ ، ٢٠٢ • حققه وعلق عليه د • جلال شوقي ـ منشورات معهد التراث بحلب ـ ١٩٧٦ •
- د• سعيدان : قاموس مصطلحات الرياضيات الابتدائية ٨ •
- د• طويل : من تراثنا العربي ٧٨ ، ٨٥ ، ٨٧ ، ٢٣٨ ،٢٣٩
- منصور جرداق : مآثر العرب في الرياضيات والفلك ١٨ •
- بروكلمن : ١/٢٤٢ (٢١٧) ، ٥١١ ملحق ١/٣٨٦ ـ ٣٨٤
- فانديك : اكتفاء القنوع ١٧٨ ـ ١٧٩ •
- هونكه : العقيدة والمعرفة ١١٩ ـ ١٢٠ •
- لوكليرك : تاريخ الطب ١/١٦٨ ـ ١٧٢ ، ٢/٤١١ •
- مقدمة سارتون : ١/٥٩٩ ـ ٦٠٠ ، سوتر ٣٤ ـ ٣٨ •
- سمث : تاريخ الرياضيات ٢/٤٥٥ ، ٦٨٥ •
- كاجوري : تاريخ الرياضيات ١٠٤ •
- بول : مختصر تاريخ الرياضيات ١٥٩ •
- نللينو : علم الفلك ١٣٥ ، ٢١٠ ، ٢٢٤ ـ ٢٢٥ •
- فيدمن : ثابت بن قرة : حياته ومؤلفاته ـ سلسلة مقالاته عن تاريخ العلوم عند العرب ـ المجلد الثاني ـ المانيه ١٩٧٠
- ماكس مايرهوف : تراث الاسلام ـ العلوم والطب ٤٥٨ ، ٥١٠ ترجمة فتح الله •
- كارادي فو : تراث الاسلام ـ الفلك والرياضيات ٥٦٤ وحاشية (٤) ، ٥٦٦ ، ٥٧٧ ، ٥٧٨ ترجمة فتح الله جرجس •
- فارمر : تراث الاسلام ـ الموسيقا ٥٣٣ ، ٥٣٤ ترجمة جرجس فتح الله •
- فارمر : تاريخ الموسيقى العربية : ٢٣١ ، ٢٥٢ ، ٢٥٣ •
- فيبكه : بحث في نظرية اضافها ثابت بن قره الى الحساب النظري عند اليونان ـ نشره عام ١٨٥٢ م •
- روسكا : الموسوعة الاسلامية ـ مجلد ٤ ص ٧٧٠ ـ ٧٧١ •
- اهلورد : ٥/٣١٩ •

- دوسلان : فهرس المخطوطات العربية ٤٣١ ـ ٤٣٢ •
- شبوح : فهرس المخطوطات المصورة ـ القاهرة ـ طب ٣/٢/٨٨ ـ ٨٩ ، كونتش ٥ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٨١ ، ٨٢ ـ سيد ـ الرياضيات ٣/٣/١٣ ، ١٤ ، ٣٠ ، ٣٣ ، ٣٤،٣٥،٤٧،٧٤ •
- العايدي : فهرس مخطوطات الظاهرية ـ رياضيات ، ٧٦ ـ ٧٧ ، ٧٨ ، ٨٥ ـ ٨٦ ، ٨٩ ، ٩٥ ـ ٩٦ ، ١١٥ ـ ١١٦ •
- خوري ـ فلك ١٣ ، ٣١ ،
- د• حمارنة ـ طب : ٢٣٠ ـ ٢٣٥ •
- صواف ـ العلوم ٢١٤ ـ ٢١٧ •
- د• حداد وبيترفيلد:فهرس مكتبة،د• سامي حداد ٤٠ـ٤١ •
- كوركيس عواد : جولة في دور الكتب الامريكية ٨٣،٩١،٩٤ •
- الجبوري : فهرس مخطوطات أوقاف بغداد ٤/١٥٥ •
- د• ششن : نوادر المخطوطات العربية في مكتبات تركية ١/٣٩٥ •

★ ★ ★

□ المجلات والمؤتمرات :

- المجمع العلمي بدمشق : مجلد ١٧ ص ٧٨ ـ ٨١ د٠ مرشد خاطـر ٠
- التراث العربي ـ دمشق ، عام ١٩٨٣ عدد ١٠ ص ١٩٧ ـ ٢٠٣ د٠ صلاح محمود غانم : الذخيرة ٠
- التراث العربي ـ دمشق : عـام ١٩٨٣ عـدد ١١ ـ ١٢ ـ أمراض المتحمة عند العرب : د٠ مؤنس محمود غانم و د٠ صلاح محمود غانم ٠
- التراث العربي ـ دمشق : عام ١٩٨٥ عدد ٢١ ص ٤٧ ـ ٦٢ علماء العقاقير النباتية : د٠ عبد الكريم اليافي ٠
- معهد المخطوطات : احمد اتش : عدد ٤ ص ٤٢ ـ المنجد : عدد ٥ ص ٢٨٦ ٠
- العروة : عدد تموز ١٩٣٦ ص ٤١ ـ ٤٢ د٠ سامي حداد ٠
- العروة : عدد تموز ١٩٣٦ ص ٨٦ ـ ٨٧ منصور جرداق ٠
- الثقافة : انستانس الكرملي صفحات متعددة ٠
- العلوم : ايلول ١٩٦٤ من ص ٣٧ ـ ٤١ فكتور الكك : بناة الحضارة العربية ـ ثابت بن قرة الحراني ٠
- العربي : الكويت عام ١٩٨٤ م عدد ٣٠٩ د٠ سالم الانصاري : حقائق عن علم الفلك عند العرب ص ١٥١ ـ ١٥٥ ٠
- المورد : مجلد ٦ عدد ٤ ص ١٧٩ ، ٢٦٤ ٠
- ايزيس : مايرهوف : عام ١٩٣٢ م عدد ١٤ ص ٥٥ ـ ٧٦ ٠
- ابحاث المؤتمر السابع لتاريخ العلوم عند العرب ـ حلب ١٩٨٣ م ٠ د٠ محمد سوسي : الترجح اللساني في النقل الاول للغة الرياضيات الى العربية ص ٨٩ ـ ٩٦ ٠

— **F. SEZGIN : Geschichte des Arabischen Schrifttums, Bana III. 260-263, 377-390, V. III. 264-272, VI. III. 163-170.**

— **The Astronomical Works of Thabit B. Qurra (tr. By Francis J. Carmody) Berkely - University (U.S.A.) Press 1960.**

★ ★ ★

الشعر الشعبي الغنائي

في الفراتين والبادية

دراسة: عبد الفتاح قلعه جي

على شواطىء دجلة والفرات نشأت حضارات عريقة ، تاسست مدن ودثرت أخرى ، وما زال الفراتان عبر التاريخ مصدر الوحي والالهام لغالبية الشعراء الذين عاشوا على ضفافهما أو قدموا اليهما من البادية ٠

والصلة وثيقة ما بين البادية والفراتين ، فهما المورد والسوق ومحط القوافل الضاربة والطريق القديمة التي تسير عليها القوافل ما بين الخليج العربي وشواطىء المتوسط ٠ ومن الفراتين قدمت الينا ألوان عديدة من الشعر الشعبي الغنائي كالموال والعتابا والكان كان والقوما والدوبيت ، وعلى المدى الطويل تكونت للسكان القاطنين على ضفاف هذا الشريط المائي شخصية موحدة يشكل الشعر الشعبي الغنائي واحداً من أهم مكوناتها ٠

من العمارة والكوت والرمادي الى البوكمال ودير الزور والرقة نلمس في السكان وحدة اللهجة والسلوك والعادات والتقاليد ،كان ظروف العيش على ضفاف هذا المجال الحيوي قد طبعتهم بميسم واحد منذ أن كانت مملكة ماري تمتد على هذه الضفاف ومن قبلها أكاد وسومر وحتى الآن ٠

الاحساس بالوحدة والتكامل الحضاري : الثقافي والاجتماعي والاقتصادي هو الذي حدد اتجاهات الغزو والترحال على هذا الشريط منذ عهد سرجون الأول ونارام سين والعلاقات الاقتصادية والسياسية الواسعة بين يمحاض وماري وبابل الى آخر محاولات الوحدة بين القطرين سورية والعراق ٠

انتقال الأغاني الشعبية من العراق الى سورية على هذا الشريط الحيوي مستمر منذ القديم ، وبالرغم من وجود كيانات سياسية متعددة ومجموعات حضارية مستقلة فان الألحان والأشعار الشعبية الغنائية كانت في حركة متصلة توحد بين شعوب هذه المنطقة وتربط

بين ماضيها وحاضرها ، وكانت هي المعبر عن القيم الروحية والجمالية لها وعن مواقفها المشتركة من الحياة والناس والأحداث التاريخية ، وما تزال الى الآن بعض هذه الأغاني تحمل في كلماتها رموزاً غامضة تعود الى عهود موغلة في القدم ، وبعض الألحان تبدو متناسخة عن تراتيل قديمة ٠

شعر الفراتين الغنائي تنوع وثراء :

على الرغم من أن البحث في الأدب الشعبي حديث العهد الا أن شعر الفراتين الغنائي كان أوفر حظاً ، ولقي من الدارسين الاهتمام المبكر جمعاً وتوثيقاً ودراسة ، وظهرت فيه عدة مؤلفات تشكل للباحث مصادر أولية يكملها البحث الميداني والتاريخي ، كما أن عبور هذه الأشعار والألحان وحركتها على امتدادي المكان والزمان وما يصيبها من تناسخ وتطور وتغير يجعل من الدراسات المقارنة أمراً ضرورياً ٠

هذه الأشعار الغنائية كانت تخضع في شكلها اللغوي واللحني وفي مضمونها ، من حيث البناء الأولي والتطور ، للبيئات التي نشأت فيها أو التي هاجرت اليها ٠ ان أداء النوع الواحد منها يختلف من قبيلة لأخرى ومن منطقة لأخرى ، وعندما تنتقل أغنية مثل الشوملي الى مراكز الحضارة المدينية الواقعة ما بين الفرات والساحل كحلب وحمص ودمشق فانها كانت تخضع الى مؤثرات بيئية تكون وراء ما يعتورها من تغير في اللهجة واللفظ واللحن لتكون مناسبة للأذواق والمناخات الجديدة ٠

الدراسة التاريخية المقارنة تشير الى أن بعض هذه الأغاني انحدر من عهود وحضارات قديمة شهدتها المنطقة ، فعندما يتعرض الدارس الى أغاني الميمر الفراتية الحالية لا بد أن يشير الى ميامر مار أفرام الشاعر السرياني الكبير ، ولفظة ميمر في الأصل سريانية ، وعندما نتحدث عن أغنية سكابا يا دموع العين، هذه الأغنية الأكثر شيوعاً في العراق والشام ومصر والتي يغلب عليها طابع الحزن وصور الموت والنداء من أعماق العالم السفلي ، لا بد أن نشير الى ترتيلة كنسية سريانية قديمة بذات اللحن والجو المأساوي، ومن يدري فربما تعود هذه الأغنية الى عهود أبعد موغلة في القدم ، فلعلها بقايا من طقوس الحزن الدينية على الاله الميت دوموزي السومري وتجسداته فيما بعد : بعل وحدد وأدونيس وأوزوريس، لأن هجرة الأسطورة وانتقالها من مكان الى مكان ومن زمان الى زمان وما يعتريها من اضافة وحذف وتغيير لم يكن مقتصراً على القصة فحسب وانما كان يشمل أيضاً التراتيل الغنائية المصاحبة لها والتي كان بوساطتها يروى الحدث ٠ مهما يكن فان هذا الأمر يحتاج الى المزيد من البحث المقارن والتمحيص ، والى أن تتضافر من أجله جهود ذات اختصاصات متعددة لا تقتصر على البحث الفولكلوري وانما تستعين بالدراسات الأركيولوجية والأنثروبولوجية ربما يمكن أن يلقي ضوءاً في هذا الطريق ٠

تتصف أغاني الفراتين بالتنوع والثراء ، ومن الصعب الاتفاق على عدد هذه الأنواع الشعرية الشعبية الغنائية فهناك أنواع تصنف على أنها مستقلة وهي في الحقيقة مجرد ألوان

من أنواع رئيسية، كما أنه لم يتم حصر نهائي لها وذلك يستدعي مسحاً جغرافياً لها ودراسات ميدانية واسعة، وسنحاول التعريف بأهم هذه الأنواع وأكثرها انتشاراً، ثم نأتي على ذكر الأنواع المنتشرة في البادية.

١ ـ الأبوذيّة :

من أكثر الأنواع انتشاراً وشهرة، وهي رباعيات تنظم على البحر الوافر، مؤلفة من أربعة أشطر، الثلاثة الأولى منها ذات قواف مجنسة جناساً كاملاً، والرابع ينتهي بياء مشددة وهاء مهملة، يرجح أنها نشأت في جنوبي العراق وسادت في بلدة الحي وهي واسط، ثم امتد انتشارها على مجرى الفرات الى دير الزور

هذا اللون هو المحبب في الغناء، يتبارى في نظمه وغنائه الشعراء، ويؤدى في الأعراس والأفراح بطرق وأنغام متعددة، وهي كالعتابا انحدرت كما يرى د. مصطفى جواد من الدوبيت المعروف بالأعرج، ويقول عنها المرادي في سلك الدرر انها نوع من الشعر البغدادي الأصيل أصابها التنوع والتفرع.

ومثلما اختلف في نشأتها وتاريخها اختلف في سبب تسميتها، ويميل أغلب الدارسين الى اعتبارها مأخوذة من كلمة الأذية، أي الذي آذاه الدهر، فهي كالعتابا تغلب عليها العاطفة الحزينة، وفي الهند جبل يدعى جبل بوذ، فهل هناك علاقة بين الاسمين ؟

تنظم الأبوذية في عدة أغراض كالغزل والنسيب والشكوى والرثاء والهجاء والأخوانيات، على أن أهم ما تتناوله هو موضوعات الحب من وصف ملاحة الحبيب، ومعاناة العاشق ووصف حاله من وجد وسهر وقلق وضنى وما يقاسيه من جفاء المحبوب.

سكنت غرب لاجْلك وانت بهلك « مع أهلك »
أون ونّة المسجّن وانت بهلك « وانت الهالك »
أغط في النوم ساعة وانتبهلك
عجب ما ينكسر قلبك عليّه

وشعراء المواويل هم شعراء الأبوذية، ولكل منطقة شاعرها، وهي في شكلها الفني وأسلوبها ومعانيها قريبة من العتابا، وقدلا نجد في معاني هذه المنظومات الغنائية ما هو جديد ولكنها تقدم لنا نموذجات عاطفية شعبية، ويستفيد شعراؤها من الرموز المشهورة في التراث العربي ومن قصص العشق والأحزان.

خل عيني بهواها تسيل ما دم « ماء ودم »
حزينة واللي يسرها أوياي ما دام
ما الخنسا بونيني عليك ما دم « آدم »
على حوا ولا البو عامرية

وقد انفردت الأبوذية عن العتابا بالاتكاء على شعر الفصحى بالمعارضة والتضمين كقول أحدهم مستفيداً من قول أبي تمام :

نقّل فؤادك حيث شئت من الهوى   ما الحب الا للحبيب الأول

هذا المعنى يستنسخه شاعر الأبوذية من غير أن يضيف اليه شيئاً فيقول :

أنا لاجلك لعند أعداي ماشيت
ولا بكلمة لساني عليك ماشيت
فؤادك نقله بالهوى ماشيت
النفس لأول حبيب تميل هيّه

يعزم الشعراء الشعبيون بتجنيس القوافي تجنيساً كاملاً ، ويبدو أن هذا لا يعود الى اظهار المقدرة في اللغة والتصنيع فحسب وانما يرجع الى أن هذا التجنيس يحقق عند الغناء ثلاثة أمور توفر للمنظومة الغنائية نوعاً من التكامل الفني وهي :

١ ـ المفاجاة والادهاش مع شيء من الغموض الفني .

٢ ـ موسيقى لفظية تتركز في مصب البيت .

٣ ـ موسيقى المعنى .

ولكل منطقة طريقتها في غناء الأبوذية حسب النغمات المعروفة : البيات أو الحجاز أو العجم أو الصبا أو الجهاركاه ، وبذلك تتعدد ألوان الأبوذية فمنها اللامي نسبة الى عشيرة بني لام والصبى نسبة الى الصابئة والعنيسي والمشموم .

وقد غنى الصابئة الأبوذية بلحن حزين جداً ، وهم قوم صنعتهم الحب والشعر ، وقد عرف من شعرائهم سوادي واجد وسباهي شبيب وعودة منصور ، ومن جميل قولهم :

حدا حادي الأحبة بليل وامضه « ومضى »
بجفاهم صوبوني سهام وامضه « ماضية »
كتبت خطي لعند الزين وامضه « امضائي »
ويا وسفه جوابه أبطى عليّه

٢ ـ الميمَر :

رباعيات تنظم على البحر السريع ، وتتالف من أربعة أشطر ، الثلاثة الأولى قوافيها مجنسة جناساً كاملاً ، والرابع رويه الراء الساكنة ، وعادة ما يستهل الغناء بهذا المطلع:

عالميمر عالميمر عالميمر
ظعن الولف لشبيجة شال وحدّر

ويعتور التغيير الشطر الثاني من المطلع شأن أغلب الأغاني الشعبيــة ، أما شبيجة فهو نهر في حويجـة العبيــد بالعراق ·

ويرى بعضهم أن كلمة الميمر محرفة عن« اللي‌مر » أي الذي مر ، أو « المــامر » أي الذي لم يمر ، وثمــة قصــة شعبية تروى في نشوء هــذا اللون معروفة لدى أهالي جنــوبي العراق وهي أن شاباً اسمه حسين أحب فتــاةصابئية ورفض أبوها أن يزوجه اياها ، فدنف بها ومرض وراح ينشد هذه الأشعار وهو على فراش الموت وأبوه يواسيه بمثلها حــتى فارق الحياة ، وحفظ الناس هــذه القصة وراحوا يروونها ، وأصبح من تمام الرواية أن تغنى معها الأشعار · والتعبير عن الأشواق وانتظارمرور الحبيب والمكابــدة في العشق وأحــوال العاشق هي الموضوعات الأساسية للميمر ، قديعطي ذلك تفسيراً لكلمة الميمر غير أن هــذه الموضوعات هي عامة في الشعر الشعبي الغنائي كالموال والعتابا والأبوذية وغيرها ، والحقيقة أن كلمة ميمر سريانيــة ، ومعناها أغنيــة ،وميمرو قصيدة مغناة ، وقــد اشتهر الشاعر السرياني الكبــير مار أفرام بنظم الميــامر ·

وقــد تناول الميمر أغراضاً شتى كالغزل والفخر والحماسة والتوجع والفراق والرثاء ، وقــد أبدع شعراؤه في وصف المحبوب كقول أحــدهــم :

رمّــان خدك يا ترف بس حبّــه
ودموع عيني كالمطــر بس جبّــه
أفديه لعيونك يا ترف بس حبّــه
مــن هالخدود الكنّهــا ورد أحمر

٣ ــ نَظْـمُ البنــات :

من أكثر الألوان الشعرية شيوعاً وأحبها الى القلوب لرقــة أبياته وخفتهــا وعفويتها وعذوبة نغمها ، ويختلف اسمه باختلاف المناطق فيدعى بالدرامي والغناء والتوشيح والنثر الشعبي ، ودعي بنظم البنات لأن النساء يكثرن النظــم فيــه ·

وتتألف المنظومة الغنائية من أبيات من مجزوء البسيط ، كــل بيتين ينتهيان بقافيــة موحــدة ، وفيه يتناول الشعراء قضايا الحب والوقائع والحوادث اليومية الهامة وموضوعات شتى ، وهو مادة للحوار ، فيه يتسامر ويتحاور ويتناقــد الساهرون ، ويتميز نظمه وغناؤه ببساطة التعبير وصدق المشاعر وسهولة الأداء وخفــة الموسيقى والرقــة العاطفية ، ويصبح أكثر تشويقاً عندما يأخذ طابع الحوار الغنائي حيث تمتد السهرة حتى ساعة متأخرة من الليل ·

لا يــا حكيــم الجــاي   لا تلمــس لايــــدي
ماش نبضــي ينبيــك   روحــــي بوريــــدي

* * *

خليتنـــي بهـــواي   للنجـــم راعـــي
عينـك تبـوكل نـوم   لـو متلـي واعـي

★ ★ ★

يا الخلت روحي ويّاك   ردّ روحـــي ليَّـــه
خـوفي مـن النمَّـام   يشـــمَّت بيَّـــه

٤ ـ الهـوسَـة :

الهـوس : الدق والكسر ، وهاس على العسكر : حمل عليهم فداسهم وهاسهم ، ومنه كان اسم الهوسة هذا اللون من الشعر الشعبيالغنائي الكثير الشيوع بين القبائل التي ألفت الغزو ، فهو يقوي عزائمهم على القتال ، وكانله دور فعال في حركات التحرر الوطني ، وقد حضرت مهرجاناً شعرياً في مدينة قم بالعربية،كان أحد الشعراء الشعبيين من الحضور وهو مـن منطقة عربستان اذا اشتد بـه الاعجابوالحماس راح يقاطع الشعراء بأبيـات مـن الهوسة فيلقى استحساناً كبيراً من الجمهور ٠

وأصل هذا اللون شطر واحد يرتجل بينالجمع ، ثم زيدت عليه ثلاثة أشطر فغدا من الرباعيات ، الأشطر الثلاثـة الأولى متحـدةالقافية والرابع مختلف ، من ذلك قولهم :

جميـع النـاس منّي وانـا بيهـا
ومواكب سدت كـده وانـا بيهـا
وطيور أم العـلا ترف وانا بيهـا
تنـــدار للـدنيـــا ودهـّـانــه

٥ ـ المَـربّـع :

قصيدة غنائية طويلة تتألف من وحداترباعية ، الأشطر الثلاثة الأولى منها متحـدة القافية والرابع يقفى بقافية المطلع ، وقـدنظم المربع على أبحر مختلفة وفي أغراض شتى أهمهـا الوجدانيات كالغزل والشكوى الرثاءوالحنـين ، وكان له دور في مؤازرة الحركـات الوطنية ٠ وقد قل النظم والغناء فيه حالياً ، ويذكر صاحب كتاب الطرب عنـد العـرب أن منه نوعاً يدعى كلمة ونصف يغني على البيات،وطريقة غنائه أن يجلس الرجال على الأرض في شبه دائرة ، ويمـد كل منهم ساقه اليمنىيضربون بها الأرض معاً لضبط الوزن (وهذه الطريقة يستعملها الحلبيون في غنـاء القدودوالموشحات والأدوار) وهم يرددون المطلـع : « قلبي ينـوح ما لومـه » بينما يقف المطربينهم وهو يغني هذه الرباعيات ٠

ومن هذه المنظومات الغنائية نوع أشبهبالحداء تأخذ وحداته الرباعية بعضها بعناق بعض بروابط لفظي ومعنوي كقولهم :

مِنْ ونيني كـام جـاري
أو بعـد ما يلفي الداري
بكت عيني بدمـع جاري
يشبـه لكـتّ الغمــام

غَيَّـر أحـوالـي الأودّه
مـن رماني بسهم صـدّه
ليش عنّـي بحب بعـده
أو مارعْ وياي النمام

بكت فـوق الوجـن دمعي
ويحـن لفرقـاك ضـلعي
صرت بس أومي بأصبعي
أو بعـدما أوعى الكـلام

ما رَع ولا خـاف ربَّـه
بـلا ذنب حطني مسبَّـه
جـا قلت آنـي أحبَّـه
حـرّم علـيَّ الـكـلام

بعـدما أوعـى ونـازع
ولمنيتي القـدر مـانـع
انو تبـدي الوصل راضع
غـير أحـوالي الفطـام

حـرّم وعنّـي تعـدّه
ويحـذف بمـاء صـدّه
مـا تمس النـار جلـده
كـل مـن يمـوت بغرام

٦ ـ النـايـل والسويحلي :

النايل ضرب من الشعر الشعبي الغنائي المثنوي ، شطراه متحدان في القافيـة ، وينظم على بحر البسيط ، وهو كالميجانا يوشح بـه المغني أبيات العتابا للتخفيف من وقعها المؤسي لذا فان موضوعه الأول هو العشق ٠

لازرع شـكارة لعشيري واسقيهـا مي العـين
واحصـد هـروش القلب لا مايجـي الزيـن
لازرع شـكارة لعشيري مـن تتن بو وريـدة
يا يـوم صايـح خطـا على النـايم وحيـدة

يروى أن التي ابتكت النايل فتـاة مـن عشيرة العبيد كانت تحب فتي اسمه نايل وقد قالت فيـه :

نايـل قتلني ونايـل غيَّر الواني
ونايل بشوقه سقيم الروح خلاّني

ولربما سمي النايل بنوال المنى ، كأنهم يمنون مغني العتابا الذي أثقله الحزن والفراق بنيل المنى ، ومن أنواعه الغرباوي نسبة الى غربي العراق ، والعراقي نسبة الى العراق . والسويحلي ضرب من النايل يغنى بنغم البيات أكثر خفة ورشاقة ورقة :

بالقلب رسمك خلّك بعيد بلاد

بالقلب رسمك

كل من على اسمك القلب له يفتاج

كل مَن على اسمك

يا ريته بالعطب قلب سلا الغالي

يا ريته بالعطب

انتقل النايل والسويحلي من عشائر فرات العراق الى سورية وكثر شيوعهما في مناطق دير الزور ، وأصبحا من الألوان المحببة في الغناء يغنيهما الرجال والنساء أثناء العمل في القطاف أو على مراقي البناء .

٧ ــ أنواع أخرى من الأغاني الشعبية :

أ ــ البستة :

هكذا يسميه البغادرة ، وفي الفرات الأوسط يدعى بالموشح ، وفي الجنوب يدعى النثر، وهو لون من الأغاني الشعبية الخفيفة تقابل القدود تغنيها المجموعة بعد أن ينتهي المغني من المقام ويستعد لأداء المقام التالي ، فهي الرابط النغمي بين مقامين ومحطة في الغناء فيها حركة وخفة وامتاع .

ب ــ الندب : النعي والمعادة :

الندب في المآتم قديم يجري في طقوس خاصة ، وهو لون من الشعر الرثائي يغلب عليه مدح الميت واظهار التحسر والألم واللوعة ،تخالطه أحياناً الحكمة والموعظة ، وهو استمرار لطقوس الحزن على الاله الميت في ميثولوجيا وادي الرافدين وحتى طقوس التعزية الحسينية ، ولا نغالي اذا قلنا ان العشق والحزن اللذين يقابلان الحياة والموت هما المنبعان الرئيسيان لكل الابداعات في الشعر الشعبي، ومع تأصل المدنية في الحواضر الكبرى وغياب علاقات القبيلة ومشاعرها الجماعية وأخذ الأسرة الصغيرة دورها المستقل في مجتمع المدينة اختفت تلك الطقوس العنيفة في اظهار الحزن وتم الاستعاضة عنها بطقوس دينية هادئة تتيح للمفجوع السلوان والتفكر والرضى بحكم القدر ، هذه الطقوس تتمثل بقراءة القرآن في الليالي الثلاث للوفاة وتدعى« المقريّة » وقراءة دعاء خاص صباح اليوم

الثالث حول القبر مع قراءة القرآن ويدعى هذا الطقس بـ « التيلت » أي الثالث · ومنذ العصر الجاهلي كان البكاء على الميت في المجتمعات القبلية يأخذ طابع الحرفة لتعميق مظاهر المشاركة الجماعية، فهناك نساء ندابات يحترفن هذه الصنعة ، وكلما كان الميت كبيراً في قومه كانت احتفالات الندب أكبر ·

والنعي أشعار حزينة تغنيها النساء في المأتم في بيت المتوفى وحول قبره ، أما المعادة فتختص بها العدادة وتسمى القاصودة أي التي تنشد القصائد في رثاء الميت حيث تجتمع النساء حولها في حلقة وهن واقفات يضربن صدورهن لوعة وحزناً ، أو هكذا يمثلن ، والطبل يقرع ، وفي داخل الحلقة رجل وامرأة يتقابلان بسيفيهما ويتحركان على ايقاعات الطبل والغناء · وقد ذكر عبدالقادر عياش في صوت الفرات أن هذا اللون كان شائعا في في مناطق دير الزور ·

ج ـ التجليبة :

لون غنائي محبب ينظم على بحر الهزج يتألف من شطرين بروي واحدهما المطلع ، ثم تتلوه الرباعيات ، الأشطر الثلاثة الأولى من كل رباعية متحدة القافية ، والشطر الرابع على قافية المطلع ، وقد سمي هذا الغناء بالتجليبة لورود كلمة لأجلبنك في المطالع والرباعيات ، وهي لغة من جلب المرء : جاء به ، أو من الجلاب : العسل والسكر المعقود بماء الورد ، كأنه يعسل محبوبته بالشعر والغناء :

لاجلبنك يا ليلى ألف تجليبة تنام أهل الهوى وتقول ما درى به
لاجلبنك يا ليلى وأصبح آني أنداس وذل خشمي عقب ما كنت عالي الراس
كل يوم الدهر وياي يلعب ساس حربه أوياي حرب أمطير واعيتبه

د ـ المولية :

وهو من الغناء الذي انتقل الى المدن وشاع في أعراسها ، وينظم على بحر البسيط ، ويتألف من المطلع ثم الرباعيات ، الأشطر الثلاثة الأولى منها متحدة القافية ، والرابع على قافية المطلع :

يا عين موليتين يا عين مولية درب الأحبة قطب عمل برجلية

وقد شاع في حلب المطلعان :

يا حباب لا ترحلوا ظلّوا حواليّة
وجسر الحبيب انكسر من دوس رجليّه

وفي رباعيات المولية نجد العواطف الرقيقة والصور اللطيفة كقولهم ، وهو من المقاطع المعروفة في حلب أيضاً :

مـن هـون لعنـدنـا ، ومـن هـون لعنـّا
بتسوى من خيل العرب ، ومن فواكي الجنـّا

ايمتـا بعــود الزمـان ، وبتيجـي لعنـّـا
لفرش فـراش الهنـا ، وغطيـك بايديـّه

لاطلـع عا راس الجبـل واشرف على الوادي
وقـول يـا مرحبـا نسـّم هـوا بـلادي

يـا رب يطـوف النهـر ، ويغـرق الـوادي
لاعمـل زنـودي جسـر وقطعـك ليـّه

ومولية هي نداء يا مواليا ـ يا موالية ٠٠ وبه سمي الموال ، وكانت الجواري في رثائها البرامكة تختم غناءها بهذا النداء :

هـ ـ الهلاءَبـة :

ومعناه الترحيب « أهلاً بك » وسمي بهلتكرار هذه الكلمة في مطالع رباعياته ، يغنى على المجوز وينظم على الوافر، الأشطر الثلاثةالأولى من رباعياته متحدة القافية ، والرابع على قافية المطلع ، وعندما ينهي المغني كل رباعية من منظومة الهلاءَبة تردد المجموعة المطلع:

هـلا يا الواردة يمـّا هـلا به   شبر وذراع قـرمول العصـابة

و ـ الشـوملي :

وهو مـن الغناء الذي انتقل الى المـدن تحت اسم الهويدلي، وينظم على مجزوء الرجز، يتألف مـن مطلع ورباعيات ، الأشطر الثلاثة الأولى متحـدة القافيـة والرابع على قافيـة المطلع ، ومطلعه كالمطلع الشائع في المدن عدا كلمة الشوملي التي تحل محل « هويـدلي » ، ونغمة السيكاه :

عالشوملي   عالشوملي   نارك ولا جنـة هلـي

وسمي هذا الغناء بالشوملي نسبة الى الشـّومـَل وهي الريح الشمالية ٠

ز ـ البكـرة :

وبه تتغنى النساء بكرة في مواسم الحصاد وهـنّ يذهبن الى الحقـول أو يعملن فيهـا للتخفيف من مشقة العمل ويتألف مـن مطلع ورباعيات ، الأشطر الثلاثـة الأولى متحـدة

القافية والرابع على قافية المطلع ، وينظم على الهزج ، وقد ذكر صاحب كتاب الطرب نموذجاً منه نورده فيما يلي :

خبب يمشي المدلل بزرق النيلي على صدر المدلل دق يحلى لي

خبب يمشي الترف والنهد منه زام
ظريف أدعج مهيكل كامل الهندام
يرمي لو زرق عينيه نبل وسهام
من شفته يهلّ وآدم رقد حيلي

ح ـ اللالا :

وهو من الغناء الذي انتقل الى المدن وشاع فيها ، تغنيه النساء في الأعراس ، ينظم على مجزوء الرجز ، ويتألف من مطلع ثم تليه الأبيات ، وكل بيتين بقافية واحدة :

عا لا لا لالا و لالا ليش الزعل يا خالة
وانا عاطيتك روحي بالله اعطيني بدالا
ما قلتلك يا يمّا فلّي جدايل راسي
كل البنات انخطبوا الا ابن عمي ناسي
ما قلتلك يا يمّا على الراحة عينيني
ما ادري المحبة من الله ما ادري العشق سابيني

ط ـ الهليّية :

هذا الغناء ينظم على بحر الوافر ، نغمه البيات ، ويتألف من مطلع ورباعيات ، الأشطر الثلاث منها متحدة القافية والرابع على قافية المطلع على الشكل التالي :

هله يا نور عيني يا هليّه يا غالي من تمر سلّم عليّه

أخذني وطير بيّه فوق لفوق
وذبّني بمرتع الغزلان والنوق
أسافا يا خدك غيري يغر نوق
يلفّك بالحضن غضبا عليّه

ي ـ أغنيـات شائعـة :

من الصعب حصر جميع الألوان الشعرية الغنائية على أننـا نذكر منها بعض الأغاني المصاحبة للدبكة مثل : السية وهلابا ، وكـل الهلا بالغالي، وردت على الخرعوبة، يا مياسة، عاليادي ، على عميم على عمام ، الدلعونا ومنها غناء زيارة الأولياء في أوائل الربيع في دير الزور حيث تقصـدهم النسـاء للتبرك والابلال من المرض ونيل المنى وفك عقـدة الحبـل والخطوبـة :

يا ولـي جيتـك زايـرة مـن كتـر ماني بايـرة

ومنها أيضاً أغاني تحية الربيع وتغنيها الفتيات ، ومنها أغاني الرحى ، وأغنية أبو الورد المشهورة ، حيث تغني الفتيـات ومـن حولها صاحباتها يرددن ويصفقن :

أبـو الورد يابـو الورد غـزلان عـالمـارد تـرد

ومع انتشار التعلم في الكتاتيب والمدارس أدركت الأم قيمة العلم فهي تعبر عـن ذلك بالغنـاء وتستقبل ابنهـا فرحة بالدواة التي يحملها والحبر الذي يلطخ ثيابه :

يـا مرحبـا يـا تابـه والجـاي مـن كتّـابه
والـدوايـة بايـده والحبر مالي تيـابه(١)

أما أغنية على عميّم الواسعة الانتشار ، والتي تمتاز بالخفة والرشاقة فانهـا تعتبر من الأغاني الشعبية المرافقة للدبكة في حلب ، ومـن أغاني القرادي في لبنـان ، ومن أغاني المطلوع في فلسطين ، وأصل قصتها تتحدث عن حـالة اجتماعية تتمثل في تفكك الأسرة بعـد انفصال الأبوين واضطرار الأبناء اللجوء الى العم للعيش لديه ، ويصبح العم أباً ثانياً بعد فقد الأبوين وتعرض الأبناء للشقاء :

على عميّم على عمـام رفرف يا طـير الحمام
على عميـّم يا عمـي ويا أختـي لا تنهمّـي
وأبـويـا دشّـر أمّي وأخويا سـافر عالشّام
وعلى عميـّم دلـّوني وعلى عمـي ودّونـي
ما عـاد دمـع بعيوني وما عـدت أعرف أنام

ان الكثير من الأغنيات الشعبية الشائعة في مناطق عديدة يصعب الجزم بمنطقة نشوئها الأولى ، ولا يمكن الاعتماد دائماً على كلمات الأغنية أو لحنها أو لهجتها لأنها عنـد انتقالها تخضع للمؤثرات البيئية الجديدة ، وتتعرض باستمرار للحذف والاضافة في مقاطعها .

---

١ ـ صوت الفرات : عبد القادر عياش .

شـعر البادية الغنائي :

البادية هي الموطن الأقدم للشعر وشعرها امتـداد في شكله وأغراضـه للشعر القـديم بالرغم مما أصاب لهجته مـن انحراف عـن الفصحى ، والبحث فيـه لا يفيد في معرفتـه فحسب وانما في تصور معرفي لحـالة الشعر القديم في عهوده الأولى وضمن مناخات فكرية واجتماعية وبيئية مماثلة ، فقد بقيت البادية على مر العهود جزيرة شبه منعزلة عن التأثيرات الثقافية والاجتماعية التي تعرضت لها الحواضر وطورت لغتها التعبيرية الشعرية والغنائية ·

ما زال الشعر البدوي ، كما نشأة الشعر الأولى ، شعراً مغنى ، يلقى منغوماً بمصاحبة الرباب على الأغلب ، أو ترافقه آلات آخرى كالطبل ، او التصفيق بالأيدي ، ومثلما تختلف آنغامه باختلاف نوع الشعر فانه تتعدد أبحره الشعرية وأوزانه حتى تتجاوز الخليليات الى أوزان يصعب حصـرها ، وتبقى النغمـة هي الضابط الحقيقي للوزن ·

ومثلما كانت لهجـة قريش قديمـا هي اللغة الفنية الموحدة للشعر ينظم بها الشعراء على اختلاف قبائلهـم ولهجاتهم ، فان للبـدو اليوم لغة أدبية واحدة هي لغة الشعر ينظمون بها أشعارهم على اختلاف لهجاتهم وقبائلهم ، وقـد غزت هذه اللغة الفنية شعراء الأرياف والمدن الذين ينظمون المطاول والموال والعتابا ، وبالرغم من أن البدو فقـدوا الاعراب ومالوا الـى الكسـر والتنـوين وتخفيف الهمزة أو الغائها والتوسع في ابـدال الأحرف فان آثار الفصحى ما زالت في قصائدهم تظهر بين الحين والآخر في أبيات فصيحة تماماً ·

اننا لا نشك أن الخليل لم يقعـد جميع الأوزان الشعرية ، وقد حفظ لنا عصر التدوين بعض القصائد الخارجة عن الخليليات واعتبرها مضطربة الوزن وأغفـل القسم الأكبر وتركه للضيـاع ، نتساءل ألا يمكن للشعر البـدوي اليوم أن يقدم لنا فكرة ، ليس عن تلك الأوزان الضائعة فحسب ، وانما عن طريقة غنائها ، والشعر في لغـة العرب هو الغنـاء · ويرى شفيق الكماني أن الوزن في شعر البدو خاضع لمقاطع صوتية كما هي الحال في أوزان الشعر الغـربي ، ولهـذا جـاء على أوزان يصعب حصرها كما في الزجـل(٢) ·

وما يزال هذا الشعر البدوي الغنائي في حاجـة الى دراسات ميدانية واسعة لمعرفـة أنواعه وطرق أدائه ، وسنشير فيما يلي الى بعض أنواعه المشهورة ·

١ ـ القصيـد :

ويدعى في الجزيرة العربية باسم الديواني لأنه ينشد في ديوان الأمير ، والمسحوب لأنه تمـد حروفه عنـد الأداء ، والشاعر يدعـى بالقاصود · أما أغراضه فهي أغراض الشعر التقليدي من مديح وهجاء ورثاء وفخر وحماسة وغزل ونقائض ومراسلات · بعضه ينظم على الأوزان الخليليـة وبعضه ينظـم على أوزان آخرى لم يتم حصرها ، يقـول عبدالله خميس

---

٢ ـ الشعر عند البدو ص ١٥٧ ·

في كتابه الأديب الشعبي في جزيرة العرب عن أحد دواوين الشعر : « عمدت الى مجموعة واحدة لأحد شعراء البدو وهو ابن جعيثين وهو من المكثرين ممن يتلاعبون بأوزان هذا الشعر ويتفننون في ضروبه فوصلت الى ما يقارب العشرين وزناً ولمّا أقارب نهاية الديوان » ، وعادة ما يغنى القصيد في مجالس الأمراء بمصاحبة الرباب ، وللقصيد شعراؤه المشهورون بين القبائل، يقول مشعان بن هزّال من قصيدة له في الفخر :

حنّا شباة الحرب وان شبّت النار	وتفازعت بين الجموع المشاهير
وحنّا أهل الجمع السمي الى سار	مركاضنا يشبع به السبع والطير
ورفاقته واللي حذانا لهم جار	وحنّا عليهم نحمي الجار ونجير

٢ ـ السامري :

ينظم على الرمل ، وبه يسمر الساهرون ويغنون اشعار الجوى والحنين ، وتقتصر موضوعاته على الوجدانيات ، ويؤدى مع الرباب ، ويردد السمار مع الشاعر المغني بعض الأبيات ، وفي نجد يؤدي السامري فريقان يجثوان على الركب ويتبادلان الغناء شطراً فشطراً أو بيتاً فبيتاً . ومنه قول محسن الهزاني :

أشتكي لك من هوى نجل العيون	يوسفيات المها حمر الشفاه
سالبات للملا تلع الرقاب	خرّدات بالبيوت مخفرات
عنبريات الروايح بالكمال	في جمال قايمات قاعدات

وبدو النقب في فلسطين يطلقون لفظة السامر على اللعب ليلاً ، وقد اعتادوا أن يقيموا السامر بعد الانتهاء من الدحية آخر الليل ، والرجال المسنون هم عماد اللعب ، وهو كالدحية الا أنه أسهل في الحركات وأهدأ في اللعب، وغالباً ما ترقص أمام السامر امرأة مسنة ، وحركات الرقص فيه تحتاج الى خبرة ودقة واتقان . والمنشد في السامر يسمى الرزّاع ، وهو يلقن المجموعة القريبة منه شطراً بصوت مهموس فينشدونه بلحن خاص على ايقاع التصفيق البطيء ، ثم ينتقل الى المجموعة الثانية فيلقنهم فينشدون بنفس اللحن ، وهكذا يتناوبون الانشاد .

والرزع هو الوسيلة التي يعبر بها سكان النقب بالشعر المرتجل عما يجيش في صدورهم من أفكار ، ويشترك فيه الرجال والنساء والفتيات ، وقد أوشك هذا الأسلوب أن يختفي من الحياة العادية ، وبقي الرزع مقصوراً على السامر :

بلاد جاها المطر وبلاد ما جاها
وبلاد جاها كحيل العين وأرواها

العنق عنق الغزال ال مرتعه في الروض
حبك سقط في ضميري خاض قلبي خوض

يا زين يا حلو وبلادك نوينـاهـا
صمنا عن الزاد والقربة طويناها
سلم بعينك وخلّي يـدك بحناها
ياللي سلامـك يرد الروح مجراها

٣ ـ الحـداء :

وهو أقـدم أنواع الشعر ، ينظـم على الرجز تاماً ومجزوءاً، أغلبه في الفخر والحماسة لأنـه ملازم للمعـارك ، وينشد على ظهـور الخيل • وهو مقطوعات متتابعة يحـدو بهـا الفارس ، كل مقطوعة مؤلفة من بيتين ، ومن المألوف أن يذكر الشاعر محبوبته وهو يحدو على ظهر الحصـان في خضم المعركـة ، أو في الطريق اليها ، أو عائداً منها مفتخراً بالنصر على أعدائه وبحسن بلائه في الحرب •

والحداء منتشر في جميع البيادي والصحارى وفي نقب فلسطين ، ونظراً لسهولة النظم فيه فانه مـن أهم الأشكال الشعرية وأكثرها انتشاراً ، يعبر بـه البـدوي عـن عواطفـه وانفعالاتـه • وفي فلسطين يسمى التحداية وتكون بشكل ديالوغ يتقابل فيه مغنيان أمام صفين متقابلين مـن الدبيكة الذين يرقصون ويصفقون بالأيدي ويرددون اللازمة « يا حلالي يا مالي » أو بشكل آخر حيث يجلس الرجال في فسحة الدار على مقاعد متقابلة •

يا رب مـن عندك نصـر   اقهر جيوش اللي كفـر
حـتى يجينـا المنتظـر   مـن عنده بالنصر المبـين

يا حـلالي يا مالي

وهـذا شكل آخر من الحداء منتشر في البـاديـة :

بنت الشـرابـي صيّحت   شفت جـديـد ثيـابهـا
والدقـّة الصارت عليـه   تسوى الجزيرة وما بهـا

وفي العراق لون مـن الحداء ينظم على بحر البسيط رباعيات ، الأشطر الثلاثة الأولى متحدة القافية والرابع بقافية أخرى •

٤ ـ الهجينـي :

وقـد سمي بذلك لأنه ينشد على ظهور الهجـن ، وعلى صوت الغناء تجتمع الابـل المتفرقة وتتلامس أعناقها وتسرع في سيرها ،أوزانه متعـددة تتجاوز الخليليات وتخضـع لابتكارات الشاعر ، وأغراضه تتناول موضوعات الحب والفخر ووصف المعارك :

القلب ورّد على دبلـــه | مار البلا ان كان تنحـاني
ما هي خفيفـة ولا خبلة | يا ليتهـا عقب عمـانـي
مبسم الترف بـه قبلـه | وانا ماجيتـه ولا جـاني
ونهيـدها يوم تقرب لـه | لون الزبيـدي بريضاني

٥ ـ النبطـي :

ويدعى أيضاً بالركباني ، وينظم علىأبحـر متعددة أهمها البسيط وتقفى صدوره بقافيـة واعجازه بقافيـة أخرى ولا تختلفأغراضه عـن أغراض الشعر القديم ، وبـه يتخاطب الأمراء ، وقد حظي بالاهتمام الكبير،فأفردت له الصفحات في صحفودوريات الخليج. يقول محمد بن راشد المكتوم مـن قصيدة له :

دموع العين سفـّاحة كما جاري من الوديان | مـن العينين منثورة عـن الدمـع يطفيهـا
شكا لك من هو أسبابه تنايت دونه البنيان | فلا الشكوى على الشاجي حكمها نفسقاضيها

وتمارس النساء نظم هذا الشعر ، وبه يبثثن لواعجالحب والشجن كقول فتاة الشارقة:

آنــوح وأهــل عبراتــي | وجفني محارب لذة النوم
يا مالك احساسي وذاتي | أرجوك لا طول ولا تشوم
روحي وروحك يا غناتي | يتزاورن في طيف الحلــوم
وان كان يرضيكم مماتي | روحي فداكم وأنتم سلوم

٦ ـ الحـوارب :

وهو لون منألوان الحداء لكنه ينظم علىقاعـدة النبطي ويختص بموضـوع الغــزو والحروب ، وبانشاده يزداد المقـاتل اقـداماوشجاعة ، فهـو بمثابة طبـول الحرب يشد عزائم الرجـال :

حنـّـا عمامك لو رحلنـه | يا جرد مـن ننزل عليـه
بحــرابنـا يامـا طعنـّه | وكم فارس صلنـا عليـه
برواحنا نفـدي وطنـّه | سعيد يـل نرضى عليـه

٧ ـ الـدحـّة :

وهي رقصة ترافقها أغان خاصة مؤلفـةمـن رباعيات ، الأشطر الثلاثة الأولى منهـا متحدة القافية ، والشطر الرابع بقافية أخرىعليها تبنى باقي القوافي ، اشتهرت بها قبيلتا شـمـر وعنزة ، ويشترك في الرقص البنـاتوالشباب في حلقة تتوسطها امرأة حسناء حاسرة

بيدها سيف تلوح به وتغني ، وبعد كل بيت تردد : دح دح ، ويردد الجميع قولها ، وبها سميت الدحة ، ولعلها لغة مأخوذة من دح البيت في الثرى : وسّعه ، كأن حلقة الرقص بمثابة البيت يوسعونه ، أو أنها من الدّحوح : وهي المرأة العظيمة ، وهذا يؤكده توسط المرأة الحسناء العظيمة حلبة الرقص بسيفها المشرع ، أما دح دح فهي لغة كلمة تقال للمقر اذا تكلم : بمعنى اسكت فقد أقررت ، والدّح في لغة الأطفال كل شيء جميل يغري الطفل باللعب به أو امتلاكه .

ومن لطيف عاداتهم أن البنت لا تنهض الى الرقص الا اذا أعطاها الشاب ثمنها ، وثمنها هو بضعة أبيات غزلية مرتجلة من الشعر ، كهذه الأبيات :

يا أم الثماني العذاب
خمّي حياة الشباب
قبل غثيث التراب
يجبر عليكي وهلي
يا أم الثماني الرهاف
لا بد لك من قبر واف
عنك الضعاين مجافي
عنك الضعاين مجافي
بس أنت بأرض الخلي(٣)

والدحة عند بدو فلسطين في النقب يطلق عليها : الدحية والسهجة والسحجة ، وفيها يرددون لفظة دحّي بويّ ، وهي عندهم فرجة بمثابة المسرح في المدينة ، ويحق لكل فرد أن يكون متفرجاً أو لاعباً ، وتقام في مناسبات عديدة كالختان والأعراس والأعياد وعودة الغائب والسجين والحاج .

يتوافد الناس بعيد الغروب على بيت المفرّح ، يتبعهم الأطفال ، تنطلق الزغاريد ، يصطف الأطفال ويصفقون وترقص أمامهم الفتيات الصغيرات ، ثم يتقاطر الرجال فيترك الأطفال ساحة اللعب لهم ، فيشكلون هلالاً مقابل النساء الجالسات ويرددون لفظة دحّي بويّ ترديداً مستمراً مع التصفيق الحار ويهزون رؤوسهم وأجسامهم بانتظام ، ويتحركون الى الأمام والوراء بخطى متناسقة وهم في لباسهم التقليدي ، فتنبري لهم امرأة ترتدي ثوباً طويلاً أسود ، مقنعة لا يظهر من وجهها غير عينيها ، بيدها سيف أو عصا ، ترقص على الايقاع ، والرجال يتقافزون أمامها وهم يطلقون الصرخات الحماسية وهي تحاكي تحركاتهم بحذر ، وتهدد بالسيف من يحاول أن يمسها ، واللاعبون يتبارون في الاقتراب منها واخافتها ، وعندما يبل التعب أوجه اللاعبين يحضر الشاعر ، ويسمونه

---

٣ ـ الأشعار الشعبية اللبنانية ص ٩٣ ـ ٩٤ .

البديع ، وربما يكون واقفاً معهم في البدء ،وينشد على الايقاع ، وعادة ما يبدأ بمدح المفرّح مشيداً بكرمه وسعة بيته :

يا بيت المفرّح والراية تذعذع فوقيّـة
يا بيت المفرّح متـل السـرايا المبنيـة

راعية الحفل : أنا داخل ع كبيرة البوشي ·
الراقصـــة : تجيب حويشي الدّحيـة ·
راعية الحفل : وان ما جـابت الحـاشي
الراقصـــة : غلطـة لسـانـي رديـّة ·
راعية الحفل : أنا بديـع وأبوي بديـع ·
الراقصـــة : وأمي رقـّاصـة نشمية ·
راعية الحفل : والحق ع باقي الطاقيـة ·

والرقص أمام الدّحية ليس عملاً مخجلاً ، وقد ترقص ابنة شيخ القبيلة أو زوجته ، واللعب يستمر حـتى مطلع الصبح · ومع أن الدحية مـن أمتـع العروض بالنسبة لسكان البادية الا أنها قد تنتهي بمأساة نتيجة تعرض أحدهم لفتاة أو بسبب مهاجاة بين شاعرين ، ولكل منهما قومـه وأشياعه ، والبـدو عموماً يخشون الملاعب ويحسبون لهـا ألف حسـاب ويقولون : انها تلم الحافي والمنتعل ، ويقولون في التمييز بـين السامر والدّحيـة : السامر للناس العقـّال ، والدّحية للفلاتية ، أي للناس الذين لا يلتزمون بالتقاليـد والعـادات ولا يخجلون من السفاهـة ·

٨ ـ الشـروقي :

نوع من القصيد ينظم على قاعدة النبطي تقفى صدوره وأعجازه بقافيتين مختلفتـين ، لحنـه حزين فيـه عمق وتأثـير ، يغلب على موضوعه ارتحال الأحبة ، قيل في سبب تسميته أن فتى أحب فتاة ، ثم ارتحلت مع أهلها شرقاً فراح يبكيها بهذا اللون من الشعر والغناء ، ولغة اشرورقت العين بالدمع : غرقت واحمرت ، والشروقي : صاحب العينين الدامعتين · وقد شاع غناؤه في ضواحي المـدن والأرياف حيث يحـل البـدو المقيمون ونصف الرحـّل ومـن المولعين بنظمه الشاعر الشعبي اللبناني أنطوان عكاري صاحب كتاب الأشعار الشعبية اللبنانية ومن جميل قوله :

يللي خـدودا ورد وعيـونهـا حلويـن   **شفتا بفجر الوعـد ع جنـاح عصفورة**
وقصة زمان الهوى بقيت شي خمس سنين   **معهـا بحروف القلـق عالسّر محفورة**
قطفنـا عبـير اللقـا لحظات مسكوبـين   **بيكاس صدفـة وسحر وخدود معصورة**

تجمع حـدود الدني بيفيّـة الشربـين	تا نضيـع لمعـة أمـل بعيـون مسحورة
واللي يخبّي الخبر عـن ضجة الجايـين	سـجاد زهـّـر حـكي بأسـرار مستورة
يقلـد جدايـل دهب عالصدر مرخيـين	ويترك حبـال العطر عالأرض مشرورة

ومن الواضح أن انتقال الشروقي الى أرياف المدن وضواحيها ، شأن الألوان الشعرية الشعبية الغنائية الأخرى ، قـد طبعه بطابـع البيئـة الجديـدة ٠

٩ ــ الحماشي :

يقال حَمَّشه : أخضبه وهيجه ، والحماشي مـن الشعر ما يثير الغضب والهياج ، أي الصراع ، انه لون من الشعر الشعبي الغنائي يأخذ طابع الحوار الساخن بـين فـتى وفتاة ، يتألف مـن ثلاثيـات ، الشطر الأول والثاني متحدا القافيـة ، وقافية الثالث تبنى عليهـا الحوارية ويلتزم بهـا المتساجلان ، تغلب على موضوعاته العشق والصدود والوصف الحسي للمرأة ، ويعتبر الحماشي « كالدحـة » مـن ظواهر المسرح البدوي الاحتفالي والاستعراضي الغنائي البسيط والملائم للبيئـة الصحراوية وأحوال التنقل والارتحال ، يشبه الكوميديا المرتجلـة ، ويتطلب قـدرة فائقـة في الأداء وارتجال الشعر ، وفي تغريبة بني هلال حواريات مماثلة مما يدل على قـدم هذا اللون الغنائي الذي يرضي حب البدوي الى التشخيص على منصـة البـادية :

الفتاة :	يا راعي الذَّود	اقهـر ذودك	أشوف اليوم تناحيني
الفـتى :	شفت نهودك	تحت عضودك	غـدا قلبـي قطعيني
الفتاة :	أنـا جبـّـارة	بأرض قفـارة	حس الرعيان مجزيني
الفـتى :	أنـا حُرك	مذكور لـك	مدعوج العين بلا نيلي
الفتاة :	أنـا حيّـة	تحت صفيـة	يقتلك السم ما تجيني
الفـتى :	أنـا القرءاي	ابن القرءاي	اقهر سمّك ما يسيني(٤)

١٠ــ القص الشعري الشعبي الغنائي :

الحيـاة في البادية وما فيها مـن قصص الحب والغزو والترحـال والمغامرات الفردية مصدر غني للقصص الشعري المغنى ، وفي كتب السير الشعبيـة ، وبخاصة سـيرة بني هـلال نموذجات كثـيرة ، وكان لمشاركة القبائـل في الحركات الوطنيـة ضـد الاستعمار الدور في نشوء قصص جديدة انتشرت أشعارها وغناها المغنون بمرافقة الربابة في المجالس ٠

لم ترقَ أية من هذه القصائد الى مستوى الملحمة ، لكنهـا تفوقت في شكلها ومضامينها وسيرورتهـا على القصـة الشعرية المكتوبة بالفصحى ، وكانت المعبرة عـن جوانب مـن الحياة العربية في أفراحها وأتراحها ، وعـن نفسية العربي البدوي التي تبدو كضفيرة من الحب والحرب والافتتان بالطبيعة ٠

---

٤ ــ الشعر عند البدو ص ١٠٤ ٠

تسيطر في هذه القصص أجواء الحب والبطولة والمأساة ، وفي قصص المراثي يستفيض الشاعر المغني في وصف محبوبته مقدماً المبرر العاطفي لشدة أحزانه ، وقد يخلع جزءاً من أحزانه على فرسه ، فيصفه بأنه عاف الطعام وشرد في البراري حزناً على الفقيد ..

من أكثر هذه القصص شهرة وانتشاراً قصة حيزية في الجزائر(٥) ، وهي تحكي قصة حب بين شاب وفتاة اسمها حيزية ، وبعد مصاعب مرًا بها تزوجا ، ثم ذهبا للعمل في القطاف ، وفي طريق العودة مرضت حيزية وتوفيت ، وراح زوجها يبكيها بأعذب الشعر ، وقد نظم الشاعر الشعبي محمد بن قيطون قصيدة شعبية في هذه القصة عام ١٨٧٨ م تقع في ١٢٨ بيتاً يغنيها المغنون الى اليوم ، وفيها يقول :

عزّوني يا ملاح في رايس البنات … سكنت تحت اللحود ناري مقديتا
ياخي أنا ضرير بيًا ما بيا … قلبي سافر مع الضامر حيزيتا

ويصف محبوبته قائلاً :

خدك ورد الصباح وقرنفل وضّاح … الدم عليه ساح متل الضوايتا
الفم متل عاج والمضحك لعَّاج … ريقك سي النعاج عسل الشهايا

ثم يصف كيف واروها الثرى ، ويستحلف حفار القبور ألاّ يطيح بالصخور والتراب على قبر محبوبته :

آحفار القبور سايس ريم القور … لا تطيح شي الصخور على حيزيتا
قسّمتك بالكتاب وحروف الوهّاب … لا تطيح التراب فوق أم مرايا

ويقول ان ما يهيج حزنه على حيزية حصانه الأزرق الذي اشتدت به الأحزان على حيزية فانصرف عنه هائماً في التلول ثم مات بعد ثلاثين يوماً :

هلكني يا ملاح الأزرق كي يتلاح … بعد أختي زاد وراح وانصرف عليا
توفي ذا الجواد ولّى في الوهاد … بعد أختي ما زاد يحيا في الدنيا

والأزرق أيضاً حصان البطل الشعبي محمد الملحم من بادية حمص ، أحب فتاة اسمها نوف ولم يرض أبوها أن يزوجه اياها فاختطفها ليلة عرسها ، .

يقول المثل الشعبي : البدوي بياخد تاره ولو بعد أربعين سنة ، وقد شب ابن محمد الملحم وأعطته أمه سلاح أبيه وقصة مأساته فثار من جده الخائن .

---

٥ ـ رغم ان هذه القصة غير معروفة في البادية الشامية فقد آثرنا ذكرها لما فيها من تشابه مع قصة نمر ووضحا ، وادلالا على وحدة الملحمة الشعرية الشعبية الغنائية في البوادي العربية ، وكان للهلاليين الذين عبروا الى شمال افريقيا دور في ارسائها .

ومن قصص البادية قصة نمر بن عدوان ومراثيه في زوجته وضحا ، وهي معروفة في بادية الأردن ، وتشبه في مأساويتها قصة حيزية، فهو تارة يصفها محمولة الى قبرها على جمل فيوصي زارع البستان بها :

يا زارع البستان هنا منيتي	دونك على مجرى عيوني ازرع
ازرع لنا مرا ودفلى وحنظل	حتى دوم أذوقه وأشرب وأجرع

وتارة يختلط فيتوهم أنها حيّة ، ويسأل عنها فيترفقون به ويقولون انها في زيارة الى أهلها ، ومما يهيج في أحزانه أنها تركت لهطفلا اسمه عقاب :

البارحة يا عقاب حين القمر غاب	وحين الثريا كوكبت عالمغيب
جيت الأهل لن الاهل غياب	بس الفرس بالبيت ويّه العبيد
سايلتهم عن صاحبي وين غاب	قالوا استمع يا نمر ما هو بعيد
زاير هله يا عقاب ساعة غياب	هالحين يلفي والمحبة تزيد

ومن هذه القصص قصة الفتاة والعبد الذي خان أسياده وراودها عن نفسها فتمنعت وضربته فهرب والتجأ الى أمير احدى القبائل وزين له الاغارة على قبيلة أسياده، وفي المعركة قتل أبناء عمها الثمانية وسبيت الفتاة، وعندما علمت أنها ستزف الى العبد غنت الأمير قصيدة شرحت فيها خيانة العبد فأمر الأمير باعدامه :

ما لوم عيني لو بكت لي بطيحة	وما لوم الاخرى لو حدر دمعها دم
على عيال عمي هالوجوه المليحة	يوم يقعدوا بالديوان هرجهم تم
يا عبد يا زربول سويت قبيحة	واليوم يا عبد الخنا صايبك هم
وتريد من الزينات بيضا ومليحة	تلبس مقاويس الذهب وأنت تشتم

عندما تنتقل هذه القصائد القصصية المغناة الى المدينة فانها تفقد العنصر لتغير طبيعة الفرجة والاستماع ، ولا يبقى من الأصل الا اشارات غامضة تبنى عليها أغنية شعبية جديدة لها مضامينها وصورها ولغتها الفولكلورية الخاصة ، مثال ذلك قصة الفتى مشعل العاشق الذي هرب من دوريات التجنيد أيام حرب السفربرلك وتوارى عن الأنظار ، ثم ما لبث أن ألقي عليه القبض ، وحاول أن يرشو العسكري التركي فخسر المجيدي وخسر حريته:

ع الأوف مشعل	أوف مشعلاني
ما ني تبليته	هو اللي تبلاني

★ ★ ★

أنـا شفت القـانـون　　جـاي مـن بعيـد
وحبيـت أهـرب　　مـا طلـع في ايـدي
قـال لـي الوثيقـة　　ناولتـه مجيـدي
لطـش المجيـدي　　وقـال لي انت فراري(٦)

هـذه الأغنية يغنيها الحلبيون ، ولم يبق مـن كلماتها القديمة غير كلمتين : الأوف ومشعل وأصاب التغيير كلمات اللازمة ، ونظم المغنون مقاطع جديدة لها ترضي أذواق الجمهور الجديد وغابت القصة الأصلية تماماً :

ع الأوف مشـعـل　　دينـي مشـعلانـي
أهـلاً وسـهـلا　　بحبـابي وخـلانـي

وثمة رواية ـ لعلها الأصل ـ متأثرة بقصة النبي يوسف الصديق تجعل مـن مشعل فتىً جميلاً تراوده الفتيات عن نفسه وتدعين أنه هو الذي راودهن :

ع الأوف مشـعـل　　أوف مشـعلانـي
مـانـي محاكيتـه　　هـو اللـي تبلانـي
مشـعل يـا روحـي　　يا مداوي لي جروحي
لآخـدك وروحـي　　لبـلاد اليمـانـي

ومن قصص البادية الشهيرة قصة وضحا وحمـد ، ذلك أن والد وضحا التجأ الى قبيلة أبي الغارات بعـد أن هلكت قبيلته ، فأكـرم ضيافتـه ووافق رداً للجميل على أن يزوجه ابنته ، ولكن وضحا رفضت ، ويظهر العاشق حمد القادم من بعيد وهو سيد في قبيلته ولكنه يرضى أن يعمل خادماً عند أبي الغارات ليكون قريباً مـن محبوبته ، وذات يوم يدافـع عـن القبيلة والرجال غائبون ، فتزداد وضحا بـه اعجـاباً ، وعندما يعود أبو الغارات وهو ابن الستين ليتزوج مـن وضحا يتصدى له حمـد القادم مـع رجاله ويقتله في مبارزة شديدة ، ويظفر العاشق بحبيبتـه ٠

ويلذ لأهـل البادية أن يستمعوا الى المغني وهو يقطع هـدوء الليـل بالعزف على الربابة وانشاد هذه القصة الشعبية :

وضحا الحزينة تنادي ربهـا يا معـين　　تفرج همومي ومن الكربات اجليهـا
حكمك قدر يا معتلي العرش والدين　　تلهـم حمـد ييجي لوضحـا ينجيهـا
أبوهـا فكّـر يزفهـا لابن الستـين　　وبعدها صبيـة ولون الورد غاويهـا

---

٦ ـ صور من الأدب الشعبي الفلسطيني ص ٧٦ ٠

وفي هذه القصة الشعبية من الحوارات المسرحية بين وضحا وحمد وأبيها وأبي الغارات وصوت المجموعة ، ومن امكانيات التشخيص الذي يقوم به الراوي المغني عازف الربابة ، ما يجعلها نموذجاً للمونودراما البدوية :

وضحا :

وحق من خلق الانسان من طين … لازم عهودي لأبو العجات أوفيها
بجيته حمانا وخلص قومنا وبنين … من تحت مسموم أبتر الشفر ماضيها

الأب :

« قال لها أبوها » يا وضحا ايش تعنين … غامض كلامك وما فهمنا معانيها

وضحا :

« قالت » يا بوي من يوم رحت تغزين … جتنا فوارس غزون الحي وال فيها
ولولا حمد ما يجيرنا سلطان عفرين … وكنا سبايا ، صغار الحي تبكيها

الأب :

« جاوب أبوها » حمد صعلوك عفنين … من قوم أنجاس ما نعرف مواليها
أعطيت قولي وأنت غصب ترضين … بعرف حلالك ، أبو الغارات يسميها

وضحا :

« قالت » نصيبي حمد من نسل جدين … مكحول الطرفين نسله من أعاليها
أبوه أمير الشرف للجار يحمين … لو كان حوله ضيوف كالنجم يقريها

أبو الغارات :

«انتصب أبو الغارات» وقال لها: ليش تهزين … وأنا الأسود بهجم على مخابيها
يللي بلحظك جراح القلب تكوين … كرمال غنجات مرار الصبر حليها

وضحا :

اذا الجبال تميل والصخر يبلين … من طرف جعدي شعرة ما بتحظيها
ويقوم نوح النبي ويعوم بسفين … وموسى يناجي ربه من الأقلام باريها
ولو قلب وضحا انفلق برصاص مرتين … ما تحيد عنه الذي أوفى زماميها

★ ★ ★

٧ ـ صور من الأدب الشعبي الفلسطيني ص ١٤٧ .

ديوان ابن أحمر

ومصادر شعره

محمد محيي الدين مينو

١ ـ الديوان :

إن أرزاء الدهر ومصائبه أتت على جلّ تراثنا العربي ، فلم ينته الينا مما قالت العرب الا أقله . وديوان ابن أحمر(١) غيض من فيض ، ما يزال في ذمّة التاريخ، تضن به يد الزمان. وقد طلبت ذلك السِّفر من ديوان العرب في فهارس كثير من مكتبات الشرق والغرب ، فما وقفت له على أثر ، ولكننا نجد في كتب اللغة والتراجم والأدب اشارات اليه ، تأخذ بالظهور من أوائل القرن الثالث الى أواخر القرن الثاني عشر الهجري. واذا كانت هذه الاشارات لا تسفرعمن صنع ديوان ابن أحمر ، فان في أقدم اشارة ترقى الى العقد الأول على الأقل من القرن الثالث دلالة مهمة على أن ثمة عالماً من العلماء والرواة الأوائل قد عَمِله في جملة ما عُمل من دواوين الشعر العربي في مطلع ذلك القرن ، ومن العلماء الذين عملوا الأشعار : أبو عمرو الشّيباني (٢٠٦ هـ) والأصمعي(٢١٧ هـ) وابن الأعرابي (٢٣١ هـ) وابن السكّيت (٢٤٤ هـ) وسواهم(٢) .

ويبدو أن ديوان ابن أحمر كان معروفاً لدى عدد من المصنفين خلال قرون متعاقبة ، وكان المرتضى الزبيدي (١٢٠٥ هـ) ، صاحب شرح القاموس ، آخر من اطلع عليه ، ثم فُقِد بعد ذلك ، فلم نقف له على نسخة مخطوطة منه ، نأمل أن تجود بها يد الزمان ، لتكون الفيصل في دراسة ابن أحمر .

وفي الاشارات التي وجدنا يأخذ مصطلحا (ديوان) و (شعر) معنىً واحداً ، لأن المصادر القديمة في أغلب الأحيان لم تكن لتميز بينهما تمييزاً دقيقاً . وأقدم هذه الاشارات ما رواه أبو أحمد العسكري (٣٨٢ هـ) بسنده ، فقال في مجلس : « أخبرني محمد بن يحيى ، أخبرنا

أبو ذكوان ، حدثنا موسى بن سعيد بن سَلم قال : كان ابن الأعرابي يؤدبنا ، فدخل الأصمعي ، ونحن نقرأ شعر ابن أحمر :

أغدَوا واعَدَ الحيُّ الزِّيالا ... لوجه لا يريد به بِدالا

الى آن بلغنا الى قوله :

أرى ذا شيبة حمّال ثقل ... وأبيض مثل صدر السيف نالا

فقال الأصمعي : « بالا » ، فصاح ابن الأعرابي : « نالا ، نالا » بالنون من النوال ، فقال الأصمعي لنا : ان الشاعر قد فرغ من هذا ، فقال : فيهم شيخ حمّال ثقل ، وهو الذي يُنيل ، ويعطي ، وفيهم شاب مثل صدر السيف بالاً ، أي : حالاً ، وهو كالسيف في حاله وبأسه(٣) ، وأضاف العسكري في المجلس ذاته : « فحدثني يموت بن المزرّع عن أبي أمامة الباهلي ، وحضر المجلس ، أن ابن الأعرابي افتَضَح بهذا ، ثم احتال ، فأحضر نسخة فيها شعر عمرو بن أحمر ، وقد غيّر البيت الأول منها : فجعله :

أغدَوا واعَدَ الحيُّ الزِّيالا ... وشوقاً لا يبالي العَين بالا

ثم قال : معنى الأصمعي صحيح ، ولكن كيف يردد ابن أحمر قافيتين في قصيدة ، فزادت فضيحتهم لضعف المصراع الذي غيروه واحالة معناه »(٤) . وفي الخبر الأول اشارة واضحة الى أن ثمة كتاباً ، يقرأ في ذلك المجلس ، وأما الخبر الثاني ، فهو يدل دلالة صريحة على نسخة لابن الأعرابي من ديوان ابن أحمر .

ويبدو أن أبا أحمد العسكري نفسه قد قرأ شعر ابن أحمر على أبي بكر بن دريد (٣٢١ هـ) ، ويدل على ذلك قوله : « قرأت عليه في شعر ابن أحمر :

حتى اذا ذرَّ قرن الشمس صبّحها ... أضري ابن قُرّانَ باتَ الوحشَ والعزبا »(٥)

واذا كان بروكلمان يذهب الى أن جمهرة أشعار العرب « جمعت في أواخر المائة الثالثة للهجرة » ، ثم « تم تأليفها في ملتقى القرنين الثالث والرابع للهجرة »(٦) ، فاننا نرى أن جامعها أبا زيد محمد بن أبي الخطاب القرشي الذي ليس له أدنى ذكر في جميع كتب الطبقات والرجال ، قد يكون اطلع في تلك الحقبة من الزمن على ديوان ابن أحمر ، وأخذ منه قصيدة رائية ، جعلها في (مَشوبات العرب) من جمهرته التي اختارها « غرراً هي العيون من أشعارهم وزمام ديوانهم »(٧) .

وفي القرن الرابع الهجري نجد ابن جنّي (٣٩٢ هـ) ينظر في ديوان ابن أحمر ، فهو يروي ما أنشده أبو زيد :

كأنها بنقا العزّاف طاوية ... لما انطوى بطنها واخروّط السفرُ

ماريّةٌ لؤلؤانُ اللون أوّدها ... طَلٌ وبَنّس عنها فرقدٌ خَصِرُ

ثم يقـول : « ولم يسند أبو زيد هذين البيتين الى ابن أحمر ، ولا هما أيضا في ديوانه »(٨) .

وفي القرن الخامس الهجري يتثبت أبو عبيد البكري الاندلسي (٤٨٧ هـ) من رواية بيت في شعره الذي حمله أبو علي القالي(٣٥٦) الى الأندلس ، ويقول : « قال ابن أحمر :

تتبَّعُ أوضاحاً بسرّةِ يَذْبُلٍ وترعى هشيماً من حُليمةَ باليا

هكذا ثبتت روايته عن أبي علي في شعر ابن أحمر »(٩) .

وفي أواخر القرن ذاته كان شعره بين يدي الخطيب التبريزي (٥٠٢ هـ) حين هذّب كتاب الألفاظ لابن السكّيت ، وروى ما أنشده لابن أحمر :

« لَبٌ بأرضٍ لا تَخَطّاها الحُمُرُ » ثم قال: « وفي شعره: لا تَخَطّاها الغَنَمْ »(١٠) .

وفي القرن السادس الهجري نجد عدة اشارات الى الديوان لدى البَطَلْيَوسي (٥٢١ هـ) وابن الشجري (٥٤٢ هـ) وابن خير (٥٧٥ هـ) وابن برّي (٥٩٢ هـ) . فالبطليوسي في الاقتضاب روى ما أنشده ابن قتيبة في أدب الكاتب :

تُسائل بابنِ أحمرَ من رآهُ أعارَتْ عينُهُ أم لم تعارا

ثم قال : « البيت لعمرو بن أحمر ، ووقع في شعر ابن أحمر :

ورُبَّتَ سائلٍ عنّي حَفِيٍّ

وهو الصحيح ، لأنه ليس قبل هذا البيت مذكور، يعود اليه الضمير من قوله : تُسائلُ، ولعل الذي ذكر ابن قتيبة رواية ثانية مخالفة للرواية التي وقعت الينا من هذا الشعر »(١١) .

وابن الشجري في الأمالي روى هذا البيت:

على حَيَّيْنِ في عامينِ شتّا فقَلَّ غَناؤنا بهما وطالا

ثم قال : « ولا يجوز أن تكتب (شتّا) ها هنا بالياء كالتي في قوله تعالى : « وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى »(١٢) ، لأن ألف شتّا في البيت ضمير ، وشتى في الآية اسم على فَعْلى جمع شتيت كَقَتِيل وقتلى . وانما ذكرت هذا لأني وجدته في نسخة بالياء »(١٣) .

وابن خير الاشبيلي في الفهرست يطالعنا بنص جدّ ثمين ، يبين أن ديوان ابن أحمر وصل اليه بسندين مختلفين ، مصدرهما معاً أبو علي القالي (٣٥٦ هـ) الذي حمل ديوان ابن أحمر الى الأندلس فيما حمله من دواوين العرب(١٤) ، فيقول : « شعر عمرو بن أحمر الباهلي ، حدثني به الوزير أبو عبدالله جعفر بن محمد بن مكي رحمه الله ، عن الوزير أبي مروان عبدالملك بن سراج عن أبي سهل الحراني، وحدثني به أيضاً الشيخ أبو بكر محمد بن عبدالغني بن فندلة ، رحمه الله ، عن الأستاذ أبي الحجاج يوسف بن سليمان الأعلم عن أبي

سهل يونس بن أحمد الحراني المذكور عن أبي عمر بن أبي الحباب عن أبي علي البغدادي، قال: قرأته على أبي بكر بن دريد عن أبي حاتم الأصمعي، رحمه الله، وحدثني به أيضاً الشيخ الحسن أبو بكر محمد بن أحمد، رضي الله عنه، مناولة منه لي في أصل أبي الوليد ملك بن عبدالله العتبي الذي بخط يده قال: حدثني به أبو الوليد العتبي المذكور، رحمه الله، عن أبي مروان عبدالملك بن سراج، رحمه الله، بسنده المتقدم »(١٥).

وأما ابن بري، فيبدو أنه أفاد من ديوان ابن أحمر في حواشيه على صحاح الجوهري، وهي أحد مصادر لسان العرب وتاج العروس، وروى هذا الشطر:

أخِبُّ ذَلولاً أو عَروضاً أروضُها

ثم قال: « وهكذا روايته في شعره »(١٦).

وروى هذا الرجز:

أبي الذي أخنبَ رِجلَ ابن الصَّعِقْ   اذ كانت الخيلُ كعلياء العُنُقْ

ثم قال: « وقد وجدته في شعر ابن أحمر الباهلي »(١٧).

وروى ابن برّي أيضاً ما أنشده الجوهري لابن أحمر:

كالقرِ بَيْنَ قوادمٍ زُعْرِ

ثم قال: « هذا العجز مغير، وصواب انشاد البيت على ما روته الرواة في شعره:

حلقت بنو عزوان جُؤجُؤَهُ   والرأس غير قنازعٍ زعرِ »(١٨)

وفي القرن السابع الهجري كان الديوان بين يدي الصغاني (٦٥٠ هـ)، وهو يضع تكملة لصحاح الجوهري، وقد روى عنه العجز السابق نفسه، وقال: « لم أجده في ديوان ابن أحمر، ووجدت فيه بيتاً، وليس فيه حجّة على القرّ، وهو:

حلقت بنو عزوان جُؤجُؤَهُ   والرأس غير قنازعٍ زعرِ »(١٩)

وروى الصغاني أيضاً هذا البيت:

تطايحَ الطلُّ عن أردانها صُعُداً   كما تطايح عن ماموسةَ الشررُ

ثم قال: « والذي في شعره: عن أعطافها، وفي الماموسة »(٢٠).

وفي القرن الثامن الهجري نجد الحافظ مُغَلْطاي (٧٦٢ هـ) يأخذ منه أبياتاً في حاشيته على الروض الأنف للسهيلي، ويروي ما أنشده أبو القاسم لابن أحمر:

أنشأت أسأله عن حالِ رفقتهِ   فقال: حيٌّ فان الركبَ قد ذهبا

ثم يقول: « وفيه نظر من حيث أن الذي في ديوان ابن أحمر أن ذلك البيت بعد قوله: قالوا عيينا ... (الأبيات) »(٢١):

وفي القرن الحادي عشر الهجري يذكر صاحب كشف الظنون « ديوان ابن أحمر »(٢٢)، الا ان الحاج خليفة (١٠٦٧هـ) لا يضيف شيئاً الى عبارته هذه ، فلا نعلم من أمره شيئاً . وفي اواخر القرن ذاته يقف عبدالقادر البغدادي(١٠٩٣هـ) على عدة نسخ من ديوان ابن احمر، وهو ينظر في هذا البيت :

بتيهاءَ قفرٍ والمطيُّ كأنها قطا الحزن قد كانت فراخاً بيوضها

ثم يقول : « والتي في عامة نسخ شعره :أريهم سهيلاً والمطي كأنها / قطا الحزن الخ . قال شارحه : قوله : اريهم سهيلاً ، يعني اصحابه ، وان لم يجر له ذكر لدلالة الحال عليه، أي يريهم مطلعه »(٢٣)، ولعل في عبارته: « قال شارحه » اشارة الى أن ثمة من شرح شعر ابن أحمر ، الا أننا لا نقع على اسمه في أيٍّ من المصادر .

وفي القرن الثاني عشر الهجري نجد المرتضى الزبيدي (١٢٠٥ هـ) يروي ما أنشده الجوهري لابن أحمر :

ولا تقولن زهوٌ ما يخبرنا لم يترك الشيب لي زهواً ولا الكبَرْ

ثم يقول : « وفي ديوان ابن أحمر : ولا العَوَرْ »(٢٤) .

وبذلك يكون صاحب شرح القاموس آخر من اطلع عليه قبيل أن يصبح في ذمة التاريخ، وأما بعد هذه الحقبة من الزمن ، فليس ثمة دليل في أيدينا ، يؤيد بقاءه الى عهد معين ، لأننا لا نعلم متى فُقِدَ هذا الديوان .

وفي العصر الحديث جرت ثلاث محاولات لجمع شعر ابن أحمر، أولهما ما قام به الدكتور حسين عطوان سنة (١٩٧٠ م)(٢٥) ، وأطلق على ما جمعه اسم « شعر عمرو بن أحمر الباهلي » ، فحاز بذلك قصب السَّبق ، وكان له فضل المتقدم الرائد في اخراج هذا الشعر . والدكتور عطوان كابد في سبيله مشقة صعبة المسالك ، لم تخل من العثار ، فهو لا يميز بين رواية المتقدمين ورواية المتأخرين ، ليقع على الأقدم والأصح منها ، ولا يحفل بالروايات المختلفة في المصادر ، ولا يعنى البتة بالمسائل اللغوية في شعر ابن أحمر الذي أتى بأحرف لا تعرف في كلام العرب ، ولا يستوفي تخريج الشعر من مصادره ، ففاته بعض ما ورد فيها من أبيات ، والتبس عليه أحياناً شعر ابن أحمر بشعر من سمي باسمه أو بشعر غيره من الشعراء ، فهو مثلاً يجعل قصيدة لعطاء بن أحمر المَديني ومقطعة لبدر بن حمراء الضبِّي في الصحيح من شعر ابن أحمر الباهلي(٢٦) ، ويضع فيه أيضاً أبياتاً مشهورة لامرىء القيس والحطيئة وكثيِّر وكعب بن مالك ومزاحم والفرزدق وحميد وغيرهم(٢٧) . وربما حرّف بعض الأبيات عما جاءت عليه في أصولها ، ومن ذلك ما نقله عن المعاني الكبير ، فأورده على هذا النحو :

لمّا رأت عُرْباً هجائن وسطها مرجت وجالت في الصُّراخ الأبعدِ(٢٨)

مع أن رواية ابن قتيبة للبيت في المصدر نفسه(٢٩) تقول :

لمّا رأت عَرْباً هجائن وسطها مرحت وجالت في الصَّراح الأبعدِ

فصحَّف الدكتور عطوان « غرباً » بالغين المعجمة بـ «عُرُباً» بالعين المهملة ، «والصِّراح» بالحاء المهملة بـ « الصُّراخ » بالخاء المعجمة،فكان أبعد ما يكون عن معنى البيت الذي أراده الشاعر ، وشرحه ابن قتيبة ، فقال : « غرباً »:جاوز القدر ، ومنه يقال : استغرب فلان في الضحك• هجائن : بيض• يقول : لمَّا رأت بي شيباً كثيراً مرحت بشبابها ونشاطها ، وجالت في الصِّراح الأبعد »(٣٠) ، أي : في المواجهة التي جاوزت الحد •

ومثله ما نقله عن عيار الشعر والموشح ، فأورده على هذا النحو :

غادرني سهمه أعشى وغادره — سهم ابن أحمر يشكو الرأس والكبدا(٣١)

مع أن الرواية في هذين المصدرين : « سيف ابن أحمر »(٣٢) •

ومثله ما جاء به على هذا النحو :

كالثعلب الرائح الممطور ضبعته — شَلُّ الحوامل منه كيف ينبقعُ(٣٣)

مع أن أصل البيت في مصادره العديدة : « صِبغته شَلَّ »(٣٤) •

وأمثال هذا التصحيف والتحريف في هذه النشرة من شعر ابن أحمر كثير ، لا طائل الآن من تتبعه ، وكان الأولى أن تترك الأبيات على رواياتها في الأصول ، حتى يكشف الزمان عن نسخة مخطوطة من ديوانه ، لتكون الحكم الفصل في مثل ذلك •

وقد استدرك الأستاذ الدكتور رمضان عبد التواب على هذه النشرة بعض الأبيات التي عثر عليها لابن أحمر وبعض التصويبات والملاحظات الأخرى في مقالة ، نشرها بعنوان : « شعر عمرو بن أحمر الباهلي »(٣٥) ، ثم استدرك الأستاذ الدكتور رضوان محمد حسين النجار على النشرة ذاتها بيتاً وحيداً في مقالة، نشرها بعنوان « المستدرك على دواوين شعراء العرب المطبوعة »(٣٦) •

وبعد الدكتور حسين عطوان قام الأستاذ أحمد فاروق بالمحاولة الأخرى لجمع شعر ابن أحمر ، والأستاذ فاروق أشار الى ذلك في حاشيته على بيت ، رواه البطليوسي في الاسم والمسمى(٣٧) دون عزو ، وهو :

فلو كان في ليلى شذاً من خصومة — للويت أعناق الخصوم الملاويا

ثم قال : « البيت لابن أحمر في ديوانه الذي صنعته ، وحققته ، وأعددته للطبع ، وفيه أبيات أكثر من صنعة الدكتور حسين عطوان »(٣٨) ، وأغلب الظن أن هذه المحاولة الثانية لجمع شعر ابن أحمر لم يكتب لها أن تطبع ، وتنشر ، فظلت نشرة الدكتور عطوان الوحيدة التي طبعت ، وذاعت •

وأما المحاولة الثالثة ، فقد كانت من عملنا ، وكانت في قسمين اثنين : في الأول منها درست حياة ابن أحمر وشعره ، وفي الآخر أخرجت ديوانه جمعاً وشرحاً وتحقيقاً ما أمكنني الى ذلك من سبيل • وقد كان لي في منهج أستاذي الجليل الدكتور عبد الحفيظ السلطي

في صنعه شعر أمية بن أبي الصلت أسوة حسنة، فحاولت في وعثاء الطريق أن أقتفي خطاه ، وأقتدي بهداه . وهذا المنهج ميسر ومهذب ، يجعل ترتيب القصائد في الديوان على حروف المعجم ، ويصنف أبيات كل قصيدة على نحو يشعر بجمعها من مصادر متفرقة ، وينبه على ما بينها من انقطاع ، ثم يذكر المصدر الأقدم لكل رواية تثبت في المتن ، ويشير الى مصادر الروايات المخالفة في الحواشي . وقد ضبطت أبيات الديوان بدقة ، وشرحت الغامض من معانيها وحروفها ، وألحقت به ما روي لابن أحمر وليس له ، ووضعت لقصائده وملحقاته تخريجاً ، يفصل مصادر كل قصيدة ، ويعرض ما يتصل بها أحياناً من اختلاف في روايتها لابن أحمر أو سواه ، ثم صنعت للكتاب كله فهارس فنية كاملة ، تيسّر الفائدة منه . واني لآمل أن ترى هذه المحاولة النور ، فلا تبقى طي الاهمال والنسيان معاً .

٢ ـ رواية شعره :

رأينا في دراستنا ديوان ابن أحمر سندين متصلين لروايته، انتهى بهما ابن خير الاشبيلي الى أبي علي القالي (٣٥٦ هـ) الذي قرأ شعر ابن أحمر على أبي بكر بن دريد (٣٢١ هـ) عن أبي حاتم (٢٥٥ هـ) عن الأصمعي (٢١٧ هـ)(٣٩) . والمصادر لا تتيح لنا أن نقف على طرق رواية شعره في أبنائه وأسرته وقبيلته ، أو أن نتعرف بوضوح الطرق التي حملته ، ونقلته من القرن الأول الى عصر التدوين في القرن الثاني الهجري ، ولكننا نستطيع أن نطمئن الى أن هذا الشعر قد تهيأت له الطبقة الأولى من الرواة العلماء الذين أخذوا برواية أشعار المتأخرين من الشعراء قبل غيرهم من المتقدمين ، فلم يكونوا ليلتمسوا الفروع الا بعد احكام الاصول ، وكانت هذه سنّة العلماء في الرواية والعلم معاً ، وحسبنا أن الجاحظ أشار الى ذلك ، فقال : « ان بعض من كلف برواية الأشعار بدأ برواية أشعار هُذَيل قبل رواية شعر عباس بن الأحنف ، ورواية شعر ابن أحمر قبل رواية شعر أبي نواس »(٤٠) .

ولعل شعر ابن أحمر قد دوّن قبيل الأصمعي وطبقته من الرواة ، أو لعله دوّن في حياتهم فقد رأينا في دراستنا ديوانه اشارة الى أن ثمة «نسخة فيها شعر عمرو بن أحمر» ، كانت في مجلس ، حضره الأصمعي وابن الأعرابي(٤١) .

وذكر الآمدي كتاباً لباهلة ، وجد فيه قصائد لشاعرين مقلّين من شعرائها ، وهما القتّال(٤٢) وبُدَيل بن المضرّب(٤٣) ، واذا جمعت أشعار هذه القبيلة وأخبارها في كتاب ، ضم مثل هذين الشاعرين المغمورين ، فليس من شك في أنه ضم أشعار المشهورين من شعراء باهلة كابن أحمر وغيره . ومثل هذه الكتب أو الدواوين القبلية كانت « تضم بين دفتيها قصائد كاملة ومقطعات قصيرة وأبياتاً متفرقة لشعراء تلك القبيلة أو لبعض شعرائها ، وربما ضمت أكثر شعر هؤلاء الشعراء ، بل ربما ضمت جميع شعر كل شاعر منهم وديوانه كاملاً ، ثم تضيف الى ذلك من الأخبار والنسب والقصص والأحاديث ما يتصل بالشاعر نفسه أو ببعض أفراد قبيلته ، وما يوضح مناسبات القصائد ، ويفسر بعض أبياتها ، ويبين ما فيها من حوادث تاريخية ، فيجيء كتاب القبيلة بذلك سجلاً لحوادثها ووقائعها وديواناً لمفاخرها ومناقبها ومعرضاً لشعر شعرائها »(٤٤) ، ونشط تصنيف هذه الكتب منذ أواخر

القرن الهجري الثاني على أيدي أبي عبيدة والأصمعي وابن الأعرابي والمفضّل الضبّي وأبي عمرو الشيباني وأبي سعيد السكري ومحمد بن حبيب وغيرهم(٤٥) ، الا أن ثمة من الأخبار ما يدل على أن « كتب القبائل كانت مكتوبة مدونة قبل مطلع القرن الثاني الهجري، وأن العلماء الرواة من رجال الطبقة الأولى في القرن الثاني قد وصلتهم هذه المدونات من القرن الأول الهجري ، فاعتمدوها مصدراً من مصادر تدوينهم نسخهم الخاصة التي نسبت روايتها اليهم »(٤٦) .

واذا كنا في موضع من فصول حياته قد وجدنا أن ابن أحمر كان يحسن الكتابة ، فان هذا يعني أنه ربما أسهم أيضاً بتدوين طائفة من شعره على الأقل ، فكان ذلك عوناً للرواة من بعده .

فلا شك أن الرواية والتدوين قد اجتمعا معاً في الحفاظ على شعر ابن أحمر ونقله الى القرن الثاني ، ليكون بين أيدي الطبقة الأولى من الرواة ، أمثال : الفراهيدي (١٧٥ هـ) ، وسيبويه (١٨٠ هـ) ، وابن الكلبي (٢٠٤ هـ) ،وأبي عمرو الشيباني (٢٠٦ هـ) ، وقُطرب (٢٠٦ هـ) ، والفرّاء (٢٠٧ هـ) ، وأبي عبيدة (٢١٠ هـ) ، والأصمعي (٢١٧ هـ) ، وأبي عبيد (٢٢٤ هـ) ، وابن الأعرابي (٢٣١ هـ) ، وابن سلاّم الجمحي (٢٣١ هـ) ، ثم ليكون بين أيدي الطبقة الثانية من الرواة، أمثال: ابن السكّيت (٢٤٤ هـ) ، وأبي حاتم (٢٥٥ هـ) ، وشَمِر ابن حَمْدَوَيه (٢٥٥ هـ) وغيرهم .

وكثيراً ما نجد اختلافاً واسعاً في روايات هؤلاء العلماء وشروحهم بسبب اختلاف مذاهبهم وعلومهم ، وقد عملت جهدي في البحث عن كل ذلك أثناء تحقيق شعر ابن أحمر .

٣ ـ مصادر شعره :

بعيد أن حملت الرواية والكتابة شعر ابن أحمر الى القرن الثاني أصبحت ألسنة اللغويين والنحاة تلهج بروايته قرناً بعد آخر شواهد على معنى من معاني اللغة أو بنية لفظ من ألفاظها أو غريب من غرائب الاستعمال أو طريقة من طرائق الاشتقاق ، حتى حظي بجل اهتمامهم ، فقال ابن الأثير : « ابن أحمر الباهلي شاعر معروف ، يُستَشهَد على اللغة بشعره كثيراً ، فيقال : قال ابن أحمر ، ولا يذكر له اسم »(٤٧) ، لما في شعره من فصاحة ، جعلته مقدماً لدى أهل اللغة .

ولهذا نرى أن الأصول التي عنيت بجمع اللغة ، أو تناولت بالتصنيف مشكلاتها وظواهرها ، كانت تزخر بشعره أكثر مما رأيناه في مصادر الأدب والنقد والمعاني وسواها، ولذا كانت المعجمات في مقدمة مصادر شعره ، ونذكر على سبيل المثال أننا عددنا في اللسان لابن منظور (٣٥١) بيتاً وثلاثين شطراً ، وفي التاج للزبيدي (٣٠٠) بيت وأربعة عشر شطراً، وفي تهذيب اللغة للأزهري (١٤٨) بيتاً وأربعة وعشرين شطراً ، وفي الصحاح للجوهري (٩١) بيتاً وتسعة أشطار ، وفي جمهرة اللغة لابن دريد (٦٩) بيتاً وشطرين ، وفي المخصص لابن سيده (٦٣) بيتاً وعشرة أشطار ، وفي التكملة للصغاني (٦٠) بيتاً وشطراً واحداً ، وفي المحكم لابن سيده (٥٣) بيتاً وشطرين ، وفي مقاييس اللغة لابن فارس (٤٧) بيتاً وثمانية أشطار وفي التقفية لابن أبي اليمان (٣٤) بيتاً وشطرين ، وفي أساس البلاغة للزمخشري

(٣٢) بيتاً وأربعة أشطار ، وفي كنز الحفاظ في تهذيب كتاب الالفاظ للتبريزي (٣١) بيتاً وشطراً واحداً ، وفي الأفعال للسَّرقُسطي (٣٠) بيتاً وشطرين ، وفي مجمل اللغة لابن فارس (٢٠) بيتاً وخمسة عشر شطراً ٠٠ ولو عددنا الأبيات مضطربة النسبة بين ابن أحمر وغيره من الشعراء لارتفعت هذه الأرقام أكثر في هذه المعجمات وغيرها من المصادر ، و لاسيما في اللسان والتاج اللذين لم ينفردا بأي جديد من شعر ابن أحمر غير بعض أبيات فرادى ٠

وهذه المعجمات جميعاً تورد أبيات ابن أحمر شواهد على معنى من المعاني أو بنية لفظ من الألفاظ ٠ ولهذه الغاية ذاتها كان من مصادره كتب غريب القرآن ومجازه ، ففي مجاز القرآن لأبي عبيدة مثلاً نعد (١٨) بيتاً، وكان منها شروح الدواوين والأصول ، ففي شرح المفضليات للأنباري نعد (٢٧) بيتاً ، وفي الاقتضاب في شرح أدب الكتّاب للبَطَليوسي (٢٤) بيتاً وشطرين ، وفي شرح أبيات المغني للبغدادي (٢٠) بيتاً وشطرين ، وفي الجاهليات (١٧) بيتاً ، وفي شرح أبيات سيبويه لابن السيرافي (١٢) بيتاً ٠

ثم كانت كتب النحو على اختلافها من مصادر شعره أيضاً ، وذلك لما في شعره من شواهد نحوية عديدة ، فالبغدادي في خزانة الأدب احتج لابن أحمر ب (٣٧) بيتاً وشطرين، وابن الشجري في الأمالي ب (٣٢) بيتاً ، وابن جنّي في الخصائص ب (١٨) بيتاً وشطر واحد، وسيبويه ب (٦) أبيات وشطر واحد، وغيرهم٠

وأما مصادر الأدب والنقد والمعاني ، فان كلاً منها يورد طائفة قليلة من شعره ، اذا ما قورنت بالمصادر السابقة ، حتى ان كتاباً مهماً ، وهو الأغاني ، لم يورد من شعر ابن أحمر الا ثمانية أبيات ، نجدها في ثنايا أخبار المغنية جميلة ، مولاة بني سُلَيم ٠ واذا ما ذكرنا أبرز هذه المصادر وأهمها ، فاننا لانحظى بكبير طائل ، فالجاحظ مثلاً لم ينقل من شعره غير (٢٣) بيتاً في البيان والتبيين ،والمعري لم يرو غير (١٤) بيتاً في رسالة الغفران ، و (١٢) بيتاً في الصاهل والشاحج ،وابن سلاّم لم ينشد غير (٦) أبيات في طبقات فحول الشعراء ، والمرزباني لم يورد غير بيتين في الموشح ، و (٦) أبيات في معجم الشعراء ٠٠ ولكن واحداً من تلك المصادر ، وهو المعاني الكبير لابن قتيبة ، يورد أبياتاً لابن أحمر، يكاد عددها يفوق مجموع ما روته من شعره ،فقد رأى ابن قتيبة في هذا الشعر ذخراً واسعاً، يمثل به على ما بسطه من معان ، حتى اننا نعد في كتابه هذا (١٣٩) بيتاً وشطراً واحداً ، وهذا قدر كبير اذا ما قيس بسائر الشعراء الذين احتج بهم ابن قتيبة في الكتاب ، بينما نجده في الشعر والشعراء يورد (١٨) بيتاً ،وفي عيون الأخبار (٦) أبيات وشطراً واحداً ٠ ولعل في ذلك دليلاً آخر على أنه « يُستَشهَد على اللغة بشعره كثيراً » ، الا أن مصادر أهل الأدب والنقد والمعاني تظل ذات قيمة مهمة بما ترويه من أخبار حياته وخصائص شعره ، وبما تطالعنا به من أحكام ورؤى نقدية فيه ٠

وهنالك نوع من الكتب النقدية ، وهي كتب التصحيف والتحريف والتنبيه ، لا تخلو من أهمية في رواية شعره ، اذ انها تنظر الى ما وقع في الرواية من خطأ وزلل ، ثم تقف على الصحيح منها ، ففي سمط اللآلىء للبكري (٣٨) بيتاً وشطر واحد ، وفي شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف لأبي أحمد العسكري (١١) بيتاً وشطر واحد ، وفي التنبيهات لعلي

ابن حمزة (٩) أبيات وشطر واحد ، وفي التنبيه على حدوث التصحيف لحمزة الأصفهاني (٥) أبيات وشطر واحد ·

ويتلو ذلك منزلة تلك المصادر التي صنفت على شكل مختارات أو أمال ، أو اهتمت بجمع الامثال ، أو ألفت في الأزمنة والأمكنة، وتأتي جمهرة أشعار العرب في مقدمة هذه المصادر ، اذ اختار أبو زيد القرشي من شعر ابن أحمر قصيدة في (٥٢) بيتاً ، فحفظها وحدها من يد الحدثان التي لم تبق من قصائده غير أبيات مفردة ومقاطع عدة ، تشتتت في أضعاف الكتب والمصادر المختلفة ·ونجد أصحاب الحماسات يختارون من شعره نتفاً قليلة ، فالبصري مثلاً ينشد له (١٦) بيتاً، والبحتري يروي (٩) أبيات ، وأبو تمام يورد (٤) أبيات· وأما أقدم مجموعتين من مختارات شعر العرب وأهمهما ، وهما الأصمعيات والمفضليات ، فلم توردا شيئاً من شعر ابن أحمر بخلاف أصحاب الحماسات الذين رأوا في شعره أغراضاً ، تفي بمراميهم وغاياتهم ،وتستحق أن تنتقى ، وتُختار · وأما كتب الأزمنة والأمكنة، فقد احتجت بشعره، وعددنا في معجم ما استعجم للبكري (٥٧) بيتاً ، وفي الأزمنة والأمكنة للمرزوقي (٢٣) بيتاً ، وفي معجم البلدان لياقوت (١٩) بيتاً وثلاثة أشطار، وفي الجبال والأمكنة والمياه للزمخشري (٣) أبيات وشطرين ·· وهذا قدر كبير اذا ما قورن بسائر الشعراء الذين استشهد بشعرهم كل مصدر منها · وأما كتب الأمثال والمحاضرات والأمالي ، فليست بذات أهمية كبيرة فيما أوردته من شعر ابن أحمر ، الا أنها تظل مهمة من الناحية التاريخية على الأقل ·

واذا ما استعرضنا أنواعاً أخرى من المصادر في المكتبة العربية مثل كتب التاريخ والسيرة والديانات والمذاهب وما يتفرع عن هذه العلوم جميعاً ، فاننا لا نكاد نقف على أي أثر فيها لابن أحمر ، ففي السيرة مثلاً بيت واحد لا غير ، مما يؤكد عدم احتفال هذا النوع من المصادر بشعر ابن أحمر مع أن أكثرها قد تحدث عن بعض معاصريه من الشعراء المخضرمين كحسّان بن ثابت وعبدالله بن رواحة وكعب بن مالك وغيرهم ممن كان لهم مشاركة ما في صدر الاسلام ·

وبذلك كانت مصادر شعره المختلفة تقتصر على المعجمات والأصول التي صنفت بظواهر اللغة ومشكلاتها وعلومها ، فكانت تزخر بشعره أكثر مما روته مصادر الأدب والنقد والمعاني وسواها ·

٤ ـ ضياع شعره :

رأينا أن ديوان ابن أحمر وكتاب باهلة قد فُقدا ، وليس بين أيدينا من شعره غير ما نجده في أضعاف المصادر المختلفة ، وليس هنالك دليل على أن هذه المصادر قد نقلت أبياتاً أو قصائد لم ترد في ديوانه ، وذلك لأن« العلماء الرواة الذين دونوا ذلك الشعر لم يجدوا الا أبياتاً متفرقة أو مقطعات صغيرة ،أشبه ما تكون بالأوصال الممزقة ، التقطوها التقاطاً من أفواه بعض الأعراب والرواة »(٤٨) ·

والنظـرة العجلى الى شـعر ابن أحمر تجعلنا على ثقة تامة من ضياع قسم كبير منه، اذ بدا لنا أن ابن أحمر من أصحاب المطولات،ولكن صروف الدهر لم تبق منها غير مشوبة ، عدتها (٥٢) بيتاً ، ولم تدع القصائد الأخرىالا أوصالاً متناثرة ، تكاد تنم عـن صورتها الأصلية في أغلب الأحيان ، حتى اننـا نعد فياحدى رائياته المجموعة أو احدىميمياته (٣٤) بيتـاً ، وفي احدى لامياته أو احـدى يائياته(٣٦) بيتاً ، وفي قصيدة نونية (٣٩) بيتاً ، وفي قصيدة رائية (٣١) بيتاً ، وفي قصيدة لامية(٣٠) بيتـاً ٠

ومن ادلة ذلك أن أبا الفرج أنشد لابنأحمر أبياتا، فقال: « قال في عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) قصيدة له طويلة جيدة :

أدركتُ آلَ أبي حَفصٍ وأسرتَـهُ ... وقبـلَ ذاك ودهـراً بَـعده كَلِبـا
قَـد تَرتَمي بقَـوافٍ بينَنـا دولٌ ... بَـينَ الهَنَاتَـينِ لا جِداً ولا لَعِبـا
اللهُ يَعلَـمُ ما قَـولي وقَـولَهُـمُ ... اذ يركبونَ جَنانا مُسهِباً ورِبا »(٤٩)

ولكنه لم يبق من هذه القصيدة الطويلةغير (١٩) بيتاً وشطر واحد، اذا استثنينا منها ما رواه الأصفهاني ، مما يؤكد أن ابن أحمركان يقصِّد شعره ، ويطوِّله ، ولكن قصائده المطولة لم تصل الينـا ٠

ولعل كثيراً من الأبيات الفرادى ، ومجموعها نحو (٢٢) بيتاً ، هي مجرد بقايا قصائـد مفقودة ، ومن أمثلة ذلك ما أنشده في ركاب ،أودعها « رجلاً من بني سعد ، فأغار عليها قوم منهم ، فأخذوها ، ولم يَسعِ الخَفيرَ فيها »(٥٠) ، فعرَّض بهم ، وقال :

فَرُدّوا ما لَديكُم مِـن رِكابي ... ولمَّـا تَأتِـكُم صَمّي صَمـامِ

ولكنه لم يبق من هذا التعريض غير هذا البيت ، ولا شك أنه لم يكن يتيماً ، وانما هو مـن قصيدة في الأصل ٠

وابن أحمر غزير الشـعر كثيره ، قال الشعر من يفاعته الى مماته ، ولم يحجم عنه في الاسلام كما فعـل لَبيد ، ولم تفتر عنـهعزيمته، أو تلِن شكيمته، حتى قال أبو الفرج: « قال في الجاهليـة والاسلام شعراً كثيـراً »(٥١) ، الا أن هذا الشعر الكثير قد ذهب في ذمة التاريخ ، ولم يبق منه غير (٥٢٥) بيتاً وثلاثةأشطار ، هي مجموع الشعر الذي اطمأن البحث الى نسبته اليـه ٠

ان ضياع جزء كبير من شعر ابن أحمر يمثل جانباً واضحاً من جوانب محنـة جلّى ، رزىء بهـا على مرّ العصور تراثنـا العربيالاسلامي ، فلو جاءنا وافراً لجاءنا علم وشعر كثير ، كما قال أبو عمرو بن العلاء(٥٢) ٠ ولمتكن يـد الحدَثان وحدها تعبث بهذا التراث فحسب ، وانما تتحدث الأخبـار عـن رواةوضّاعين ومدّعين منتحلين ، أفسدوا ما أبدعه الأولون ، وشـاع بينهـم الكـذب والوضـعوالاضطراب في رواية أي شيء منه ،(٥٣) ٠

الحواشي :

١ ـ هو أبو الخطاب ، عمرو بن أحمر الباهلي من بني فرّاص بن معن بن مالك بن اعصر ، شاعر مخضرم من فحول شعراء أهل نجد ، كان صحيح الكلام كثير الغريب ، فاستشهد على اللغة بشعره كثيرا ، واشتهر بمشوبة مؤثرة ، رواها القرشي في جمهرته • وقد قدّرنا وفاته بعد دراسة حياته وشعره بين (٧٧ و ٧٢ هـ/٦٩٦ و ٧٠١ م) • انظر : طبقات فحول الشعراء ٥٧١ ، والشعر والشعراء ٣٥٦ ، والمعارف ٨١ ، وجمهرة أشعار العرب (ط • البجاوي) ٨٤٢ ، والاغاني ٢٩٨٠ ، والمؤتلف والمختلف ٤٤ ، ومعجم الشعراء ٢٤ ، وسمط اللآلىء ٣٠٧ ، والأمالي لابن الشجري ١٣٧/١ ، وخزانة الأدب ٣٨/٣ ، وشرح أبيات المغني للبغدادي ١٣٥/٢ ، والاصابة ١١٢/٣ ، والاقتضاب ٣١٩ ، ومن سمي من الشعراء عمرا ٥٦ ، والتاج (فرص) • ولمزيد من الاطلاع راجع في مكتبة الأسد بدمشق رسالتنا : (شعر عمرو بن أحمر الباهلي : جمع وتحقيق ودراسة ، بحث أعد لنيل درجة الماجستير في الآداب باشراف الأستاذ الدكتور عبد الحفيظ السطلي • كلية الآداب والعلوم الانسانية في جامعة دمشق ١٩٨٨/٨٧) •

٢ ـ انظر : الفهرست لابن النديم ٢٢٤ وما بعدها •

٣ ـ شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف ١٨٩/١ • وانظر : التنبيه على حدوث التصحيف (ط طلس) ٨٤ ، و (ط • آل ياسين) ١٤٠ •

٤ ـ شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف ١٩٠/١ •

٥ ـ المصدر السابق نفسه ٤٦٣/١ •

٦ ـ تاريخ بروكلمان ٧٥/١ • ويرى الدكتور ناصر الدين الأسد أن صاحب الجمهرة عاش قبل منتصف القرن الخامس ، لأن ابن رشيق روى عنه في العمدة ، وابن رشيق مات سنة ٤٦٣ للهجرة ، ويجعل الزركلي وفاته سنة ١٧٠ للهجرة • انظر مصادر الشعر الجاهلي ٥٨٦ و ٥٨٨ ، والأعلام ١١٤/٦ •

٧ ـ جمهرة أشعار العرب (ط • صادر) ٩ ، و (ط • البجاوي) ١ •

٨ ـ الخصائص ٢٤/٢ •

٩ ـ معجم ما استعجم ٤٦٥ •

١٠ ـ كنز الحفاظ ٤٤٦ •

١١ ـ الاقتضاب ٤٣٤ •

١٢ ـ سورة الحشر ١٤/٥٩ •

١٣ ـ الأمالي لابن الشجري ١٤١/١ •

١٤ ـ انظر : فهرست ابن خير ٣٩٧ •

١٥ ـ فهرست ابن خير ٣٥٣ • واورد محققه اسم ابن أحمر مصحفا بالدال في خمسة مواضع منه ، وهي ٣٩٣ و ٣٩٨ و ٤٩٩ و ٥٤٤ و ٥٦١ •

١٦ ـ اللسان ، والتاج (عرض) •

١٧ ـ اللسان ، والتاج (خنب) •

١٨ ـ اللسان ، والتاج (قرر) •

١٩ ـ التكملة ١٦٤/٣ ، وعنه في التاج (قرر) •

٢٠ ـ التاج (ممس) •

٢١ ـ خزانة الأدب ٣٨/٣ •

٢٢ ـ كشف الظنون ٧٦٤/١ •

٢٣ ـ خزانة الأدب ٣٣/٤ •

٢٤ ـ التاج (زها) •

٢٥ ـ نشر مجمع اللغة العربية بدمشق شعر ابن احمر دون تاريخ ، وأشار في فهرس مطبوعاته ١٤ الى أنه طبع سنة ١٩٧٠ م •

٢٦ ـ انظر : شعر ابن احمر (ط • عطوان) ٧٣ و ١٠٩ •
٢٧ ـ انظر : المصدر السابق نفسه ٣٩ و ٨١ و ١٢٣ و ١٣٢ و١٦٦ •
٢٨ ـ المصدر السابق نفسه ٥٢ •
٢٩ ـ ٣٠ ـ (٤) و (٥) المعاني الكبير ١٢٢١ •
٣١ ـ شعر ابن احمر (ط • عطوان) ٤٨ •
٣٢ ـ عيار الشعر ٩٩ ، والموشح ١٣٦ •
٣٣ ـ شعر ابن أحمر (ط • عطوان) ١٢٢ •
٣٤ ـ تهذيب اللغة ٢٨٥/١ ، والتكملة ٢١٨/٤ ، واللسان ،والتـاج (بقـع) • وصبغته : خلقتـه • وقـال ابن مكـي « يقولون : شئلت يده » و « الصواب : شَئِلت بفتـحِ الشين » تثقيف اللسان ١٥٠ •
٣٥ ـ انظر : مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق (ص ٤٢٢ ،ج ٢ ، مج ٤٧ ، ١٣٩٢ هـ/١٩٧٢ م) •
٣٦ ـ انظر : مجلة معهد المخطوطات العربية (ص ٣٢٧ ، ج١ ، مج ٣٠ ، ١٤٠٦ هـ/١٩٨٦ م) •
٣٧ ـ الاسم والمسمى ٣٤٠ •
٣٨ ـ المصدر السابق نفسه ٣٤٣ •
٣٩ ـ انظر : فهرست ابن خير ٣٩٣ •
٤٠ ـ البرصان ٣ •
٤١ ـ انظر : شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف ١٨٩/١ •
٤٢ ـ المؤتلف والمختلف ٢٥٢ •
٤٣ ـ المصدر السابق نفسه ٢٨٠ •
٤٤ ـ مصادر الشعر الجاهلي ٥٥٤ •
٤٥ ـ انظر : فهرست ابن النديم ٢٢٣ وما بعدها •
٤٦ ـ مصادر الشعر الجاهلي ٥٥٨ •
٤٧ ـ المرصـع ٦٥ •
٤٨ ـ مصادر الشعر الجاهلي ٤٨٣ •
٤٩ ـ الأغاني ٢٩٨٠ •
٥٠ ـ جمهرة ٢٠٦/٢ •
٥١ ـ الأغاني ٢٩٨٠ ، وعنه في الاصابة ١١٢/٣ ، وخزانـة الأدب ٣٩/٣ ، والعبارة فيهما : «قال في الاسلام شعرا كثيرا» •
٥٢ ـ طبقات فحول الشعراء ٢٥ ، والخصائص ٣٨٦/١ •
٥٣ ـ انظر : مصادر الشعر الجاهلي ٣٢١ ، وما بعدها •

★ ★ ★

المصـادر والمراجـع :

أولا : المطبوعـات :

١ ـ الاسم والمسمى لابن السيد البطليوسي (٥٢١ هـ) • تح : أحمد فاروق • نشر في مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق: ج ٢ ، مج ٤٧ ، ١٣٩٢ هـ/١٩٧٢ م •
٢ ـ الاصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني (٨٥٢ هـ) • ط ١ • مصر ١٣٢٨ هـ / ١٩١٠ م (مصورة دار احياء التراث العربي في بيروت دون تاريخ) •
٣ ـ الأعلام لخير الدين الزركلي • ط ٥ • دار العلم للملايين في بيروت ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠ م •
٤ ـ الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني (٣٥٦ هـ) • تح : ابراهيم الأبياري • دار الشعب في مصر ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م •

٥ – الاقتضاب في شرح أدب الكتاب لابن السيد البطليوسي(٥٢١ هـ) ٠ دار الجيل في بيروت ١٣٩٣ هـ / ١٩٧٣ م ٠

٦ – الأمالي لابن الشجري (٥٤٢ هـ) ٠ مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن بالهند ١٣٤٩ هـ / ١٩٣٠ م (مصورة دار المعرفة في بيروت دون تاريخ) ٠

٧ – البرصان والعرجان والعميان والحولان للجاحظ (٢٥٥ هـ) ٠ تح : د٠ محمد مرسي الخولي ٠ ط ٢ ٠ مؤسسة الرسالة في بيروت ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م ٠

٨ – تاج العروس من جواهر القاموس للمرتضى الزَّبيدي (١٢٠٥ هـ) ٠ حققه عدد من الأساتذة المحققين ، ونشرته حتى الجزء الخامس والعشرين وزارة الاعلام في الكويت ١٤٠٩ هـ / ١٩٨٩ م ، فاستعنا بأجزائه الأخرى من الطبعة المصرية المعروفة ٠

٩ – تاريخ الأدب العربي لكارل بروكلمان ٠ تر : د٠ عبد الحليم النجار ٠ دار المعارف في مصر ١٩٧٧ ٠

١٠– تثقيف اللسان وتلقيح الجنان لابن مكي الصَّقَلِّي (٥٠١ هـ) ٠ تح : د٠ عبد العزيز مطر ٠ المجلس الأعلى للشؤون الاسلامية في القاهرة ١٣٨٦ هـ / ١٩٦٦ م ٠

١١– التكملة والذيل والصلة لكتاب (تاج اللغة وصحاح العربية للجوهري) للصغاني (٦٥٠ هـ) ٠ تح : عدد من الأساتذة المحققين ٠ مجمع اللغة العربية في القاهرة ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩ م ٠

١٢– التنبيه على حدوث التصحيف لحمزة بن الحسن الأصفهاني (٣٦٠ هـ) ٠ تح : محمد أسعد طلس ٠ مجمع اللغة العربية بدمشق ١٣٨٨ هـ / ١٩٦٨ م ، وهناك نشرة أخرى منه، حققها الشيخ محمد حسن آل ياسين ٠ ط ١ ٠ مكتبة النهضة في بغداد ١٣٨٧ هـ / ١٩٦٧ م ٠

١٣– تهذيب اللغة لأبي منصور محمد بن أحمد الأزهري (٣٧٠ هـ) ٠ تح : عدد من الأساتذة المحققين ٠ وزارة الثقافة في مصر ١٣٨٧ هـ / ١٩٦٧ م ٠

١٤– جمهرة أشعار العرب لأبي زيد محمد بن أبي الخطاب القرشي (أواخر القرن الثالث الهجري) ٠ دار صادر في بيروت (دون تاريخ) ، وهناك نشرة أخرى منه ، حققها علي محمد البجاوي٠دار نهضة مصرفي القاهرة ١٣٨٧هـ ١٩٦٧م ٠

١٥– جمهرة اللغة لابن دريد الأزدي (٣٢١ هـ) ٠ ط ١ ٠ مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن بالهند ١٣٥١ هـ / ١٩٣٢ م ٠

١٦– خزانة الأدب (ومعه المقاصد النحوية للعيني) لعبد القادر بن عمر البغدادي (١٠٩٣ هـ) ٠ دار صادر في بيروت (دون تاريخ) ٠

١٧– الخصائص لأبي الفتح عثمان بن جني (٣٩٢ هـ) ٠ تح : محمد علي النجار ٠ ط ٢ ٠ دار الهدى للطباعة والنشر في بيروت (دون تاريخ) ٠

١٨– سمط اللآلىء لأبي عبيد البكري (٤٨٧ هـ) ٠ تح : عبد العزيز الميمني ٠ لجنة التأليف والترجمة والنشر في القاهرة ١٣٥٥ هـ / ١٩٣٦ م ٠

١٩– شرح أبيات المغني لعبد القادر بن عمر البغدادي (١٠٩٣ هـ) ٠ تح : أحمد يوسف دقاق وعبد العزيز رباح ٠ ط ١ ٠ دار المأمون للتراث في دمشق ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م ٠

٢٠– شرح مايقع فيه التصحيف والتحريف لأبي أحمد الحسن بن عبد الله العسكري (٣٨٢ هـ) ٠ تح : د٠ السيد محمد يوسف عن مجمع اللغة العربية بدمشق ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م ٠

٢١– شعر عمرو بن أحمد الباهلي ٠ تح : د٠ حسين عطوان ٠ مجمع اللغة العربية بدمشق (دون تاريخ) ٠

٢٢– الشعر والشعراء لابن قتيبة (٢٧٦ هـ) ٠ تح : أحمد محمد شاكر ٠ دار المعارف بمصر ١٣٨٧ هـ / ١٩٦٧ م ٠

٢٣– طبقات فحول الشعراء لأبي عبدالله محمد بن سلام الجمحي(٢٣١ هـ) ٠ تح : محمود محمد شاكر ٠ دار المعارف بمصر ١٣٩٤ هـ / ١٩٧٤ م ٠

٢٤– عيار الشعر لمحمد بن أحمد بن طباطبا (٣٢٢ هـ) ٠ تح : د٠ طه الحاجري ، و د٠ محمد زغلول سلام ٠ المكتبة التجارية الكبرى في القاهرة ١٣٧٦ هـ / ١٩٥٦ م ٠

٢٥– الفهرست لابن النديم (٣٨٥ هـ) ٠ دار المعرفة للطباعة والنشر في بيروت (دون تاريخ) ٠

٢٦- فهرسة ما رواه عن شيوخه لأبي بكر محمد بن خَيْر الاشبيلي (٥٧٥ هـ) • تح : فرنسشكه قداره زيدين وخليان ربارة طرغوه • ط ٢ • دار الآفاق الجديدة في بيروت ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩ م •

٢٧- فهرس مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق (١٩٢١ - ١٩٧٥) • مطبعة زيد بن ثابت بدمشق ١٣٩٥ هـ/١٩٧٥ م •

٢٨- كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون لمصطفى بن عبد الله ، المعروف بحاجي خليفة (١٠٦٧ هـ) • تح : محمد شرف الدين يالتقايا ، ورفعت بيلكة الكليسي • مكتبة المثنى ببغداد (دون تاريخ) •

٢٩- كنز الحفاظ في كتاب تهذيب الألفاظ للخطيب التبريزي (٥٠٢ هـ) • تح : لويس شيخو • المطبعة الكاثوليكية في بيروت ١٨٩٥/١٣١٣ م •

٣٠- لسان العرب لابن منظور (٧١١ هـ) • تح : عـدد من الأساتذة المحققين • دار المعارف بمصر ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م•

٣١- المرصّع في الآباء والأمهات والبنين والبنات والأذواء والذوات لابن الأثير (٦٠٦ هـ) • تح : د• ابراهيم السامرائي رئاسة ديوان الأوقاف في بغداد ١٣٩١ هـ/١٩٧١ م •

٣٢- مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية للدكتور ناصر الدين الأسد • ط ٥ • دار المعارف بمصر ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م •

٣٣- المعاني الكبير في أبيات المعاني لابن قتيبة (٢٧٦ هـ) • تح : سالم الكرنكوي • ط١ • مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن بالهند ١٣٦٨ هـ / ١٩٤٩ م •

٣٤- معجم الشعراء لأبي عبيد الله بن عمران المرزباني (٣٨٤هـ) • تح : عبد الستار أحمد فراج • مكتبة النوري بدمشق (دون تاريخ) •

٣٥- معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع لأبي عبيد البكري (٤٨٧ هـ) • تح مصطفى السقا • ط• لجنة التاليف والنشر والترجمة في القاهرة ١٣٧١ هـ / ١٩٥١ م •

٣٦- المعارف لابن قتيبة (٢٧٦ هـ) • تح : د• ثروت عكاشة • ط ٢ • دار المعارف بمصر ١٣٨٩ هـ / ١٩٦٩ م •

٣٧- المؤتلف والمختلف لأبي القاسم الحسن بن بشر الآمدي (٣٧٠ هـ) • تح : عبد الستار أحمد فراج • دار احياء الكتب العربية بمصر ١٣٨١ هـ / ١٩٦١ م •

٣٨- الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء في عدة أنواع من صناعة الشعر للمرزباني (٣٨٤ هـ) • تح : محمد علي البجاوي • دار نهضة مصر ١٣٨٥ هـ/١٩٦٥ م •

ثانيـا : المخطوطـات :

١ - شعر عمرو بن أحمر الباهلي : جمع وتحقيق ودراسة • صنعة محمد محيي الدين مينو • بحث أعـد لنيـل درجـة الماجستير في الآداب باشراف الأستاذ الدكتور عبد الحفيظ السطلي • كلية الآداب والعلوم الانسانية في جامعة دمشق ٨٧ / ١٩٨٨ •

٢ - من سمي من الشعراء عمرا لمحمد بن داود بن الجراح (٢٩٦ هـ) • مصورة (الفاتح ٥٣٠٣) يحتفظ بها مجمع اللغة العربية بدمشق ، ومنه صورة أخرى في مكتبتي •

ثالثـاً : المجـلات :

١ - مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق : ج ٢ ، مج ٤٧ ، ١٣٩٢ هـ / ١٩٧٢ م •

٢ - مجلة معهد المخطوطات العربية : ج ١ ، مج ٣٠ ، ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦ م •

استدراك

على ديوان ديك الجن الحمصي

جمع وتحقيق : مظهر الحجي

خير الدين شمسي باشا

كانت مجلة التراث العربي نشرت لي بعددها المزدوج (٢٥/٢٦) مقالاً بعنوان (استدراك على ديوان ديك الجن) وبعددها (٣٢) القسم الثاني منه ٠

وكان استدراكاً على الديوان الذي نشره أديبا حمص الشاعران الأستاذ عبدالمعين الملوحي والمرحوم محيي الدين الدرويش عام ستين وتسعمئة وألف ٠

وفي عام سبعة وثمانين وتسعمئة وألف ، نشرت وزارة الثقافة في سلسلة : إحياء التراث العربي (ديوان ديك الجن الحمصي (عبدالسلام بن رغبان) جمع وتحقيق مظهر الحجي) ٠

قال الأستاذ المحقق في مقدمة الديوان :

« ان عملنا في هذا الديوان هو المحاولة الثالثة لاحياء شعر ديك الجن الحمصي ٠ وأنا لا أدعي الكمال في هذا العمل ٠ فالباب ما زال مفتوحاً ما دام الأصل المخطوط ضائعاً وما دامت المطابع تلفظ كل يوم جديداً من كتب التراث التي قد تحوي بعضاً من شعر الديك ٠ وهذا يدفعني الى التقدم بالرجاء الحار والصادق الى الاخوة الأدباء والدارسين على امتداد الوطن العربي بمد يد المساعدة وارسال ما قد يقع تحت أيديهم من شعر ديك الجن ٠ ولعل المحاولة القادمة تكون أدق وأكمل » ٠ وقد كنت أثناء قراءتي في كتب الأدب، كلما عثرت على شعر ديك الجن أراجعه على هذا الديوان ، وأكتب في صفحاته ما أجد من اختلاف الروايات ، وأدون بعض الأبيات التي ليست فيه ، كالأبيات الواردة في الفقرة (٢٤) من هذا المقال ، والأبيات في الفقرة (٢٥) وأشير الى الأبيات التي أخذ معانيها عدد من الشعراء كالمتنبي وغيره وأكتب أشعارهم ،وهذا مما نقلته عن كتاب (الابانة عن سرقات المتنبي) نشر دار المعارف بمصر ــ الطبعة الثانية ــ تحقيق ابراهيم الدسوقي البساطي ٠

وتلبية لرجاء الأستاذ مظهر الحجي ، أقدم حصيلة هذا الجهد المتواضع بالقياس الى جهده العظيم ، وعنايته الفائقة بدقة التحقيق ٠ ولا بد من الاشادة بالدراسة المستفيضة التي صدّر بها الديوان ٠ ولعله في المحاولة القادمة يذكر في الحواشي الشعراء الذين غرفوا من منهل هذا الشاعر الفذ الذي سعى اليه أعاظم الشعراء وهو قابع في مربعه المتواضع في قرية الدوير على ضفاف العاصي :

١ ــ في الصفحة ٤٢ ــ رقم/٧ :

وقال :

فتى كان مثل السيف من أين جئته   لنائبة نابته فهي مضاربه

وفي الصفحة (٤٨) تكرر ورود هذا البيت في القصيدة رقم/١١ التي يمدح بها جعفر بن علي الهاشمي بهذه الصورة :

فتى كان مثل السيف من حيث جئته   لنائبة نابتك فهو مضارب

لعله بهذه الرواية أصوب وأصح معنى ٠ وورد في الحماسة البصرية :

« لنائبة تأتيك فهو مضارب »

٢ ــ في الصفحة ٦٣ ــ رقم/٢٢ :

البيت الرابع من المقطوعة :

وتارة كالسطور متصلا   (٠٠٠٠٠) في جوانب الكتب

قال المحقق مشيراً الى موضع النقط : كلمة غير مقروءة في الأصل ٠ انتهى ٠ وكنا أثناء مراجعة الديوان قد نقلنا كلمة (ميماته) مكان النقط عن مصدر نسينا أن نذكر اسمه ٠ وستتكرر فيما يأتي بعض التصحيحات والمنقولات من هذا المصدر ٠ وكان الأجدر بنا أن لا نعرض في هذا المقام شيئاً غير موثق ، فنعتذر عن ذلك ، لكن رأينا التنبيه اليه أكثر فائدة من اهماله ٠

٣ ــ في الصفحة ٩٩ ــ رقم/٧١ :

وقال في كتمانه للسر :

لقد أحللت سرك من ضميري   مكانا لم يحس به الضمير
فمات بحيث ما سمعته أذن   فلا يرجى له أبدا نشور

وفي كتاب (الابانة عن سرقات المتنبي/الطبعة الثانية صفحة ١٥٨) بعد هذين البيتين قال المتنبي :

وسرك بين الحشا ميت   اذا نشر السر لا ينشر

وهو في ديوانه :

« وسرك في الحشا مضمر »

٤ ـ في الصفحة ١٠٥ ـ رقم/٧٣ :

بها غير معذول فداوِ خمارها   وصل بعشيات الغبوق ابتكارها

وفي كتاب (فصول التماثيل في تباشير السرور) لابن المعتز (م. مجمع اللغة العربية بدمشق/١٤١٠ هـ) صفحة (٥٧) ورد عجز البيت هكذا :

« وصل بخيالات الغبوق ابتكارها »

٥ ـ في الصفحة ١٠٦ ـ رقم ٧٣ :

ونل من عظيم الوزر كل عظيمة   اذا ذكرت خاف الحفيظان نارها

وفي (فصول التماثيل في تباشير السرور) ص/٥٨ :

ونل من عظيم الذنب كل عظيمة   اذا كتبت خاف الحفيظان نارها

٦ ـ في الصفحة نفسها : البيت الرابع من المقطوعة :

فقام تكاد الكأس تحرق كفه   من الشمس أو من وجنتيه استعارها

وفي (فصول التماثيل في تباشير السرور) ص/٥٨ :

فقام تكاد الكأس تخضب كفه   وتحسبه من وجنتيه استعارها

٧ ـ في الصفحة نفسها : البيت الخامس من المقطوعة :

ظللنا بأيدينا نتعتع روحها   فتأخذ من أقدامنا الراح ثارها

وفي (الابانة) ص/١٩٦ :

نظل بأيدينا نتعتع روحها   فتأخذ من أقدامنا الكأس ثارها

وقال المتنبي :

نال الذي نلت منه مني   لله ما تصنع الخمور

وفي الحاشية : يقول : الذي نلته منه بشربه ناله مني بغياب عقلي والتأثير في أعضائي وهذا مأخوذ من قول الطائي :

وكأس كمعسول الأماني شربتها   ولكنها أخفت وقد شربت عقلي

اذا اليد نالتها بوتر توفرت   على ضغنها ثم استقادت من الرجل

ومن قوله أيضاً :

أفيكم فتى حي فيخبرني عني ... بما شربت مشروبة الراح من ذهني

انتهى • ومن المحفوظ بيت للطبيب أبي بكر بن زهر (الأندلسي) بمعنى بيت ديك الجن وهو :

والخمر تأخذ ثارها بيمنها ... أنـي أملت إناءها فامالني

ويلاحظ في قول صاحب الحاشية في الابانة : « وهذا مأخوذ من قول الطائي » أن المعروف المشهور أن أبا تمام كان كثير الأخذمن ديك الجن • وأن ديك الجن قد أعطاه حين زاره في حمص درجاً فيه قصائد من شعره وقال له ما معناه : تكسب بهذا واعمل على منواله. فقد توسم فيه ديك الجن أن سيكون شاعراًفحلاً • [أنظر العدد ٣٢ من مجلة التراث العربي] •

٨ ـ في الصفحة ١٠٧ : البيت السادس من القطعة :

موردة من كف ظبي كأنما ... تناولها من خده فأدارها

وهو في (فصول التماثيل) ص/٥٨ :

مشعشعة من كف ظبي ... ••• البيت

٩ ـ في الصفحة ١١١ ـ رقم/٨٠ :

وقال معبراً عن رأيه في المرأة :

أخا الرأي والتدبير لا تركب الهوى ... فان الهوى يرديك من حيث لا تدري

ولا تثقن بالغانيات وان وفت ... وفاء الغواني بالعهود من الغدر

وفي كتاب الابانة ص/٤٥ بعد ذكر البيتين :

أبو تمام :

ولا تحسبا هنداً لها الغدر وحدها ... سجية طبع ، كل غانية هند

فان حقدت لم يبق في قلبها رضى ... وان رضيت لم يبق في قلبها حقد

قال المتنبي :

واذا غدرت حسناء أوفت بعهدها ... ومن عهدها أن لا يدوم لها عهد

انتهى •

وبيت أبي تمام الأول في الديوان (اصدار مكتبة النوري بدمشق) ص/١٠٧ هكذا :

فلا تحسبا هنداً لها الغدر وحدها ... سجية نفس كل غانية هند

أما البيت الثاني فليس لأبي تمام ، وانما هو للمتنبي وهو في ديوانه (العرف الطيب) لليازجي ص/٣٩٨ دار صادر بيروت) بعد قوله :

اذا غدرت حسناء وفّت بعهدها ... فمن عهدها أن لا يدوم لها عهد
وان عشقت كانت أشد صبابة ... وان فركت فاذهب فما فركها قصد
وأن حقدت لم يبق في قلبها رضى ... وان رضيت لم يبق في قلبها حقد
كذلك أخلاق النساء ، وربما ... يضل بها الهادي ويخفى بها الرشد

١٠ـ في الصفحة ١١٥ ـ رقم/٨٥ :

لم تبل عينك أبيضاً في أسود ... جمع الجمال كوجهها في شعرها
وردية الوجنات يختبر اسمَها ... من ريقها من لا يحيط بخُبرها

وفوق كلمة (تَبلُ) كلمة (تَلقَ) وفوق كلمة (ريقها) كلمة (خَدّها) بالقلم الأحمر كنا نقلناها أثناء مراجعة الديوان عن المصدر السابق الذي نسينا أن نذكر اسمه ·

١١ـ في الصفحة ١١٦ ـ نفس الرقم :

تسقيك كأس مدامة من كفها ... وردية ، ومدامة من ثغرها

وتحت البيت بالقلم الأحمر البيت التالي :

بنت المذابح والقسوس كريمة ... لا تستحي يوم الحساب بوزرها

وهو من المصدر السابق وليس في الديوان ·

١٢ـ في الصفحة ١١٩ ـ رقم/٩١ :

لا شيء أحسن من راح مشعشعة ... حمصية سيّما من كف شماس

وفوق كلمة (حمصية) كلمة (ديرية) بالقلم الأحمر · وبعد هذا البيت :

اذا اغتدى لزبور الكتب يدرسها ... ألهى قلوب الورى عن كل مدراس

وفوق كلمة (لزبور) كلمة (بزبور) بالقلم الأحمر والتصحيح من المصدر السابق·

١٣ـ في الصفحة ١٢٠ ـ رقم/٩٢ :

ليس ذا الدمع دمع عيني ولكن ... هي نفسي تذيبها أنفاسي

وفي (الابانة) ص / ١٦٧ بعد ذكر هذا البيت : قال المتنبي :

حشاشة نفس ودعت يوم ودعوا ... فلم أدر أي الظاعنين اشيع
أشاروا بتسليم فجدنا بأنفس ... تسيل من الآماق والسمُّ أدمع

[السِّمُ بالكسر : لغة في الاسم] ·

وفي حاشية صفحة ١٦٨ : ومثله :

خليـلي لا دمعـاً بكيـت وانمـا هي الروح من عيني تسيل على خدي

ولابن دريـد :

لا تحسبوا دمعـي تحـدر انهـا روحي جـرت في دمعـي المتحـدر

١٤ــ في الصفحة ١٣٤ :

فاصرف بصرفك وجه الماء يومك ذا حتى ترى نائمـاً منهـم ومنصرفا

وفوق كلمتي (وجه الماء) كلمتا (صِرف الراح) والتصحيح من المصدر المنسي ذكره .

١٥ــ في الصفحة ١٣٦ :

حتى حسبتُ أنوشروان مـن خولي وخلت أن نـديمي عاشـر الخلفـا

والمحفوظ كما في المصدر السابق : (سابع الخلفـا) .

١٦ــ في الصفحة ١٣٩ :

فان كـذبوا أمنت وان أصـابوا فـان المبتـليك هـو المعـــافي

وفوق كلمتي (كـذبوا أمنتَ) كلمتا (أخطوا أصبتُ) بالأحمر والتصحيح من المصدر السابـق .

١٧ــ في الصفحة ١٥٥ ــ رقم/١٢٢ :

نغدو على سيد يحصى الحصى عدداً في الخافقـين ولا تحصى فواضلـه

وفي (الابانة) ص/٣٠ :

ديـك الجـن :

تغدو الى سيد يحصى الحصى عدداً في الخافقـين ولا تحصى فواضلـه

محمد بن حازم الباهلي أبو جعفر :

يحصى الحصى ويعد الرمل أصغره ولا تعـد ولا تحصى معـاليـه

قال المتنبي :

حلـو خلائقـه شـوس حقـائقـه تحصى الحصى قبل أن تحصى مآثره

١٨ــ في الصفحة ١٥٨ ــ رقم/١٢٤ :

وقـال :

واني بريء مـن أخي وانتسابـه اليَّ اذا ألفيت في طبعـه بخـلا
فان لم تكن بالطبع نفسي كريمـة وان كـرم الآبـاء لم أره فضـلا

وفي الابانة ص/١٧٨ بعد هذين البيتين :

المتنبي :

وآنف من أخي لأبي وأمي اذا ما لم أجده من الكرام
ولست بقانع من كل فضل بأن أعزى الى جد همام

١٩- في الصفحة ١٦٤ - رقم/١٢٩ :

وقال في الحكمة :

أُحْلُ وامرُر معاً ولِن تارة واخشن ورِش أنت وانتدب للمعالي
واغث واستغث بربك في الأر ض اذا جلحت صروف الليالي

وفي الابانة ص/١١٧ :

ديك الجن الحمصي من قصيدة أولها :

فسد الدهر فاطلب الرزق بالسيف والا فمت قتيل الهزال
أحل وامرر وضر وانفع ولن واخش ورش وابر وانتدب للمعالي

أبو العُمَيْثَل :

يا من يحاول أن تكون صفاته كخصال عبدالله انصت واسمع
أصدق وعف وبر واصبر واحتمل واحلم ودان وكاف واحلم واشجع

قال المتنبي :

أقل أنل أُن صن احمل على سل أعد زد هش بش هب اغفر أدن سُرّ صل

وفي الحاشية : وفي نسخة الجامعة هكذا : [وهو في الديوان (العرف الطيب)] :

أقل أنل أقطع احمل عل سل أعد زد هش بش تفضل أدن سر صل

٢٠- وفي الصفحة ١٧٣ - رقم/١٤١ : وقال :

الكلب فوق أناس أنت مالكهم ونعمة أنت فيها عندهم نقم
وان دهراً علوت الناس كلهم فيه فبالجهل والخذلان متهم

وفي (الابانة ص/١٧٩) بعد ذكر البيتين: [وفيه (عندنا) بدل (عندهم)] .

قال المتنبي يهجو كافوراً :

جاز الألى ملكت كفاك قدرهم فعُرِّفوا بك أن الكلب فوقهم
فانه حجة يؤذي القلوب بها من دينه الدهر والتعطيل والقدم

[أي أن الدهري يزعم أنه لو كان للعالم مدبر ، وكانت الأمور تجري على تدبير ، لما مَلَكَ هذا العبد] .

٢١ــ في الصفحة ١٧٥ ــ رقم/١٤٦ :

دِعص يُقِل قضيب بان فوقه شمس النهار تقل ليلاً مظلما

وفي (الابانة ص/٢٦) بعد ذكر البيت :قال المتنبي :

غصن على نقوَيْ فلاة نابت شمس النهار تقلُ ليلاً مظلما

[نَقَوَيْ : مثنى نقا · وهو الكثيب من الرمل] ·

٢٢ــ في الصفحة ١٩٢ ــ رقم/١٦٩ :

مما تردى عظم نوح وارتوى منها وان بقيت على العمرين

وتصحيح البيت على الصورة التالية من المصدر السابق المنسي ذكره :

مما يُروِّي عظم نوح وارتوى منها ، وان أبقت من العمرين

٢٣ــ في الصفحة ١٩٣ ــ نفس القصيدة :

والــيَ كأسكما على ما خيلَتْ بالتبر معجوناً بماء لجين

وتصحيحه على الصورة التالية من نفس المصدر :

فأتى كؤوسكما على ما خيلت بالتبر معجوناً بماء لجين

٢٤ــ في كتاب (فصول التماثيل في تباشير السرور) لابن المعتز[م. مجمع اللغة العربية بدمشق/١٤١٠] ص/١٢٠ ما يلي : وقال شاعر الشام [وهو يعني ديك الجن جرياً على عادته في الكتاب] :

ناديته وردا الظلام معطف حولي كخافية الغراب المدجن

قم نحسها حمصية فالخير ما نحس المدام ، وخير ساحة معدن

فأجابني ولسانه متفتر من سكره : صرفتني فقتلتني

وهذه الأبيات ليست في الديوان · والثاني منها فيه خطأ كلمة (نحس) والصواب (نحسو) والجزء الأخير منه غير مفهوم · والمظنون أن ما يصدر عن مجمع اللغة يكون مرجعاً خالياً من الخطأ والابهام ·

٢٥ــ في الصفحة ١٩٥ ــ رقم/١٧٥ :

وقال في مرض حبيبته :

يا ليت حماه بي كانت مضاعفة يوماً بشهر ، وأن الله عافاه

فيصبح السقم منقولاً الى جسدي ويجعل الله منه البرء عقباه

وقد وقعنا على الأبيات التالية في ديوان أبي نواس (تحقيق أحمد عبدالمجيد الغزالي) من منشورات دار الكتاب العربي ـ بيروت/صفحة ٣٤٨ :

قد حمَّ من أنا أحميه فأفقده ... ورداً بوجنته ورد لحمَّاه

يا ليت حمَّاه لي كانت مضاعفة ... يوماً بشهر ، وأن الله عافاه

فيصبح السقم منقولاً الى جسدي ... ويجعل الله منه البرء عقباه

أقول للسقم : كم ذا قد لهجت به ؟ ... فقال لي : مثلما تهواه أهواه

حلفت للسقم : أني لست أذكره ... وكيف يذكره من ليس ينساه ؟

٢٦ ـ في الصفحة ١٩٧ ـ رقم/١٧٧ :

وقال يتغزل :

بانوا فصار الجسم من بعدهم ... ما تصنع الشمس له فَيَّا

بأي وجه أتلقاهم ... اذا رأوني بعدهم حَيَّا

وما جوابي اذ تقول العدا ... ما صنع البين به شيَّا

ووجدنا الأبيات التالية في ديوان ماني الموسوس (طبع وزارة الثقافة بدمشق) صفحة/١٠١ :

وقال في النحول من شدة الوجد :

غابوا فأضحى بدني بعدهم ... لا تبصر العين له فَيَّا

بأي وجه أتلقاهم ... اذا رأوني بعدهم حَيَّا

واخجلتا منهم ومن قولهم ... ما ضرك الفقد لنا شَيَّا

* * *

وفي الختام لا بد من التنبيه على أن ما أخذه المتنبي من معاني ديك الجن وغيره من الشعراء ، لا يغض من قدره ، فهو ـ كما شهد له فيلسوف المعرة ـ « فخر الأمة العربية وفيلسوف الشعراء ، وشاعر الفلاسفة» ٠ على أنه كان يكسو تلك المعاني حُللاً من الألفاظ رائعة الحسن ، ويصوغها في قوالب من البلاغة، عجز عن مثلها أصحاب تلك المعاني ولهذا سارت أبياته وذاعت ، وخملت أبيات غيره ٠

ثم ان المعاني مشتركة بين الشعراء قديمهم وحديثهم ، وهم انما يتفاوتون بعذوبة الألفاظ وبلاغة التعبير، كما أن أكثر الشعراء يحفظ الواحد منهم عشرات الألوف من الأبيات لمن سبقه ، فتترسخ المعاني في خاطره وفي عقله الباطن ، فاذا ما أخذ في النظم انثالت عليه تلك المعاني ، فيصوغها في قالبه وأسلوبه من دون أن يدري أنه مبتكرها أو أنه حافظها

فتنطبع بطابعـه وتنسب اليه ، وقـد يضفي عليها من أفكاره زيادة وتبياناً فيصبح صاحبها كما جرى لأبي نواس حين قال :

دع عنـك لومي فان اللـوم اغراء وداوني بالّتي كانت هـي الدّاء

فقد سبقه الأعشى الى معنى الشطر الثاني من هذا البيت في قوله :

وكـأس شـربت علـى لـذة وأخـرى تـداويت منهـا بهـا

لكن النواسي أتى بمعنى جديد في الشطر الأول ليس في بيت الأعشى ، وهو معنى قائم بذاته ، وألبس المعنى الوارد في بيت الأعشى حلة مـن الألفاظ ذات الجرس الموسيقي مما جعـل قراءتها غنـاءً ، فاذا ما قرأنا بصوت مسموع :

« وأخـرى تـداويت منهـا بهـا »

ثم قرأنا بعـده :

« وداوني بالّتي كانت هـي الدّاء »

ظهر ذلك جليـاً ، وعرفنا سبب سيرورة بيت أبي نواس على كل لسان ، وخمول بيت الأعشى .

وما ذكر أخذ المتنبي معاني ديك الجن الا للاشادة بقيمة شعره ، وعلو كعبـه ، فمن الفخـر له أن يستحسن معانيـه شاعر عظيم كالمتنبي ، كما لا يضير المتنبي أن يأخذ معنى سبقه اليـه غـيره ، فهو كمـا قال (البديعي) صاحب كتاب (الصبح المنبي عن حيثية المتنبي):

« والمتنبي وان أخذ بعض معاني الأبيات التي أوردها (العميدي) [وهو صاحب كتـاب الابانة عن سرقات المتنبي] فقد زاد من ألفاظها ما يحلو سماعه ، وتعذب أنواعه ويلطف موقعه على القلوب ، ويصل الى النفوس بلا تكلف ، ويمتزج بالأرواح بلا تعسف ، وكساها مـن عنده ملاحة ، فاستوفى شروط الكمال كلها » .

ورحم الله أبا الطيب فقـد ملأ الدنيا وشغل الناس منذ عصره حتى الآن . وهذا رصيفه ديك الجن يشغلهم في هذه الأيام .

دمشق ـ خيرالدين شمسي باشا

□ المـراجـع :

- الابانة عن سرقـات المتنبي .
- ديوان ابي نواس .
- ديوان ديـك الجن .
- ديوان المتنبي (المعرف الطيب) .
- ديوان ابي تمـام .
- ديوان الأعشـى .
- ديوان ماني الموسوس .
- فصول التماثيل في تباشـير السرور .
- الصبح المنبي عن حيثية المتنبي .
- لسـان العرب .